كهنة آمون

أحمد الملك

كهنة آمون

رواية

Willows House
منشورات
ويلوز هاوس

أحمد الملك

كهنة آمون

رواية

Willows House
منشورات
ويلوز هاوس

إهداء

إلى ذكرى شُهداء ثورة ديسمبر المجيدة.

"يا دامي العينين و الكفين !

إن الليل زائل

لا غرفة التوقيف باقية

و لا زرد السلاسل !

نيرون مات ، ولم تمت روما ...

بعينيها تقاتل !

وحبوب سنبلة تجف

ستملأ الوادي سنابل ..!"

محمود درويش

في عيونك ...

ضجة ... الشوق ... والهواجس

ريحه الموج البنحلم فوقو

بي جية النوارس ..

ياما شان زفه خريفك

كل عاشق أدي فرضو ..

ومافي شمسا طاعمه طلت

إلا تضحكي ليها برضو ..

والغمام الفيكي راحل

في الصنوبر يلقي أرضو ..

والصباح امتد ياما .. كلما جاوبني نبضو ..

أبو ذر الغفاري

1

والدك مريض جدا رجاء أن تحضر فورا!

كان ذلك نص البرقية التي تسلّمها، قرأها من خلال دخان الشيشة الكثيف الذي يعبئ هواء البيت برائحة التفاح المُتخمر الشبيهة برائحة الروث الجاف.

قرأ البرقية بصوت فخيم، كان يمسك بالورقة بعيدا عن وجهه، كأنه يريد أن يشاطره العالم صدمة الأخبار التي تنقلها برقية مشئومة الى هذه الأحراش النائية، يبعدها عن وجهه حتى يستطيع قراءة كلماتها بدون أن يرهق نفسه بالبحث عن نظارته الطبية، قرأ البرقية وهو يضغط على مخارج الحروف وحوافها، يمرّغها في وحل صوته الغليظ مثل مطرقة، في ضوء الغسق الباهت الزاحف نحو الظلمة الشاملة، الذي أعطى صوته مسحة غرائبية، يستحيل تمييزها عن الخيط الرقيق لحياة موازية تنشأ في سحر الظلمة التي كانت تتدفق من المستنقعات ومن سفوح الجبال والغابات المطيرة، وضوضاء عصافير المغيب. كأنه يقرأ بيانا عسكريا، كأنه يتمرّن على البيان الذي سيقوم بتسجيله خلال أيام قليلة، فتوقف زملائه عن لعب الورق ربما لأنهم كانوا يعرفون ردة أفعاله غير المنطقية التي لا تكون ذات صلة بالضرورة بأية وقائع على الأرض. تشمّم الورقة، كأنه سيجد في رائحة الحبر والورق تفسيرا للكلمات السبع التي إحتوتها البرقية، ثم ألقى بالورقة بعيدا عن أنفه الضخم قبل أن ينفجر ضاحكا!

قال أحد زملائه مندهشا: ما الأمر هل فهمت شيئا آخر غير ما سمعناه؟

ملأ صدره بِالدُّخَانِ قبل أن يقول ببطء، كأنه لا يقول شيئا بل تتدفق الكلمات من جوفه، بسبب امتلاء صدره بِالدُّخَانِ ،: لم أر أبي أبدا!

لم يثر إعلان عقوقه لوالده أية ردة فعل، أثار مجرد ذكر والده بعض الدهشة، كان وجوده يعطي دائما انطباعا بأنه جاء لوحده إلى هذا العالم، خرج وحده من مكان ما، نفض الغبار عن ثيابه واستأنف الحياة كأنه كان موجودا منذ الأزل.

قال زميل آخر: تعني أنه كان مسافرا؟

واصل كلامه البطيء كأنه لم يسمع شيئا، كأنه يرد على شخص غير مرئي يقبع في دواخله، وليس على زملائه الذين خبروا نوبات جنونه العسكرية، أعلن دون حتى شعور بالندم: مات أبي قبل أن أولد!

ضحك زملائه جميعا هذه المرة.

قال أحدهم، كأنه يحثه على قراءة المزيد من هذه الفوضى الإخبارية البريدية: يحدث هذا أحيانا ربما البرقية موجهة لشخص آخر! وحكى الرجل قصة حدثت لهم قبل سنوات، كان والده يعمل لفترة مؤقتة في مدينة بعيدة، حين وصلتهم يوما برقية تفيد بوفاته، وبعد أيام من إقامة العزاء وبدء مراسم الحداد عليه، فوجئوا به يدخل عليهم في البيت بشحمه ولحمه!

نظـر حولـه بهـدوء مـن لا يرغـب حتـى في أن يشـاركه أحدهـم هـدوء أعصابـه: البرقيـة موجهـة لي شـخصيا!

تعني أنهم ربما يقصدون والدتك؟

لا، والدتي بخير.

ثم صمت.

وماذا ستفعل؟

سأسافر غدا، سنعرف غدا كل شيء!

سـافر في الصبـاح، لم يـروه مـرة أخـرى طـوال بضعـة أيـام حتـى فوجئـوا بـه في جهـاز التلفزيـون وهـو يقـرأ بيـان الانقـلاب الأول! لم تكـن الصـور في جهـاز التلفزيـون واضحـة، وبـدا لهـم صوتـه مختلفـا، لا يشـبه الصـوت الـذي اعتـادوا عليـه طيلـة إقامتـه معهـم في البيـت الواقـع داخـل الحاميـة العسـكرية.

(أيهـا الشـعب الكريـم أن قواتكـم المسـلحة المنتـشرة في طـول البـلاد وعرضهـا ظلـت تقـدم النفـس والنفيـس حمايـة للـتراب السـوداني وصونـا للعـرض والكرامـة وتترقـب بـكل أسى وحرقـة التدهـور المريـع الـذي تعيشـه البـلاد في شـتى أوجـه الحيـاة وقـد كان مـن أبـرز صـوره فشـل الأحـزاب السياسـية في قيـادة الأمـة لتحقيـق أدنى تطلعاتهـا في الأرض والعيـش الكريـم والاسـتقرار السـياسي حيـث عـبرت عـلى البـلاد عـدة حكومـات خـلال فـترة وجيـزة ومـا يـكاد وزراء الحكومـة يـؤدون القسـم حتـى تهتـز وتسـقط مـن شـدة ضعفهـا وهكـذا تعرضـت البـلاد لمسلسـل مـن الهـزات السياسـية زلـزل الاسـتقرار وضيـع هيبـة الحكـم والقانـون والنظـام.

أيها المواطنون الكرام

لقد عايشنا في الفترة السابقة ديمقراطية مزيفة ومؤسسات دستورية فاشلة ،وإرادة المواطنين قد تم تزييفها بشعارات براقة مضللة وبشراء الذمم والتهريج السياسي)

جلسوا بعد نهاية تلاوة البيان، حول جهاز التلفزيون، لا يصدقون ما سمعت آذانهم، حتى أن أحدهم فحص جهاز التلفزيون ليتأكد أن الأمر ليس خدعة ما، معتقدا أن الأمر مجرد مزحة مسجلة على شريط فيديو.

قال أحد زملائه أخيرا وكأنه يخاطب نفسه: هل أنت متأكد أنه كتب هذا البيان بنفسه؟ لم أره يوما يقرأ أو يكتب شيئا!

أعلن ضابط صغير الرتبة: طلب مني مرة واحدة كتابة برقية لأسرته، كنت مصابا بجرح في يدي اليمنى، فاعتذرت أنني لا أستطيع الكتابة، لكنه لم يهتم بكلامي وقال لي : هذا أمر عسكري! اضطررت أن استخدم يدي اليسرى، يبدو أنهم أرسلوا يبلغونه بوفاة شقيق والدته، كتبت برقية تعزية عاطفية جدا وصفت وفاة خاله بالفقد الجلل، ضحك وقال لي حين قرأت له ما كتبت، لا أظن فقده سيكون جللا! كان رجلا بخيلا رغم أنه يملك الكثير من المال! تأخرت وفاته كثيرا! بعض الأغنياء يعيشون أطول من عمرهم الحقيقي! اعرف أبنائه لابد أنهم سعدوا سرا لوفاته! لكنهم بالطبع سيبكون قليلا أمام الناس حتى لا يشعر الناس بشيء!

قال أحدهم ضاحكا: ومن الذي كتب له هذا البيان إذا؟

قال أحد زملائه وكأنه يتذكر شيئا: هل تذكرون وفد حزب

(الاخـوان المسـلمين) الـذي زار حاميتنـا قبـل أشـهر، وقدمـوا لنـا بعـض التبرعـات والمـواد الغذائيـة؟ لقـد رأيـت رئيـس الوفـد يتحـادث مـع الأخ العميـد، كنـت قـد خرجـت لالتقـاط بعـض ثمـار المانجـو مـن الأشـجار القريبـة مـن البيـت، حـين وجدتهـما يجلسـان أرضـا خلـف الأشـجار، شـعرت كأنّ ظهـوري أمامهـما فجـأة قـد أربكهـما قليـلا، فانسـحبت معتـذرا معتقـدا أنهـما يتحدثـان في موضـوع شـخصي، حزب الإخـوان كان هـو الحـزب الوحيـد الـذي أبـدى اهتمامـا بالجيـش، بـل أنّ نوّابهـم في الجمعيـة التأسيسـية تنازلـوا عـن السـيارات التـي منحتهـا لهـم الحكومـة لصالـح دعـم الجيـش! كان واضحـا للكثيريـن أنّ تبرعاتهم كانـت اسـتثمارا، لكـن لا أحـد توقـع أن يتـم الأمـر بهـذه السرعـة!

هـل تعنـي أنّ رئيـس الوفـد اتفـق معـه هنـا خلـف أشـجار المانجـو عـلى قيـادة الانقـلاب!

لا أعـرف لقـد قلـت لكـم مـا شـاهدته فقـط! كانـا يتهامسـان، مـن الـذي يصـدّق أنّ الأخ العميـد، يمكـن أن يجلـس مـع شـخص مـا ليضـع خططـا للإسـتيلاء عـلى السـلطة أو لأيـة شـئ يمكـن أن يحـدث غـدا، لم يكـن الأخ العميـد مـن عشّـاق وضـع الخطـط، حتـى وهـو يحـارب كانـت كل تحركاتـه عشـوائية، لا يسـتطيع أي مـن رفاقـه أن يتنبـأ بخطوتـه القادمـة!

لابـد أنهـم كتبـوا لـه البيـان وجعلـوه يتمـرّن عـدة مـرّات عـلى قراءتـه! هـل رأيتـم كيـف مسـح عـن وجهـه كل آثـار لا مبالاتـه، وسـخريته مـن كل مـا حولـه، لقـد بـدا في غايـة الجديـة! لا أصـدّق أنـه أصبـح فجـأة جـادا ونـسي لامبالاتـه واسـتهتاره بـكل شيء!

هناك من يقف خلفه، أوضح زميل آخر: من يضع له علامات حمراء في كلمات البيان حتى يتجهم وجهه أحيانا، أو يرفع صوته ليؤكد جديته في فرض هيبة الدولة والقضاء على الفوضى الحزبية، أو يخفض صوته وينفرج وجهه قليلا حين يعد الناس بالأمن والرخاء والعدالة!

قال أحد زملائه: لابد إنه قضى الليلة السابقة كلها يقرأ البيان ويعيد قراءته عدة مرات، تحت إشراف الرجل الذي كتبه، حتى يتأكد أنه لن يقع في أية أخطاء أثناء القراءة!

مرّت فترة صمت، كأنهم كانوا في انتظار بيان آخر، يكذّب البيان الأول. كانوا في انتظار أن يأتي أحدهم ضاحكا ويقول: هل أعجبكم أدائه؟ إنه ممثل هاو اقتحم الاستديو بسلاحه وفرض علينا إذاعة هذه الفقرة الضاحكة! انتظروا أن يعلن أحدهم ضاحكا أن ذلك كان برنامج الكاميرا الخفية

يا للكارثة قال ضابط برتبة العقيد: هذا البلد ذاهب إلى الجحيم!

2

أوقف عبد الرحيم سيارة أجرة وطلب من السائق الاتجاه إلى منطقة الصحافة، كان يبدو متعجلا فاليوم يوم زفافه، قبل قليل تمت مراسيم عقد الزواج، وانفض الحضور على أمل العودة للمشاركة في الحفل مساء، عبد الرحيم كان مرتبكا قليلا لكنه كان واعيا لأهمية الزيارة التي عليه القيام بها الآن، رغم شعوره بالإرهاق من سيل الزيارات التي تعين عليه القيام بها منذ حضوره قبل يومين، من إحدى دول الخليج التي يعمل بها منذ سنوات.

هنأه سائق عربة التاكسي العجوز على الزواج، دهش في البداية ثم انتبه إلى الحناء في يديه، والتي لابد أن السائق عرف منها أنّ الرجل تزوج أو أنه على وشك الزواج، شكر السائق، مازحه السائق حين علم أنّ حفل الزواج سيكون في مساء اليوم نفسه قائلا: في زماننا لم يكن يسمح للعريس بالخروج من البيت حتى نهاية حفل الزواج، وفي فترة الحظر المنزلي، تقوم أخواته وخالاته بتدليك جسمه يوميا بالزيت والعطور المحلية.

توقفت السيارة أمام بيت صغير تظلل مدخله شجرة نيم، هرع عبد الرحيم داخلا، كان المساء يرخي سدوله، وسمع دقات الساعة السابعة تنطلق في جهاز الراديو، استقبله عمه المقعد بحفاوة بالغة وبدموع غزيرة أغرقت عبد الرحيم في نوبة بكاء، فمنذ وفاة والده المفاجئة قبل سنوات تولي عمه عبد الكريم تربيتهم هو وإخوته وَتَحَمُّل نفقة تعليمهم، كان البيت خاليا

إلا مـن عمـه الـذي ذهبـت زوجتـه إلى بيتهـم للمشـاركة في مراسـيم الـزواج، جلـس بجانـب عمـه وسـاعده عـلى أداء صـلاة المغـرب، ثـم دخـل إلى المطبـخ وصنـع كوبـين مـن الشـاي لـه ولعمـه، وقبـل أن يسـتأذن خارجـا قـام بتشـغيل جهـاز التلفزيـون الصغـير في الفنـاء وفي تلـك اللحظـة جـاءت جارتهـم للاطمئنـان عـلى الرجـل المقعـد فوجـدت عبـد الرحيـم يسـاعده للانتقـال مـن الكـرسي إلى فراشـه .

قال العم: اذهب يا ولدي لابد أنهم في انتظارك.

فقال عبد الرحيم سنراك غدا، سنحضر أنا والعروس.

وسـأله العـم: هـل سـتبقي طويـلا أم أنّ عطلتـك قصـيرة، فقـال عبـد الرحيـم للأسـف عطلتـي قصـيرة لابـد أن أعـود خـلال أسـبوعين فقـط والا واجهتنـي مشـكلة في إقامتـي هنـاك.

ودعـه عبـد الرحيـم مندهشـا مـن الدمـوع الغزيـرة التـي كانـت تنطلـق مـن عينيـه، هاتـف خفـي لم يكـترث لـه كان يوحـي بأنهـا دمـوع الـوداع، أنـه لـن يـري عمـه مـرة أخـرى.

خـرج مـن البيـت مسرعـا عـلي أمـل أن يسـتقل أول سـيارة أجـرة يصادفهـا، كان البيـت يقـع عـلى شـارع جانبـي صغـير لذلـك قـرّر أن يحـث الخطـي باتجـاه الشـارع الرئيـسي حيـث يسـهل العثـور عـلى سـيارة أجـرة، بمجـرد أن توقـف وأشـار بيـده توقفـت سـيارة أجـرة، كان السـائق رجـلا مسـنا يقـود سـيارة بيجـو قديمـة، يختلـط هديـر محرّكهـا مـع صـوت ارتجـاج هيـكل السـيارة المتهالـك، فتـح البـاب ليسـتقل السـيارة بجانـب السـائق، وفي هـذه اللحظـة توقفـت سـيارة بيضـاء صغـيرة بجانبـه، هبـط منهـا بسرعـة ثلاثـة رجـال، بـادر أحدهـم سـائق

العربة التاكسي بقوله: يمكنك الذهاب سنقوم نحن بتوصيله، انطلق سائق عربة الأجرة على الفور دون أن يرد على الرجل بكلمة واحدة، وكأنه رجل شرطة تلقى أمرا من قائده.

تقدم الرجل من عبد الرحيم وسأله، هل أنت عبد الرحيم محمد عبد الكريم، حين رد عليه بنعم، عرّف السائل نفسه بأنه من جهاز الأمن والمخابرات، رفع بطاقته في وجه عبد الرحيم وأعادها بسرعة إلى جيبه قبل أن يتحقق عبد الرحيم بسبب ارتباكه من هوية الرجل. طلب الرجل منه بهدوء أن يرافقهم لمباني الجهاز فقط لبضع دقائق للإجابة على بعض الأسئلة.

ركب عبد الرحيم معهم مندهشا، معتقدا في البداية أن هناك خطأ ما، فهو لم يقم بأية نشاط يُبرّر اعتقاله من قبل جهاز الأمن.

عبرت السيارة في شوارع نصف مظلمة، بدأت حركة الناس فيها تخفت مع أصوات الرعد والأضواء الخاطفة للبرق، التي كانت تضئ مشهد أشجار النيم الواقفة في ثبات مثل مجموعة من الجنود، لم تكن هناك نسمة واحدة في العالم، كل شيء يتوقف بانتظار المطر.

سيبدأ حفل زفافه بعد ساعات قليلة، تذكّر أن شخصا ما تنبأ بالأمس باحتمال هطول المطر أثناء الحفل، لكن شخصا لا يذكره قال إن من النادر هطول أمطار في شهر مايو، ربما تكون هناك عاصفة ترابية، الان لم يعد يعرف كيف يجب التصرف في حال هطول المطر خاصة أن الحفل سيقام في الخارج في حديقة النادي الذي قام باستئجاره.

في النهاية توقفت السيارة أمام مبني معتم الواجهة، في الداخل

كانت هناك صالة استقبال واسعة يجلس في نهايتها شخص أمامه عدد من أجهزة التليفون، طلب أحد الثلاثة من عبد الرحيم الجلوس لبضع دقائق، ثم اختفى الرجال الثلاثة من باب جانبي، لبث عبد الرحيم فترة جالسا دون أن يفهم شيئا، ثم بدأ يشعر بالقلق، نظر إلى ساعة يده فعرف أن الحفل سيكون قد بدأ ولابد أن الجميع بدءوا يلاحظون غيابه، مرت ساعة واحدة، تقدم عبد الرحيم من الرجل الجالس في الاستقبال، لم يكترث له الرجل وواصل حديثه في التليفون وكان يقطع حديثه فقط ليرد على جهاز آخر، بقي عبد الرحيم منتظرا لدقائق بدت له دهرا.

وفي النهاية التفت إليه الرجل سائلا عما يطلب، اوضح له عبد الرحيم: أحضرني ثلاثة رجال إلى هنا وطلبوا مني انتظار بضع دقائق، ولكن مضت أكثر من ساعة ولم يحضر أحدهم، أشار الرجل بيده بفتور لعبد الرحيم ليجلس، وقال باقتضاب إنه سيسأل عن الشخص الذي أحضره.

عاد عبد الرحيم إلى مكانه تاركا الرجل يتصل عبر الهاتف، مضت عدة دقائق قبل أن يستدعيه الرجل مرة أخرى، ويبلغه بأنه لم يجد أحدا يعرف سبب استدعائه، ولابد أن ينتظر لحين عودة الأشخاص الذين قاموا باستدعائه.

ابتلع عبد الرحيم جفاف حلقه وقال: ولكن اليوم يوم زفافي والساعة الآن ...

قاطعه الرجل بصوت حاسم: لا تضيع وقتك فانا لا أستطيع أن افعل لك شيئا!

تجاوزت الساعة الثامنة بقليل، لم تبق على نهاية الحفل سوى حوالي ساعة واحدة، فبسبب إجراءات حظر التجول الذي فرضته حكومة الانقلاب، تنتهي الحفلات قبل الساعة العاشرة، لابد أن المدعوين تناولوا عشاءهم الآن وبعضهم غادر المكان دون أن يراه، شعر بالحزن يعتصر قلبه، تذكر والدته التي ستكون قلقة للغاية لغيابه ونورا التي تجلس وحيدة في ثياب الزفاف، تذكر قصة سمعها حول شخص هرب ليلة زفافه، مُفكرا هل من الممكن أن تعتقد نورا أنه هرب في هذه الليلة تحديدا، هل سيفكر الناس أنه لو كان يريد الهرب لفعل ذلك قبل عقد الزواج، لما حضر أصلا من خارج الوطن.

ثم اجتاحته نوبة أمل، أنهم سيطلقون سراحه بمجرد أن يكتشفوا أنهم إرتكبوا خطأ في توقيفه، تذكر كلامهم أنهم يريدونه لبضع دقائق فقط، وفكّر أنهم كنوع من الاعتذار سيعيدونه بسيارتهم إلى بيت عروسه، خاصة وهو لن يستطيع حتى أن يمشي على قدميه بعد حلول ميقات حظر التجول، ولن تكون هناك أية سيارات أجرة أو مواصلات في الشوارع. لكنه بعد تفكير وجد أنه من الأنسب أن يتصل بصديق يعمل ضابطا في الشرطة ليحضر بسيارته، كان قد سمع أنّ ضباط الشرطة ممن يعملون ليلا، يكون لديهم اذن للتحرك في ساعات حظر التجول، وحتى إن لم يكن لديه إذن فلن يكون الحصول عليه صعبا لمن هو في وظيفته، فقط سيضطر أن يطلب من هذا الرجل الذي يشبه رجلا آليا أن يسمح له باستخدام الهاتف ليتصل بصديقه ضابط الشرطة.

رغم الارتباك الذي شلّ تفكيره، لكن عبد الرحيم حاول

استعراض شريط حياته بسرعة محاولا تحديد عمل أو نشاط قام به ضد السلطة الانقلابية، حين وقع الانقلاب في يونيو من العام 1989 كان هو قد أكمل بضعة أشهر منذ غادر الوطن، كان محظوظا أنّ أحد أقربائه وكان صديق طفولة أرسل له بمجرد تخرجه من الجامعة دعوة للزيارة حصل بموجبها على فيزا من السفارة، وبعد وصوله إلى الخليج حصل بسرعة على وظيفة في شركة تقوم باستيراد الأدوية والمعدات الطبية وتوزيعها، بعد أن قام بتوقيع عقد العمل عاد مرة أخرى إلى الوطن لإكمال إجراءات الإقامة، في فترة الدراسة الجامعية لم يكن له نشاط سياسي، لكنه كان يشارك أحيانا مع أصدقائه من طلاب الجبهة الديمقراطية في بعض البرامج الأدبية، كان يكتب الشعر، لكن شعره غلب عليه الجانب العاطفي، لم يكن سعيدا حين سمع بوقوع الانقلاب العسكري، كان بعض زملاء المسكن متحمسين للانقلاب العسكري، أملا في أن ينهي ذلك ما رأوه فوضى سياسية بسبب عودة الأحزاب السياسية إلى نفس فوضى ممارساتها القديمة، كان عبد الرحيم يعتقد أن الممارسة الديمقراطية تحتاج لبعض الوقت لتترسخ، وأنّ الناس تستطيع الآن على الأقل نقد الأوضاع غير الصحيحة وان ظهر فساد في مكان ما فإنه ينكشف بسرعة بفضل الصحافة الحرة.

وبعد أسابيع من وقوع الانقلاب العسكري جاء وفد من الانقلابيين لشرح الأوضاع الجديدة للمغتربين وطلب الدعم منهم، كان هو الوحيد من مجموع السبعة الذين يجمعهم المسكن الذي لم يستجب للدعوة التي تبنتها الجالية التي تنظم بعض الأنشطة الاجتماعية والثقافية. تذكّر تلك الواقعة، فكّر أن ذلك ربما كان

السبب وربما أيضا نشاطه الأدبي في الجامعة، ثم عاد ليقنع نفسه أنّ الأمر لا يعدو كونه تشابه اسمه مع اسم شخص مطلوب في قضية ما، لقد سمع أن ذلك يحدث كثيرا. وقد يستغرق إثبات براءة الشخص المتهم بعض الوقت، المشكلة كانت أنه في قبضة جهاز الأمن، وليس الشرطة، لقد سمع كثيرا عن تجاوزات الأجهزة الأمنية بعد الانقلاب العسكري. وعن التعذيب في معتقلات سرية، بل سمع بعمليات اغتيال طالت عددا من الناشطين ضد الحكم العسكري الإخواني.

مضت ساعة أخرى دون أن يظهر أحد، استبد القلق بعبد الرحيم فغادر مقعده متجولا في الصالة الواسعة، ثم شعر بالتعب فعاد إلى مقعده، لابد أن الحفل قد انتهى الآن وشرع العمال في تنظيف المكان وجمع المقاعد والمناضد، ولابد أن إخوته يجوبون المستشفيات ومراكز الشرطة بحثا عنه.

فكّر قليلا ثم توجه إلى الرجل الجالس في الاستقبال مرة أخرى.

قال بصوت حزين، هل يمكنني استخدام الهاتف، فهز الرجل رأسه رافضا، أوضح باقتضاب : ذلك ممنوع!

عاد عبد الرحيم مرة أخرى إلى مقعده وبحث عن سيجارة في جيبه فلم يجد شيئا، وفي تلك اللحظة تذكر بذلة زفافه التي كان مفترضا أن يعود قبل الحفل للمصبغة التي أودعها فيها لتنظيفها، أشارت عقارب الساعة إلى العاشرة مساء، ميعاد حظر التجول، بدأت الحركة في الخارج تهدأ، واختفت تدريجيا أصوات السيارات.

أرخى عبد الرحيم جسده المنهك على المقعد، وترك رأسه نهبا

للهواجـس قبـل أن يسـتغرق في نـوم مشـوش، ليسـتيقظ فجـأة عـلي مشـهد الرجـال الثلاثـة وقـد أحاطـوا بـه، سـحبوه خارجـا في سـيارة انطلقـت في الظـلام.

3

يختنق في البذلة العسكرية المثقلة بالنياشين والأوسمة، في جحيم الهواء الراكد المشحون برائحة بارود الاستعراض العسكري، اليوم عيد الثورة، العيد السابع والعشرين، نفس الصورة التي يبدو فيها في أغنية راب، انتشرت عبر تطبيق الواتساب انتشار النار في الهشيم.

(جوّعت الناس

يا رقّاص

قتلت الناس

يا رقّاص)

كان رجال أمنه يصادرون أجهزة التليفونات، ويعتقلون مشرفي مجموعات الواتساب والفيسبوك، لكن كل ذلك لم يوقف انتشار الأغنية التي رددتها حتى الببغاوات في مجاهل السافنا، فوق سفوح الجبال الغارقة في ضباب المطر الأبدي، وحتى مشارف الغابات المطيرة حول بحيرة فكتوريا، تزامن انتشار الأغنية مع الفوضى التي عمّت القصر الجمهوري إثر عودة رجال حزب المؤتمر الوطني للتزاحم في القصر مثلما كان يحدث في الأيام الخوالي، في أثناء تلك الفوضى صافحه شخص غريب، أمسك الغريب بيده لبعض الوقت حتى كاد الحرس الرئاسي يتدخل، حين اقترب الحرس ضاربا طوقا من حوله، تبخّر الرجل الغريب فجأة من أمامه، في دوامة هواء

ضوئيـة، مُخلّفـا سـحابة صغـيرة مـن ذرات لـون عمامتـه البيضـاء، شـعر شـعورا غريبـا مجـرد أن اختفـى الغريـب مـن أمامـه: شـعر أنّ تغيـيرا مـا قـد حـدث في جسـده، وأنـه قـد فقـد أحـد أعضـاء جسـمه!

يُقـال إن هنـاك سـاحر في المدينـة سـيدي الرئيـس مـا أن يصافـح شـخصا مـا حتـى يختفـي عضـوه الذكـرى! ولابـد مـن مسـاومة السـاحر مـن أجـل اسـتعادة العضـو المفقـود!

هـذه إحـدى نتائـج عـودة رجـال الحـزب الوطنـي لاحتـلال ردهـات القـصر وغرفـه، يتحـوّل القـصر الجمهـوري إلى شيء أشـبه بسـوق الجمعـة، كل شيء معـروض للبيـع، قطـع الأراضي، المشـاريع الزراعيـة، المؤسسـات الحكوميـة التـي دفـع شـعبنا ثمنـا باهظـا لينتزعهـا مـن براثـن الرأسـمالية الطفيليـة التـي ورثـت الاسـتعمار الإنجليـزي، وتحكّمـت في اقتصادنـا سـيدي الرئيـس، ليـأتي هـؤلاء الإخـوان المسـلمون، الذيـن خدعونـا باللحـي الزائفـة، وغُـرة الصـلاة التـي يرسـمها عـلى وجوههـم متخصصـون في رسـوم التاتـو، ولا تكلّـف سـوى بضعـة جنيهـات، فباعـوا كل شيء في الوطـن، حتـى قضبـان السـكة الحديـد التـي زرعهـا اللـورد كتشـنر في الصحـراء لنقـل جنـوده أواخـر القـرن التاسـع عـشر، نزعوهـا وباعوهـا لمصانـع الحديـد، حتـى الرمـال قامـوا بتصديرهـا لمصانـع السـليكون في أوروبـا، حتـى العقـارب، خدعهـم الصينيـون في البدايـة واشـتروها منهـم مقابـل عـشرة سـنتات للكيلـو الواحـد، لعمـل أبحـاث حـول المنافـع الطبيـة لسـموم العقـارب، ثـم اكتشـفوا لاحقـا أنّ الصينيـين كانـوا يشـترونها لاسـتخراج ذرات صغـيرة مـن الذهـب مـن أحشـائها! فالعقـارب التـي تعيـش في بلادنـا تـأكل الذهـب مـع الرمـال!

يمـوت أهـل بلادنـا مـن الجـوع ومـرض السـل الـذي بـات مـن

التاريـخ في كل مـكان في العـالم سـيدي الرئيـس، والذهـب تأكلـه العقـارب، ويسرقـه أعضـاء حزبـك جهـارا نهـارا. حـين اكتشـفوا وجـود ذهـب في أحشـاء العقـارب أصبحـوا يقومـون بسـحب ذرّات الذهـب مـن العقـارب بواسـطة إبـر معدنيـة، ثـم يقومـون ببيـع العقـارب إلى الصينيـين فارغـة مـن الذهـب بنفـس السـعر القديـم! تريـدون عمـل أبحـاث حـول السـموم؟ إليكـم مصانـع السـموم الصغـيرة هـذه، فقـط لا تنسـونا حـين تقومـون بتصنيـع أدويـة مـن هـذه السـموم!

هـل تصـدّق أن هنـاك مـن يسـتطيع خـداع الصينيـين؟ فعلهـا هـؤلاء الاخـوان سـيدي الرئيـس! حصلـوا مـن الصينيـين عـلى قـروض لتمويـل مشروعـات زراعيـة لاسـتصلاح الأراضي في الصحـراء، بعـد أن باعـوا كل الأراضي الخصبـة المحاذيـة لنهـر النيـل، للمسـتثمرين الأجانـب! وحـين جـاء الصينيـون لتفقـد المشروعـات التـي يقومـون بتمويلهـا، وجدوهـا صحـراء قاحلـة! لا أثـر فيهـا ولا حتـى لشـجرة الهوهوبـا التـي تنمـو في أشـد الصحـاري جفافـا، هـل تصـدق سـيدي الرئيـس خدعـوا حتـى بـن لادن! قدمـوا لـه دراسـات جـدوى لمشروعـات مضمونـة الربـح، وتبخـروا بمشروعاتهـم بمجـرد أن حصلـوا عـلى المـال!

اسـتولوا عـلى كل الأراضي السـكنية في العاصمـة، واسـتولوا عـلى قطـع الأراضي التــي خصصتهــا البلديــات لتكــون متنزهــات عامــة وملاعـب للأطفـال. اقتسـموا الأراضي الزراعيـة في كل مـكان باعـوا جـزءا منهـا لمسـتثمرين أجانـب يتبعـون للتنظيـم الـدولي للإخـوان، وقامـوا بأنفسـهم باسـتغلال الجـزء المتبقـي مـن الأراضي، يسـتوردون معـدات زراعيـة غاليـة بـدون أن يدفعـوا مليـما لمصلحـة الضرائـب أو الجـمارك، لأنهـم يسـتوردونها باسـم منظـمات خيريـة تعمـل في خدمـة اليتامـى

والفقـراء، ويدخلـون كل هـذه المعـدات باعتبارهـا تعمـل في مشـاريع خيريـة! تسـتورد منظماتهـم الخيريـة كل شيء سـيدي الرئيـس، مـن الأدويـة والأسـمدة منتهيـة الصلاحيـة، إلى الأسـلحة والمخـدرات!

حمـد اللـه لأنّ صديـق طفولتـه الـذي يحـكي لـه بـبراءة عـن فسـاد الاخـوان، ليـس كاهنـا ليعـترف لـه أنّ ربـع أربـاح الفسـاد الإخـواني كانـت تصـب في الحسـابات البنكيـة لإخوتـه وزوجتـه، وحسـابات الـشركات التـي تعمـل في غسـيل كل شيء: غسـيل العربـات، غسـيل الـكلى، غسـيل الأمـوال وغسـيل الذهـب! حتـى غسـيل الملابـس! تُوَفِّـر شركات إخوتـه مسـحوق غسـيل يزيـل أكـثر بقـع الملابـس التصاقـا! كـما يقـول الإعـلان الـذي تذيعـه الفضائيـات التابعـة للحـزب! يدّعـي الفقـر أمـام صديـق طفولتـه حتـى يصـدّق أنـه وإن كان يعلـم بألاعيـب الاخـوان وفسـادهم لكنـه بعيـد عنـه، يقـول لا توجـد قهـوة منـذ يومـين في القـصر! فرغـت علبـة القهـوة، طلبـت منهـم إحضـار كعـك وحلويـات للضيـوف لكنهـم اعتـذروا بسـبب التقشـف الـذي تمارسـه الحكومـة لخفـض النفقـات الحكوميـة، حتـى أنهـم اغلقـوا عـددا مـن السـفارات وقامـوا بدمـج بعـض الـوزارات!

يقـول لصديـق طفولتـه بخـوف: هـل لا تـزال تقـرأ أفـكار النـاس مثلـما كنـت تفعـل أيـام المدرسـة؟ كنـت تقـرأ أفـكار كل النـاس مـن حولـك كأنـك تقـرأ مـن كتـاب مفتـوح، حتـى أنّ النـاس كانـوا يلـوذون بالفـرار حـين تظهـر في مـكان مـا، خشـية كشـف أفكارهـم أمـام النـاس!

يضحـك صديـق طفولتـه ويقـول: لا يحتـاج الانسـان الان ليقـرأ الأفـكار ليعـرف حجـم الدمـار الـذي نعيـش فيـه بسـبب سياسـات حزبكـم! ثـم ضحـك وقـال: صرت مثـل ذلـك الرجـل الـذي كان يقـف

قبـل سـنوات في إحـدى إشـارات المـرور ينتقـد الحكومـة، يقـال أنّ رجـال أمنـك اعتقلـوه وتعـرّض للتعذيـب، وحـين اطلـق سراحـه توقـف عـن مخاطبـة النـاس في إشـارات المـرور، التقيتـه مـرة بالصدفـة وسـألته لم توقـف عـن نقـد الحكومـة، فقـال لي ضاحـكا: بسـبب الجـوع الناجـم عـن سياسـات الحكومـة، لم أعـد اقـوى عـلى الوقـوف طويـلا لمخاطبـة النـاس!

يعلّـق السـيد الرئيـس ضاحـكا: طلبـت منـك عـدة مـرات أن تقـرأ الأفـكار المفيـدة، أن تقـرأ أفـكار معلـم الحسـاب، لنعـرف أسـئلة الامتحـان، بـدلا مـن ذلـك كلـما كنـت تقـرأه مـن أفـكار كان يـدور حـول مشـاكل المدرسـين مـع أولادهـم وزوجاتهـم، ومشـاكل التلاميـذ مـع زملائهـم وأخوانهـم!

يضحـك زميـل الطفولـة ويقـول: أعتقـد انـني حاولـت، لكـن لا ينجـح دائمـا قـراءة أفـكار النـاس، بعـض النـاس يضعـون أفكارهـم داخـل جـدار يصعـب إختراقـه، والبعـض يفكـرون خـارج رؤوسـهم، فيمكـن لأيـة عابـر سـبيل قـراءة مـا يفكـرون بـه!

يحـاول السـيد الرئيـس بنـاء جـدار سريـع في ذاكرتـه لوضـع كل مـا لا يرغـب في كشـفه مـن خلـف الجـدار، يضـع جـزءا مـن الجـدار في لسـانه، يتكلـم بهـدوء، يدافـع بلطـف عـن أعضـاء حزبـه، محـاولا ألا يعطـي انطباعـا أنـه كان يدافـع في الواقـع عـن نفسـه، يقـول: الكثـير مـن قصـص الفسـاد غـير حقيقيـة، هنـاك العلمانيـون والشـيوعيون وعمـلاء االإمبريالية،(يشـعره إسـتخدام كلمـة إمبرياليـة بنـوع مـن الفخـر الخفـي، دون أن يكـون واثقـا أنـه يسـتخدمها في الموضـع الصحيـح) هنـاك الذيـن كانـوا يسـتفيدون مـن الفـوضى التـي ضربـت أطنابهـا

في الوطـن قبـل وصولنـا إلى السـلطة، الاعـلام الغـربي يتواطـأ ضـد مشروعنـا الحضـاري، يقتلـون ملايـين النـاس بالقنابـل الذريـة والأسـلحة التـي يحرّمـون اسـتخدامها بعـد أن يصنعونهـا، ثـم يدسـون أنوفهـم في ثيـاب نسـائنا، يتحدثـون عـن حقـوق الإنسـان، عـن حقـوق النسـاء، عـن امـرأة جلدتهـا محكمـة النظـام العـام لأنهـا ترتـدي زيـا فاضحـا! يريـدون أن تسـود الرذيلـة في مجتمعاتنـا المحافظـة!

يقـرأ صديـق الطفولـة أفـكارا مشوشـة تناقـض أقـوال الرجـل الـذي كان يجلـس بجانبـه طـوال سـت سـنوات في المدرسـة الابتدائيـة، ولم يكـن يهتـم بإنجـاز فروضـه المدرسـية، كان يكتفـي فقـط بإسـتعارة أوراق جـاره لينقـل منهـا مـا فاتـه مـن دروس. حـين يحـاول النفـاذ الى مـا خلـف خطـوط دفاعاتـه عـن أعضـاء حزبـه، يصطـدم بالجـدار الحديـدي الـذي تقبـع مـن خلفـه أسرار إنهيـار الدولـة.

لكـن الرذيلـة تسـود سـيدي الرئيـس! ليـس بسـبب الاسـتهداف الخارجـي لكـن لأنّ حزبكـم أفقـر النـاس! وهـل هنـاك رذيلـة أكـثر مـن الفسـاد سـيدي الرئيـس!

يطـرق السـيد الرئيـس، يحـاول أن يزيـح مـن ذاكرتـه، صـورة نسـبة الأربـاح التـي يحصـل عليهـا مـع إخوتـه وزوجتـه مـن الأعـمال التجارية التـي تغطـي الوطـن كلـه، يحـاول دفعهـا الى مـا وراء جـدار الذاكـرة، حتـى لا يقـرأ صديـق طفولتـه أفـكاره ويكتشـف بعـض تفاصيـل فسـاد اسرتـه وحزبـه. يشـعر أنّ الجـدار يـكاد يسـقط تحـت ضغـط تسـونامي وقائـع الفسـاد التـي تعـج بهـا ذاكرتـه.

ذات مـرة جـاءه أحـد ضبـاط الجيـش، قـال لـه تنفيـذا لأمـر مـن

قيادة القوات الجوية، قمنا بمسح كامل لصحراء الوطن سيدي الرئيس، لتحديد المهابط الطبيعية الصالحة لهبوط الطائرات دون داع لتمهيدها أو رصفها بالأسفلت، وجدنا كثيرا من المهابط الطبيعية، المفاجأة أننا وجدنا آثار طائرات سيدي الرئيس، يبدو أن أجواء بلادنا تُستخدم من قبل طائرات أجنبية ليس معلوما ماذا تجلب أو تنقل هذه الطائرات، إنه أمر في غاية الخطورة سيدي الرئيس، لكنني حضرت للقاء سعادتكم لأمر آخر، أثناء تنفيذ المهمة شاهدنا قوافل من الإبل تعبر الصحراء، حاولنا أن نقترب منهم لكنهم حاولوا الفرار، قلنا لهم نريد فقط أن نسألكم أن شاهدتم أية طائرات تهبط في هذه المنطقة، قال أحدهم هل تتبعون لوحدات مكافحة التهريب؟ وحين نفينا ذلك ظهر الارتياح على وجوههم، سألتهم هل أنتم خائفون من وحدات مكافحة التهريب، لاذوا بالصمت، لكن أحدهم أوضح قائلا: هذه الإبل تتبع لحرم السيد رئيس الجمهورية! ولا نريد أن ندخلها في مشاكل! أحببت أن أبلغك ذلك سيدي الرئيس، أن وحدات مكافحة التهريب تنشط أحيانا وقد يتسرب خبر أن حرم السيد الرئيس تقوم بتهريب الإبل عبر الحدود، ما قد يضر بصورة فخامتكم سيدي الرئيس!

شكر الضابط على وطنيته وشجاعته، وفي عيد الجيش بعد أيام قليلة، قام بتكريمه، منحه نوط الشجاعة من الدرجة الاولى، ثم أمر بوضع اسمه في أول كشف للضباط الذين سيتم طردهم من الخدمة، ما لم يعرفه الضابط المسكين، أنّه كان شريكا مع زوجته في تجارة الإبل عبر الحدود!

يقـول رفيـق طفولتـه: تقـول إن الحكومـة أغلقـت بعـض السـفارات وأدمجـت عـددا مـن الـوزارات لخفـض النفقـات الحكوميـة، إذا لمـاذا يوجـد لدينـا أكـبر عـدد مـن الـوزراء في حكومـة واحـدة في كوكـب الأرض! هــذا بخـلاف الـوزراء الولائيـين ونـواب البرلمانـات الولائيـة وغيرهـم مـن أصحـب الوظائـف التـي لا يعـرف أحـد مـا الـذي يؤدونـه مــن عمـل، بجانـب آلاف الوظائــف الوهميــة التــي يتحــدث عنهــا النـاس، شـخص لا مؤهـل لـه سـوى لحيـة طويلـة، وفجـأة يكتشـف أنـه يحمـل درجـة دكتـوراة في الفيزيـاء النوويـة، رغـم أنـه لا يعـرف الفـرق بـين نـوى التمـر ونـواة الـذرة، يكتشـف بالصدفـة أنـه يشـغل عـدة وظائـف يحصـل مـن بعضهـا عـلى أجـر ويذهـب أجـر بعضهـا لمـن تكبـدوا عنـاء صنـع المؤهـلات الوهميـة وصنعـوا لـه الوظائـف المناسـبة!

يقـول السـيد الرئيـس: لا تصـدق القصـص التـي تُـروّج في الواتسـاب والفيـس بـوك، معارضـة الخـارج أدمنـت العيـش عـلى أمـوال المنظـمات الأجنبيـة، ولا عمـل لهـم سـوى اختـلاق قصـص الفسـاد وانتهـاكات حقـوق الإنسـان، بمـا يضمـن اسـتمرار عطـف المنظـمات الأجنبيـة التـي لا تريـد ببلادنـا خـيرا، عليهـم!

لا يعبـأ كثـيرا بالفـوضى المحتملـة كـما يسـميها، مـا دام يمسـك هـو وإخوتـه بخيـوط الفـوضى، يحرّكهـا في كل الاتجاهـات، كل عمليـات فسـاد أعضـاء الحـزب موثقـة، كل فسـادهم الأخلاقـي موثـق، زواجهـم العـرفي لفتيـات صغـيرات، اغتصابهـم لأطفـال صغـار، والشـقق السريـة التـي كانـوا يمارسـون فيهـا مجونهـم، ويسـتعيدون ورعهـم الزائـف مجـرد أن يغادرونهـا، وحـين تنكشـف فضائحهـم يلقـون باللـوم عـلى

إبليس! يقولون خدعنا الشيطان، مع أنّ العامة يقولون إنّ إبليس قد رحل عن بلادنا سيدي الرئيس، منذ أن إستولى رجال حزبك على السلطة، يقول الناس إن بعض أعمالهم لم يفكر فيها الشيطان نفسه! أحد قياداتهم سيدي الرئيس قام بالاستيلاء على أرض حكومية زراعية، ثم قام بتحويلها إلى أرض سكنية رغم أن القانون لا يسمح بذلك، ثم سلّمها إلى جهاز الأمن والمخابرات، فتبرّع الجهاز ببناء قصر للقيادي عليها، ثم استأجرت الحكومة القصر ليقيم فيه القيادي صاحب البيت نفسه! هل تصدق أنّ الشيطان يمكن أن يفعل شيئا كهذا؟

هل صحيح أنك عفوت عن أحد هؤلاء الإخوان بعد إدانته بتهمة اغتصاب طفل سيدي الرئيس؟

يخفي السيد الرئيس ضيقه من السؤال، يقول: تلك كانت مؤامرة ضمن صراع الأجنحة داخل التنظيم! هذا الرجل كان تقيا وورعا، بنى مسجدا وكان يقيم أغلب وقته في مسجده وحين يتغيب المؤذن كان يرفع الاذان بنفسه! دسوا له هذا الغلام في شقة يستخدمها بيتا لزوجته السرية، كانت زوجته السرية مسافرة حين ذهب لتفقد الشقة فوجد الصبي المليح في انتظاره، وأكمل إبليس بقية القصة! ولم ينتبه بالطبع لأجهزة التصوير التي كانت تدور سرا!

وهل ألقيتم القبض أيضا على إبليس أم أنه لم يظهر في شريط الفيديو! قال صديق الطفولة ذلك ساخرا، قبل أن ينتبه إلى أنه تجاوز كل الحدود، صمت ثم قال موضحا: الشائعات تقول إنه لم يذهب لتفقد الشقة، بل كان يصطحب معه إحدى عصفورات

الليـل، أي أنـه جـاء مصطحبـا إبليـس معـه ولم يجـده في انتظـاره كـما تقـول الروايـة الرسـمية!

النـاس تقـول إنـه حـين يرتكـب أحـد المواطنـين جريمـة مـا، يتحمـل وحـده المسئولية ولكـن حـين يرتكـب أهـل النظـام مـن أخـوان حزبكم جريمـة مـا، يتحمّـل إبليـس وحـده تبعـات الجريمـة!

العيـد السـابع والعشريـن، حسـب نبـوءة الشـيخ الكنـاني تبقـى لـه ثلاثـة عـشر عامـا في السـلطة!

سـتنتهي دورتـه الرئاسـية بعـد ثلاثـة أعـوام، سيترشـح مـرة أخـرى رغـم مكائـد رجـال حزبـه لمنعـه مـن الترشُـح، الـدورة الرئاسـية سـت سـنوات، سـتكون قـد تبقـت لـه حسـب النبـوءة أربعـة أعـوام في السـلطة! هـل يعنـي ذلـك أنـه لـن يكمـل دورتـه الأخـيرة، ومـا السـبب؟ انقـلاب عسـكري، ثـورة شـعبية؟ ارتجـف جسـمه لفكـرة الخيـار الثالـث: المـوت!

شـعر للمـرة الأولى أنـه يخـشى المـوت أكـثر مـن خوفـه مـن فقـدان السـلطة! كان يعتقـد قبـل ذلـك أن فقـدان السـلطة والمـوت يعنيـان الـشيء نفسـه، أوضـح الشـيخ الكنـاني، انـه لا يسـتطيع سـوى رصـد تحـولات كـرسي السـلطة، ان حـاول تتبـع خطـوات المـوت سـيتجاوز كل صلاحياتـه.

لم يكـن هنـاك مـن حـل آخـر: لابـد مـن تعديـل الدسـتور، لتصبـح الـدورة الرئاسـية خمـس سـنوات، حـين يفقـد سـلطته حسـب النبـوءة سـيكون السـبب هـو انتهـاء دورتـه الرئاسـية، وسـيتخلى عـن السـلطة طوعـا.

قـال بامتنـان شـاكرا لفكـرة مستشـاره الـذي أنقـذ حياتـه بتعديـل دسـتوري، مستشـار رئـاسي جيـد أفضـل مـن شـيخ يتنبـأ بالمسـتقبل دون أن يضـع في الحسـبان وضـع نبوءاتـه ضمـن الاطـار الدسـتوري، نبـوءة مليئـة بالثغـرات التـي يمكـن أن يتسـلل منهـا ملـك المـوت.

اغلـق الطريـق عـلى ملـك المـوت بتعديـل دسـتوري، لكنـه حـين وجـد سـهولة الانتصـار عـلى المـوت فكـر في الانتصـار عـلى النبـوءة نفسـها، بـات يعتقـد في نبـوءآت مستشـاره أكـثر مـن نبـوءآت الشـيخ الكنـاني.

هـل تعتقـد أنـه سـيمكنني مواصلـة الحكـم بعـد سـنوات الشـيخ الكنـاني!

لا تصـدق هـؤلاء الشـيوخ سـيدي الرئيـس، أنهـم يعملـون بنظريـة: امـا أن أمـوت أنـا أو يمـوت الحـمار أو يمـوت السـلطان!

تساءل السيد الرئيس: وما قصة الحمار والسلطان؟

أوضـح المستشـار: يقـال إن رجـلا عـرض عـلى أحـد السـلاطين أن يقـوم بتعليـم حـمار السـلطان ليصبـح حـمارا مثقفـا ومتحدثـا لبقـا، حصـل عـلى المـال، وطلـب مهلـة خمـس سـنوات لإنجـاز العمـل، وحـين سـأله النـاس كيـف سـيتصرف حـين تنـصرم المـدة ويكتشـف السـلطان الخدعـة، قـال خـلال خمـس سـنوات سـيموت أحدنـا، أنـا أو السـلطان أو الحـمار!

تعني أن الشيخ الكناني يكذب؟

لا لا أقصـد ذلـك، هـو يقـول مجـرد كلام خطـر عـلى بالـه، ليـس

ضروريا أن يحدث بالضبط كما خطر له، هذا هو عمله الذي يرتزق منه سيدي الرئيس! صحتك جيدة يا سيدي، ستكون عندها في الثمانين ويمكنك أن تحكم عشرين عاما أخرى.

ردد السيد الرئيس كلام مستشاره: صحتي جيدة، صحتي جيدة، كأنه يريد أن يصدّق أنه سيعمر حتى يتجاوز المائة عام، كما تنبأ له عرّاف، التقاه أثناء فترة الحرب الأهلية الأولى في جنوب الوطن.

قال السيد الرئيس: كيف تقول إنه يقول مجرد كلام يخطر على باله، هل نسيت أنه حذرنا ست مرات من محاولات انقلابية وقعت كلها؟

قال المستشار مبتسما، وهل تحتاج معرفة الانقلاب إلى من يتنبأ به سيدي الرئيس، تستطيع أنت أن تفعل ذلك يا سيدي، حين تنظر في وجوه وزرائك أو ضباط جيشك، الرجل لم يستخدم أية قوى خارقة، نظر فقط في وجوه ضباط جيشك أو قادة حزبك وعرف أنهم يريدون استغلال الأزمات التي يعاني منها المواطنون، بسبب العقوبات الأمريكية المفروضة على بلادنا، للوصول إلى كرسي السلطة.

4

يكتفـى في الأيـام الأولى بتوقيـع كل الأوراق التـي يضعونهـا أمامـه، لا يلاحـظ حتـى أنّ مسـاحة الوطـن كانـت تنكمـش كلـما وقّـع عـلى ورقـة مـا، أنّ مـزارع القطـن والفـول السـوداني وعبّـاد الشـمس، كانـت تتـسرب مـن يـد الدولـة إلى أيـدي رفـاق الحـزب، كلـما قـام بالتوقيـع عـلى تلـك الأوراق.

لكنـه لا يهتـم ولا حتـى بإلقـاء نظـرة عـلى تلـك الأوراق، سـكرتيره نفسـه لا يعطيـه مهلـة ليقـرأ شـيئا، يقـول أحيانـا بدافـع الكسـل، اتركها عـلى المكتـب، سـأوقّعها فيـما بعـد حـين أعـود مـن.. لكـن السـكرتير يقاطعـه: لا وقـت سـيدي الرئيـس، يجـب أن أعـود بهـا الآن إلى مقـر الحـزب.

هـل يمكنـك أن تلخـص لي مـا هـو مكتـوب في هـذه الأوراق الكثيرة؟ ولمـاذا يجـب أن تتنـازل الدولـة عـن مشـاريع ناجحـة لهـذه المنظمـة؟ ولمـاذا يجـب إعفائهـا بالكامـل مـن الضرائـب والرسـوم الحكوميـة؟ لقـد اشـتكى وزيـر الماليـة السـابق أنـه لا يجـد مـالا لدفـع رواتـب المعلمـين لأنّ كل رجـال الأعـمال هـم مـن رجـال حزبنـا، وهـم جميعـا يعملـون مـن خلـف سـتار منظـمات خيريـة لا تدفـع مليـما لخزينـة الدولـة!

هـذه منظمـة الدعـوة الإسـلامية سـيدي الرئيـس، المنظمـة تعمـل في مجـال الدعـوة إلى الإسـلام، كـما لهـا عـدة مشروعـات خيريـة داخـل الوطـن وفي بعـض الـدول الأفريقيـة لخدمـة الطبقـات الفقـيرة، هـل نسـيت لقـد قمنـا بتسـجيل البيـان الأول للانقـلاب أقصـد للثـورة فيهـا!

مجرد أن سمع السيد الرئيس قصة البيان الأول حتى وضع توقيعه على الأوراق.

يضع القلم جانبا ويقول ببراءة جندي أحيل للتقاعد رغم أنه لم يبلغ سن التقاعد بعد: الجميع يستثمرون في الخير، من سيدفع الضرائب للدولة! ثم بدأ يردد آليا حتى بعد أن غادر سكرتيره الغرفة: الجميع يستثمرون في الخير... الجميع يستثمرن في الخير! كأنه يريد إقناع نفسه أنه ينتمي الى تنظيم غالب أعضائه من أهل الخير، ثم توجه بسؤال إلى المجهول: لماذا كلما ازداد عدد من يستثمرون في الخير يزداد أيضا عدد الجوعى والفقراء!

يشعر للمرة الأولى بالحنين لزملائه الذين قاسموه ضجر سنوات الحرب الأهلية. لم يكن يعرف أنه طردهم جميعا من الخدمة العسكرية في الأوراق التي يوقّع عليها دون تدقيق، حتى التقى أحدهم صدفة في مناسبة الاحتفال بعيد الجيش، سأله باهتمام: في أية وحدة تعمل الآن؟

حسب الرجل أن السيد الرئيس قد نسي في غمار المشاغل الرئاسية أنه أصدر أمرا بطرده من الخدمة.

قال: لا أعمل في أية وحدة، أنا متقاعد!

قال السيد الرئيس ومن الذي أحالك للتقاعد؟

قال الرجل مبتسما: صدر القرار منكم سيدي الرئيس!

دهش السيد الرئيس، قال بعد تفكير حتى لا يبدو مرتبكا: لا اذكر ذلك، ربما كان قرارا شمل عددا كبيرا من الضباط!

قـال الرجـل: كلا، تـم إحالـة معظـم زملائنـا السـابقين للتقاعـد، لكـن القـرار الـذي صـدر بإحالتـي صـدر فقـط باسـمي!

يجلـس بجانبـه في مكتبـه بالقـصر صديقـه الجـنرال عـوف، آخـر الرجـال العظـماء كـما كان يطلـق عليـه في لحظـات الصفـاء. يتقاسـمان ساندوتشـات الفـول والطعميـة ويشربـان القهـوة، ويتبـادلان ذكريـات أيـام الحـرب الأهليـة الأولى، يتوقـف قليـلا ليوقّـع عـلى أحـد الأوراق، قبـل أن يعـود لتبـادل ذكرياتـه مـع الجـنرال عـوف.

يغـادر صديقـه الجـنرال عـوف القـصر يوميـا عنـد السـاعة السادسـة، ليتنـاول طعـام العشـاء مـع أسرتـه كـما اعتـاد طـوال عـدة أعـوام. بعـد السـاعة الثالثـة تبـدأ حركـة أعضـاء الحـزب تخفـت داخـل القـصر، يتجـول في صمـت داخـل القـصر الفسـيح، يغمـض عينيـه عـن السـلطة الموازيـة التـي كانـت تزدهـر مـن حولـه لتـترك لـه فتـات سـلطة التوقيـع عـلى الأوامـر الجمهوريـة، سُـلطة آمـون كـما كان يسـميها مـن واقـع أحلامـه التاريخيـة.

يجدهـم نائمـين في أرضيـة مكتبـه وعـلي أريكـة خشـب المهوقنـي الضخمـة، عرقهـم الغزيـر يغـرق السـجاد الفـارسي في أرضيـة مكتبـه، رائحـة وحـوش مفترسـة، يصلّـون العشـاء جماعـة ويسـحبون مسـابحهم الطويلـة عـلى الأرض أثنـاء اسـتئناف مفاوضاتهـم ومؤامراتهـم، يغمـض عينيـه عـن أفعالهـم المشـينة مـع صبيـة مـلاح الوجـوه، والعاهـرات الـلاتي ترتفـع ضحكاتهـن في القـصر مـع حلـول الظـلام، خلـف سـتائر المخمـل الثقيلـة، وخلـف شـجيرات الـورد في ممـرات الحديقـة الاسـتعمارية التـي تحيـط بهـا أشـجار اللبـخ الضخمـة التـي غرسـها الإنجليـز.

يتحرك بحذر داخل القصر حتى لا يعطي انطباعا أنه يتلصص عليهم، يترك لهم القصر حين تمتد اجتماعاتهم الليلية حتى تبدأ تباشير الفجر في الظهور، يخرج للتمشي في الحديقة، يحب المشي ليلا في ضوء النجوم، لذلك يطلب عادة من الحرّاس إطفاء إضاءة الحديقة مبكرا، فتسبح الحديقة كلها في ضوء النجوم، وفي عبق أنسام النهر المتدفق تحت أقدام القصر الاستعماري العتيق.

شعر بحركة غريبة أسفل إحدى شجيرات الجهنمية، اعتقد للوهلة الأولى أنّ أحدهم يتتبع خطاه أو ربما يحاول قتله، أشعل مصباحه اليدوي الصغير، فرأى أشباح رجلين نصف عاريين، أطفأ ضوء المصباح بسرعة، وتراجع حتى لا يتعرفا عليه، تذكر أنهما كانا من أكثر الأصوات ارتفاعا في الاجتماع، لم ينتبه لهما حين انسحبا من الاجتماع، يبدو أنهما خرجا بعد أن غادر هو غرفة الاجتماعات متعللا بحاجته لبعض الهواء بعد أن يستخدم دواء الربو.

قال الجنرال عوف: ألا تفكر في شيء ما؟

لم يقل شيئا، ليس خوفا على نفسي بل: خوفا عليك يا جنرال، أنت لا تعرفهم!

قال الجنرال عوف يشجعه على فتح جراح السلطة: إلى متى ستبقى مثل الأراجوز يتحكم هؤلاء السفلة في مصيرك ومصير الوطن!

رد بعد برهة صمت، باستسلام: هم الذين أتوا بي إلى السلطة! حضرت من الجنوب لأنّ والدي مريض كما ورد في برقية الاستدعاء، والدي الميت، حضرت فقط بدافع الفضول، رغبة في بعض التغيير

مـن أجـواء الحــرب وأجــواء بيــت الضبــاط البائــس، حيــث نفــس الأحاديـث اليوميـة المكـررة، ونفـس القصـص والنـكات التـي سـمعناها ألـف مـرة. ولعـب الـورق الـذي بُـلي مـن كـثرة الاسـتخدام حتـى أصبـح مـن العسـير التمييـز بـين ورقـة آس الهـارت، وورقـة بنـت الشـيري!

حـين وصلـت أخـذوني إلى بيـت كبـير أدخلـوني غرفـة خانقـة تشـبه أسـتوديوهات التلفزيـون، لمبـات إضـاءة وكامـيرات، مسـحوا وجهـي بالفازلـين، ونفضـوا الغبـار عـن ملابـسي العسـكرية بفرشـاة ريـش نعـام تسـتخدم لتنظيـف الأثـاث، ثـم أعطـوني ورقـة وطلبـوا منـي قـراءة البيـان رقـم واحـد! بعـد أن فرغـت مـن قـراءة البيـان، تجمعـوا حـولي وباركـوا لي المنصـب الجديـد، قالـوا لي لقـد أصبحـت رئيسـا الجمهوريـة!

كنـت الأكـثر حظـا فقـد عرفت أنهـم قامـوا باسـتدعاء سـبعة ضباط، تـوفي اثنـان منهـم في الطريـق بسـبب الألغـام، ولم يتمكـن البقيـة مـن الوصـول في الوقـت المناسـب بسـبب انقطـاع الطـرق بسـبب الخريـف، وتـاه أحدهـم في منطقـة المسـتنقعات بعـد أن غرسـت السـيارة التـي كانـت تقلـه في الوحـل وعُـثر عليـه بعـد سـبعة أيـام مرتديـا ملابـس خليعـة، بعـد أن شرب عـدة زجاجـات مـن خمـر محـلي وهـو يغنـي في زفـاف ابنـة صانـع المطـر أمـام فرقـة مـن عـازفي أبـواق البامبـو!

لكنـك سـتكون مسـئولا يومـا مـا، ألا تـرى هـذا الخـراب؟ يـكاد الوطـن يفـرغ مـن أهلـه، كل شيء معـروض للبيـع! كل مؤسسـات الوطـن تـم بيعهـا، والمصيبـة يقومـون الآن بتفكيـك الجيـش نفسـه!

العيـد الثالـث للثـورة! سـاعده سـكرتيره ليرتـدي ملابسـه العسـكرية الكاملـة، قـرأ لـه برنامـج الاحتفـال: سـيقص الشريـط إيذانـا بافتتـاح

عـدد مـن المشروعـات، سـيلقي كلمـة في افتتـاح مؤتمـر التنظيـمات المعارضـة للأنظمـة الحاكمـة عـلى امتـداد القـارة.

تنبـه وهـو يضبـط القبعـة فـوق رأسـه إلى أنـه لم يـر الجـنرال عـوف منذ ثلاثـة أيـام، تلعثـم مديـر مكتبـه وهـو ينفـي علمـه بأخبـار الجـنرال عـوف، قـال: ربمـا كان مريضـا بالملاريـا، طلـب مـن مديـر مكتبـه أن يتصـل بـه بعـد عودتهـم إلى القـصر ليطمـئن عـلى صحتـه.

قال سكرتيره: الجنرال عوف وجد ميتا في منزله!

صعـق السـيد الرئيـس: هـل أنـت متأكـد مـما تقـول؟ كيـف يحـدث ذلـك؟ كان معـي قبـل أيـام في صحـة جيـدة، ربمـا تقصـد شـقيقه المريـض!

يبدو أنه انتحر!

انتحر هل جننت كيف تقول ذلك؟

وجدوا مسدسه الشخصي بجانب جثته الغارقة في الدماء!

طلـب الاتصـال بوزيـر العـدل، شرح لـه الوزيـر أن الجـنرال الـذي كان يعـاني مـن الوحـدة بعـد أن هجـرت زوجتـه مـع أطفالهـا البيـت إثـر خـلاف عائـلي، أقـدم عـلى قتـل نفسـه. قـال السـيد الرئيـس إنـه لا يصـدق ذلـك طالبـا مـن وزيـر العـدل تكويـن لجنـة تحقيـق لكشـف ملابسـات الجريمـة، شرح لـه الوزيـر أن الأمـر لا يحتـاج للجنـة تحقيـق وان الشرطـة تقـوم بالتحقيـق في الحـادث وتتعامـل مـع كل الاحتمالات.

كان متأكـدا أنهـم قتلـوه، كانـوا يعلمـون أنـه لم يكـن سـعيدا بمـا يحـدث في الوطـن، وبتراجـع دور الجيـش أمـام ميليشـيات التنظيـم،

قـام في اليـوم التـالي بزيـارة أسرتـه، كانـت زوجتـه لا تـزال تقيـم في بيـت أسرتهـا، بـدت الزوجـة متماسـكة رغـم الصدمـة الواضحـة في ملامـح وجههـا، قالـت إنهـا أيضـا لا تصـدق أنـه مـات منتحـرا، أوضحت أنـه كان ينـوي السـفر إلى مـصر لإجـراء جراحـة في عينـه التـي تأثـرت بسـبب مـرض السُـكّر.

5

بعد أيام من موت الجنرال عوف عاد لنفس برنامجه اليومي القديم، موت الجنرال عوف جعله يغرق في نوبة حنين غريب للماضي، رأى نفسه وحيدا ثيابه مبتلة بالكامل في العرق، في القيظ الذي يسبق هطول المطر في مدينة استوائية، لا يُسمع فيها في ساعات خمول الضحى سوى موسيقى متقطعة تصدر عن آلة البامبو، وصوت قطعان الأبقار تقطع الهواء الراكد في طريقها للمراعي البعيدة، شعر بخليط غريب من البهجة والحزن، يسير بموازاة ذكريات تلك الأزمنة الجميلة، التي تعبق برائحة مطر استوائي يتصاعد من الذاكرة مصحوبا بغناء حزين يتسرب من مكان خفي: يا نجوم الليل اشهدي على لوعتي وتسهدي، على بكاي وتنهدي، يختلط مع رائحة روث الأبقار، مع أشباح ظلال ضخمة تسير في ضوء قمر استوائي مثل أشباح أشجار الباباي، مع رائحة زهور المانجو، التي تتخلل الذكريات مثل نهر من الضوء يغرق في جحيم التذكارات.

يرقب أعضاء حزب المؤتمر يملؤون ردهات القصر وغرفه، ينتشرون مثل أسراب الجراد فوق الوطن فيحيلون حتى التذكارات إلى رماد.

يعرف أن الصبر هو السبيل الوحيد للتعامل مع هذه الفوضى، لم تكن قد مرّت سوى ثلاثة أسابيع على موت الجنرال عوف حين وجد رسالة على مكتبه مكتوب عليها: الجنرال عوف مات مقتولا،

رجاء إتلاف الرسالة بعد قراءتها!

لا بد أنّ عامل النظافة الذي قام بتنظيف مكتبه هو من وضعها أو ربما شخص آخر، شعر أن الرسالة صادقة كأنّ الجنرال عوف الذي كان هو الوحيد الذي يثق فيه، كأنه هو من كتبها، حذّرته الرسالة أنّ المكان كله مراقب بكاميرات مخبأة في كل مكان، اتّبع التعليمات المذكورة في الرسالة بحذافيرها، قام بإتلاف الرسالة في المرحاض ثم وضع باقة الورد البلاستيكية فوق مكتبه في الوضع الذي وصفته له الرسالة ليدلل على أنه تسلم الرسالة.

لم تذكر الرسالة الصغيرة تفاصيل كثيرة عن اغتيال الجنرال، لكنه فهم أن الخلية التي كوّنها الجنرال داخل الجيش تحاول الاتصال به.

مرّت عدة أيام دون أن يتلقى أية رسالة جديدة، أصابته حالة من الإحباط خوفا أن يكون جواسيس حزب المؤتمر الوطني قد كشفوا أمر الخلية، لا بد أنهم كانوا يعلمون بكل تحركات الجنرال عوف وكل اتصالاته والا لماذا قتلوه؟

سيعرف بعد سنوات: أنّ الجنرال عوف كان حذرا جدا وأنّ القتلة استهدفوه فقط لعلاقته القوية بك سيدي الرئيس، في نظرهم يجب أن تظلّ بعيدا عن أية تأثير خارجي، لتقوم بتنفيذ الدور المرسوم لك، كل من هم حولك لهم دور مرسوم ،لا يستطيع أحد تجاوزه، أو الدخول إلى الدائرة الضيقة التي تحيط بك دون اذن التنظيم، حتى أصدقائك، زوجتك، طباخك، إمام المسجد الذي تصلي من خلفه، العاهرات اللاتي تعثر عليهن أحيانا في ساعات

المساء المتأخرة بعد مغادرة قيادات الحزب، يتسكعن في ردهات القصر، كل هذه المجموعة التي تحيط بك يحددها جهاز الأمن التابع للتنظيم، لا يتركون شيئا للصدفة.

يقومون بتفكيك الجيش قطعة قطعة سيدي الرئيس! كان ذلك آخر ما سمعه من الجنرال عوف، مدير جهاز أمنهم التابع للتنظيم الإخواني، يحمل إبر الدبابات في جيبه! لا يمكن تحريك أية دبابة بدون إذنه حتى لو تعرّضت العاصمة للغزو والاحتلال! كل الذخائر بطرف الجنود فشنك!

وكيف سيحاربون حركة التمرد في الجنوب بالذخيرة الفشنك؟

ألا تشاهد جهاز التلفزيون سيدي الرئيس؟ لديهم قوّات بديلة يسمونها قوّات الدفاع الشعبي!

يعتقلون الناس ويعذبونهم في بيوت سرية، قبل أشهر قاموا بإعدام ثلاثين ضابطا بعد محاكمة عسكرية استغرقت ثلاث دقائق، استخدموا آلة حفر عملاقة لحفر قبر ضخم فيما المعتقلون يشاهدون عملية الحفر، وضعوا المعتقلين على حافة الحفرة وأطلقوا عليهم النار ثم دفنوهم وهم لا يزالون أحياء!

أطلقوا الرصاص الحي على مظاهرة للطلاب فقتلوا المئات واعتقلوا الإف الطلبة قضت أعداد كبيرة منهم تحت آلات التعذيب!

تذكّر آخر كلام للجنرال عوف معه قبل يوم واحد من اغتياله: بالأمس بسبب إلحاحك قضيت السهرة معك هنا في القصر، رغم معرفتي بالمضايقات التي يتعرّض لها من يضطر لعبور الكباري بعد منتصف الليل، وجدت بعض الغرباء يحرسون كبرى النيل

الأزرق، احتجزوني لمدة ساعة وقاموا بإجراء اتصالات عبر اللاسلكي قبل أن يسمحوا لي بالمرور!

دُهش السيد الرئيس: غرباء من تقصد؟

قال الجنرال عوف: ألا تعرف؟ التنظيم الإخواني الدولي يرسل لهم رجاله من كل مكان لمساعدتهم على تثبيت السلطة، يبدو أن من رأيتهم بالأمس يحرسون الكبرى ينتمون لإحدى المنظمات المتهمة بالإرهاب!

ولماذا يستعينون بالإرهابيين، أين الجيش؟

ألم اشرح لك أنهم يقومون بتفكيك الجيش واستبداله بالمنظمات الإرهابية؟

يواصلون في اجتماع مجلس الوزراء الأسبوعي عراكهم حول غنيمة الوطن، كأنه اجتماع ضباع مسعورة تتعارك فوق جثة حيوان لا يزال حيا، لا يهمه من هذه الفوضى سوى أن يعرف مصيره. يشعر ببعض الاطمئنان أنهم يكادون لا يلحظون حتى وجوده.

مرّت عدة أيام قبل أن يجد رسالة أخرى، في علبة أقراص دواء ضغط الدم. سنحيي ذكرى الجنرال عوف في اليوم الأخير من الشهر، لا داعي لحضورك، سنبلغك بكل شيء.

رجاء تمزيق الرسالة مجرد قراءتها، أحرق الرسالة بعود ثقاب ورمى الرماد في المرحاض.

يوم الذكرى الأولى لوفاة الجنرال عوف حاول أن يمارس نفس

برنامجـه اليومـي حتـى لا يلفـت الأنظـار إلى إمـارات القلـق والخـوف الواضحــة في وجهــه، ســاعد زوجتــه لتمــشي قليــلا داخــل الجنــاح المخصـص لهـم، بسـبب ارتفـاع درجـة الحـرارة في الخـارج يصعـب المـشي في حديقـة القـصر نهـارا، وبسـبب الفـوضى مـا بعـد السـابعة مسـاء يصعـب المـشي في الحديقـة ليـلا، تسـلّم أوراق اعتـماد سـفير دولـة بورنـدي الجديـد، ووقّـع عـلى بعـض الأوراق التـي أحضرهـا سـكرتيره. لاحـظ أن معظـم أعضـاء حزبـه كانـوا غـير موجوديـن، فحـص علبـة أقـراص دواء الضغـط عـدة مـرات دون أن يجـد شـيئا.

اسـتمع إلى نـشرة أخبـار التاسـعة مسـاء، لا جديـد، نـشرة الأخبـار تـكاد تكـون نسـخة مـن برنامـج في سـاحات الفـداء، الذي يعـرض بعض صـور ووقائـع الحـرب في الجنـوب، شـاهد صـور الكتائـب الجديـدة المتجهـة إلى مناطـق العمليـات، لم يـر أيـة صـور لضبـاط أو جنـود جيشـه، كل الصـور لضبـاط أو مجنديـن مـن قـوّات الدفـاع الشـعبي التابعـة للحـزب، فجـأة رأى رجـلا غريبـا ملتحيـا، يخاطـب إحـدى كتائـب المجاهديـن المتجهـة لمناطـق العمليـات، نظـر إلى الرجـل، تذكـر أنـه سـبق لـه لقائـه في مـكان مـا، ربمـا في مقـر حـزب المؤتمـر الوطنـي، تسـاءل بـبراءة: أليـس هـو الرجـل الـذي كان متهـما باغتيـال الرئيـس السـادات؟

أخلـد إلى النـوم، رأى طوابـير طويلـة مـن قـوّات الدفـاع الشـعبي تتقـدم في طـرق طويلـة دون نهايـة، اسـتيقظ مرهقـا قليـلا في الصبـاح بسـبب النـوم المضطـرب، أغـرق نفسـه في حـوض الحـمّام البـارد فشـعر بأنــه يســتعيد نشــاط جســده، شــاهد مــن نافــذة الحــمّام الصغــيرة بعـض الجنـود في الخـارج، عـرف مـن ملابسـهم أنهـم مـن قـوّات

الدفاع الشعبي، ارتدى ملابسه وخرج بسرعة، وجد سكرتيره قد وضع له كومة الصحف اليومية إضافة لبعض التقارير فوق مكتبه، رأى المانشيت الأحمر في أول صحيفة أمامه: إحباط محاولة انقلابية!

شعر بالرقابة تزداد من حوله في الأيام التالية، يرتدي زيه العسكري ليبدو كأنه يسيطر على كل شيء. لكنه شعر أن سلطته كانت تتناقص، يضطر ليرفع صوته في اجتماع مجلس الوزراء ليشعر وزراء حزب المؤتمر الوطني بأنه موجود معهم، لكنه يشعر بصوته وصورته يضيعان في غابة هذه الفوضى النهارية التي تجتاح القصر.

قرأ بعد يومين في الصحيفة الرسمية أنّه تم تنفيذ حكم الإعدام في عدد من الضباط والجنود الذين حاولوا تنفيذ انقلاب على السلطة الشرعية. قضى عدة أيام يتفحص علبة الدواء كل يوم أملا في رسالة واحدة، تعيد إليه الأمل أنّ خلية الجنرال عوف لم يتم القضاء عليها بالكامل. بدأ يفقد الأمل، لكنه لم يفقد رغبة التشبث في الكرسي، لم يكن متأكدا إن كانوا يعلمون علاقة خلية الجنرال عوف به، استأنف نشاطاته القديمة، يخاطب كتائب الجهاد المتوجهة لمناطق العمليات، وفي نهاية الأسبوع خاطب الجلسة الختامية للمؤتمر الثاني الشعبي والإسلامي، أشار نحو الظواهري الذي كان يجلس في الصف الأول وقال: أليس هذا هو الرجل الذي قتل السادات؟

لا.. ربما شارك في التخطيط للاغتيال لكنه لم يشارك في التنفيذ، كان شابا صغيرا في ذلك الوقت، قضى عقوبته وأُطلق سراحه مؤخرا!

ولماذا جاء إلى هنا؟

ضحك السكرتير وقال: هل أنت خائف منه سيدي الرئيس؟ ليس لديه خطط الآن لقتل أية إنسان! لقد دعته سكرتارية المؤتمر وسوف يغادر خلال أيام، هذه زيارته الثانية!

إلى أين سيذهب؟

سمعت أنه سيسافر إلى أفغانستان أو الصومال، لا يمكنه العودة إلى بلاده والا تعرّض للاعتقال!

وكيف يسافر اذن إن كان لا يزال يعارض الحكم في بلاده؟ هل لديه جواز سفر!؟

لديه جواز سفر أعطته له حكومة سعادتك يا صاحب الفخامة!

قال السيد الرئيس: هل تتكلم جادا؟ كيف تعطيه حكومة صاحب الفخامة جواز سفر وصاحب الفخامة لا علم له!

قال السكرتير: هذه موضوعات صغيرة لا يجب أن يشغلك بها أحد يا صاحب الفخامة!

لكن وجوده سيؤثر على علاقاتنا بدول الجوار!

أنها مجرد زيارة بدعوة غير رسمية، سكرتارية المؤتمر الشعبي الإسلامي ليست جهة حكومية!

إن لم تكن هذه جهة حكومية ماذا افعل أنا هنا!؟

أنت أمير المؤمنين يا صاحب الفخامة! وهؤلاء هم المؤمنون تقاطروا من أركان الدنيا، فكيف نحرمهم رؤية أميرهم!

لم يقـل السـيد الرئيـس شـيئا، فكّـر في نفسـه: إن كنت أنا لا أسـتطيع حتـى رؤيـة نفـسي، التـي لا يريـدون حرمـان المؤمنـين مـن رؤيتهـا! تذكّـر الجـنرال عـوف، حـاول مسـح صورتـه بسرعـة مـن ذاكرتـه حتـى لا ينتبـه لهـا هـؤلاء الذيـن يقـرأون حتـى الأفـكار!

6

صباح اليوم التالي كانت نورا لا تزال غارقة في دموعها، وقد تجمعت حولها بعض الفتيات لتخفيف صدمتها، كان هناك أيضا بعض النساء من أقاربهن أو من الجيران، كانوا يجلسون مع أمها التي بدت غارقة في الصدمة، تردد آليا: ماذا سيقول عنا الناس، عريس ابنتهم هرب في ليلة الزفاف!

في تلك الأثناء كان إخوة عبد الرحيم وأصدقائه وجيرانهم، يمشّطون المدينة، لم يتركوا قسما للشرطة أو مستشفى أو مقهى أو شخصا تربطه بعبد الرحيم ولو علاقة بعيدة، عادوا مساء وصدمة الفشل والخوف من أسوأ ما يمكن أن يكون قد حدث في وجوههم، في اليوم الثالث نشروا إعلانا في الصحف اليومية بأوصافه علي أمل أن يظهر شخص ما يكون قد صادفه في مكان ما، ولكن دون جدوى، كانوا يتسكعون في الطرقات طوال اليوم ويجوبون حتى الأحياء البعيدة في أطراف العاصمة، تتراجع الآمال في العثور عليه كل يوم، لكنهم كانوا برغم كل شيء يواصلون البحث، مجرد خروجهم كل يوم في رحلة البحث كان يعطي أمهم المكلومة بعض الأمل، كانت عودتهم مساء كل يوم بخفي حنين، تعيد شعاع الأمل في عيون أمهم خلف خيوط السراب، سراب اليأس، وبعد أسبوعين من اختفائه سافرت والدته إلى منطقة النيل الأبيض لتقابل شيخا اشتهر بمقدرته علي كشف مصير المفقودين، فأعطاها رقية تُعلّق في فناء البيت، ونوعا من البخور يطلق في البيت يوميا لحظة

الغـروب، لم يجـذب بخـور الشـيخ سـوى عصافـير غريبـة كانـت تتجمـع لحظـات الغـروب مجـرد أن ينطلـق دخـان البخـور مـن النافـذة، وتظـل متجمعـة حـول النافـذة، حتـى يحمـل هـواء الليـل أخـر خيـوط البخور، فتتبخـر العصافـير مـن المـكان ويكنسـها هـواء الليـل.

نـورا حبسـت نفسـها طـوال أشـهر في البيـت، حاولـت الأم دون جـدوى أن تقنعهـا بالعـودة إلى عملهـا، كانـت تشـعر بالخـوف مـن نظـرات الإشـفاق التـي سيسـتقبلها بهـا النـاس في كل مـكان، أقنعـت والدتهـا أنهـا ترغـب في العـودة إلى الجامعـة لاسـتئناف دراسـتها، قبـل عامـين حـين أكملـت دراسـتها في الجامعـة، اقـترح عليهـا أحـد أسـاتذتها أن تواصـل دراسـتها، كان شـقيقها الـذي يعمـل خـارج الوطـن قـد دفـع لهـا كل منصرفـات دراسـتها، ولم تكـن ترغـب في أن تثقـل عليـه بالمزيـد، فقـررت البحـث عـن عمـل عـلى أن تواصـل دراسـتها أن سـنحت لهـا فرصـة بعـد الـزواج، اقـترح عليهـا عبـد الرحيـم أن تواصـل دراسـتها بعـد السـفر والالتحـاق بـه، عـن طريـق المراسـلة أو يمكنهـا أن تنتسـب لإحـدى الجامعـات الهنديـة وتسـافر لفـترة قصـيرة لمناقشـة الرسـالة.

حـين عـرف شـقيقها أنهـا لا ترغـب في العـودة لعملهـا، عـرض عليهـا أن يغطـي نفقـات دراسـتها العليـا، رضخـت أخـيرا وبعـد عـدة أشـهر مـن حفـل الزفـاف الـذي لم يتـم، لضغـوط والدتهـا وشـقيقها وقـررت العـودة إلى الجامعـة.

عـادت مـع بدايـة العـام الـدراسي الجديـد، أعطتهـا تلـك العـودة دفعـة أخـرى لتسـتأنف الحيـاة، اكتشـفت وجـود بعـض زملائهـا القدامـى، ورغـم أنهـا تجنبـت في الأيـام الأولى زيـارة الأماكـن التـي التقـت فيهـا مـع عـد الرحيـم في فـترة الدراسـة، لكنهـا اكتشـفت أنـه

كان يستحيل أن تتجنب ذكراه، يسأل عنه بعض الأساتذة والزملاء، يذكرون كم كان إنسانا لطيفا وخجولا، يذكرون مشاركاته الشعرية وميله للعزلة، تشعر بهم يتحدثون عن شخص آخر كأنها لم تعرفه مطلقا، حتى وإن كان زوجها رسميا حتى تلك اللحظة، تشعر حين تتألم لوقع الذكرى على قلبها مساء، أنها تتألم نيابة عن شخص آخر، سألها أحد أساتذته مرة عنه، مشيرا بلطف لعلمه بالعلاقة التي ربطت بينهما أيام الدراسة: ألم تعودي تلتقينه ؟

ردت بسرعة بلا وحاولت أن تغيّر من موضوع المحادثة بأن سألت عن زميله الذي اقترح عليها في سنتها الأخيرة أن تواصل دراستها، عرفت أنه غادر الوطن، شرح لها الرجل باقتضاب أن زميله تعرضّ لمضايقات انتهت بطرده من وظيفته، بدون سبب سوى أنه كان ناشطا في فترة الحكم الديمقراطي مع أحد الأحزاب السياسية التي تتبنى علمانية الدولة.

لم تجد الجرأة لتعترف بأنه زوجها الذي غاب في ليلة زفافهما، ولأنها شعرت أن أستاذها لاحظ محاولتها تغيير موضوع الحديث عنه، قالت بتردد أنها سمعت أنه استقر في إحدى دول الخليج، ضحك الرجل ضحكة قصيرة مندهشا وقال: لا أصدق أنه أصبح يهتم بالمال، كان دائما إنسانا حالما، يحب تراب هذا البلد ولا يتنفس إلا من هوائه كما كان يقول، وصمت برهة قبل أن يقول بحذر: معه حق على كل حال، تغيّر حتى الهواء!

وجدت أنّ برنامج الدراسة سيكون مريحا جدا، لديها محاضرات في يوم واحد كل أسبوع، لكن عليها أن تبدأ في إعداد الأطروحة التي ستقدمها لنيل درجة الماجستير.

تنشغل بالرسالة التي تعدها في علم الإنسان، كانت على وشك السفر إلى كردفان، حيث ستزور بعض مناطق القبائل الرعوية لجمع بعض المعلومات الميدانية التي ستعتمد عليها في بحثها عن التحولات التي شهدتها المجتمعات البدوية في النصف الثاني من القرن العشرين، حين علمت بأنها حصلت على حكم من المحكمة بالطلاق بسبب اكتمال فترة الغياب القانونية لزوجها، لم تشعر بالتحرر كما توقعت، وبانهيار آخر الحواجز أمام سطوة نسيان شعرت بوقع خطاه في ذاكرتها، بدلا من ذلك شعرت بالحزن وبأنها وحيدة في هذا العالم رغم أن البيت من حولها، اكتسى نفس ملامح الحزن الأولي أيام الزفاف الذي لم يكتمل، جاءت والدته قبل أيام وترجت والدتها أن ينتظروا قليلا قبل رفع دعوى الطلاق إلى المحكمة، قالت إن الشيخ الذي سافرت للقائه في قرية بعيدة تغرق في ساعات الضحى في رائحة أنفاس النيل الأبيض، أكد لها أن ابنها موجود لم يمت ولم يسافر، وأنّ ظروفا قاهرة هي التي منعته من الظهور ليلة عرسه، وأنه سيظهر قريبا.

تشاجرت والدتها مع والدته، كانت تجلس هي في غرفتها تستمع إلى صراخ أمها وعويل أمه، قبل أن تغادر الأخيرة يتبعها صوت نواحها.

7

بعـد عـدة أيـام قضاهـا قلقـا يترقـب رسـالة جديـدة تبعـث فيـه بعـض الأمـل، بـات أكـثر يقينـا أنّ خليـة الجـنرال عـوف قـد قُـضي عليهـا، لم يعـد يـرى حتـى جنـود جيشـه في جهـاز التلفزيـون الـذي يبـث أخبـار معـارك الحـرب الأهليـة، معظـم الذيـن كان يراهـم كانـوا مـن قـوات الدفـاع الشـعبي أو مـن أقطـاب حزبـه الذيـن يظهـرون في جهـاز التلفزيـون ويتحدثـون عـن المعـارك التـي شـاركوا فيهـا، وعـن القـرود التـي أرسـلتها العنايـة الإلهيـة لتحـارب معهـم.

كنـا في موقـع متقـدم، قـال المجاهـد التلفزيـوني: حـين وجدنـا أننـا ابتعدنـا عـن قواتنـا، ووقعنـا في كمـين للعدو الـذي كان يحكم (كماشـة) مـن حولنـا، قرّرنـا أن نقـاوم حتـى المـوت، وفجـأة لمحنـا قـرودا تقفـز مـن حولنـا فـوق الأشـجار الكثيفـة، كنـا نظـن في البدايـة أنهـا مجـرد قـرود أثـار صـوت إطـلاق النـار ذعرهـا، لكننـا اكتشـفنا أنهـا كانـت تحمـل قنابـل يدويـة، وبعضهـا كان مربوطـا في وسـط جسـده بأحزمـة ناسـفة، حسـبنا أن العـدو أرسـلها لتنفجـر فوقنـا وتقـضي علينـا، لكنهـا انطلقـت نحـو كماشـة العـدو وفجرتهـا! فاسـتطعنا أن نشـق طريقنـا بسـهولة وننضـم لقواتنـا!

كنـا نتضـور جوعـا والعـدو يسـد علينـا كل المنافـذ، لم نـأكل شـيئا طـوال ثلاثـة أيـام وفقدنـا كل اتصالاتنـا مـع فرقتنـا بسـبب عطـل أصاب جهـاز الاتصـال الوحيـد الـذي بقـي معنـا، أكلنـا ورق الشـجر والضفـادع والثعابـين حتـى لم يعـد هنـاك أيـة شيء يمكـن أن يصلـح لـلأكل، وفجـأة

اقترب منا غزال، كان يبدو كأنه هبط من السماء، فبسبب النيران الكثيفة كان يصعب تصديق وجود أي كائن حي في محيط المكان الذي شهد عدة معارك خلال أسابيع قليلة. ألجمتنا مفاجأة ظهور الغزال، فلم يفكر أي منا في أن يرفع بندقيته لاصطياده، وفجأة سمعنا الغزال يخاطبنا بلغة فصيحة، طلب منا أن نقوم بذبحه! ولولا تضحية الغزال المعجزة لانضممنا في ذلك اليوم إلى ركب الشهداء!

نفدت الذخيرة بعد قتال استمر طوال الليل، ولم نعرف مصير الأشخاص الذين حاولوا فتح ثغرات في الحصار المضروب حولنا لمحاولة الوصول إلى قيادتنا وإحضار إمدادات، وفجأة رأينا الصواعق تهبط من السماء، رغم أننا لم نكن في فصل الأمطار، كانت الصواعق تشكل حزاما ناريا يحيط بالدائرة التي تجمّعنا فيها إحاطة السوار بالمعصم، دمّرت الصواعق تشكيلات العدو ولاذ الناجين بالفرار تاركين جثث زملائهم المتفحمة وآلياتهم المحترقة، كان نصرا قادما من السماء!

انتهى به الأمر لتصديق هذه الترهات، رغم أنه شعر أن معظم المتحدثين من المجاهدين التلفزيونيين لم يغادروا حتى بيوتهم، ولم يطلق معظمهم طلقه واحدة في حياتهم ولا حتى في الهواء! حاول أن يجد تكييفا عسكريا ضمن التكتيكات الحربية التي درسها، لمشاركة القرود والصواعق في المعركة، فإكتشف الخيوط الخفية لخدعة إقحام العناية الالهية لحسم معركة خاسرة، وتتبع بين سطور الخُطب النارية آثار ضُعف واضح في تقنيات الفر والكر والتخطيط الاستراتيجي.

يرخـي أذنيـه لحديـث رجـال الحـزب أمـلا في أن يجـد خيطـا يقـوده لمصـير خليـة الجـنرال عـوف، لكنـه لا يعـثر سـوى عـلى إشـارات متناثـرة تزيـد مـن غمـوض كل شيء، وتقـوده لمتاهـات جديـدة، تقاريـر ملتويـة لا تــكاد تفصـح عــن شيء، مجــرد إشــارات مبهمــة لمؤامــرات ضــد التوجـه الحضـاري للنظـام، لم يفهـم منهـا سـوى أنّ النظـام يواجـه عـدة تحديـات تهـدد وجـوده.

عــرف بعــد ســنوات مــن الناجــي الوحيــد مــن المجــزرة التــي تعرضـت لهـا خليـة الجـنرال عـوف، أنّ أعضـاء الخليـة تعرضـوا لتعذيـب رهيـب، وأنهـم كانـوا جميعـا مـوتى قبـل أن تطلـق عليهـم فرقـة تنفيـذ حكـم الإعـدام الرصـاص، حـكى لـه الناجـي الوحيـد أن رئيـس الخليـة أنقـذه مـن المـوت حـين رفـض أثنـاء التعذيـب أن يعـترف بأيـة دور لـه معهـم، ورغـم فشـلهم في العثـور عـلى دليـل يؤيـد شـكوكهم في صلتـه بالمجموعـة، لكنـه تعـرّض أيضـا لتعذيـب رهيـب بـل إنـه تعـرض للاغتصـاب، وفي إحـدى حفـلات التعذيـب انتزعـوا أظافـر يديـه ورجليـه وقطعـوا أذنيـه وأجـبروه عـلى ابتلاعهـا.

كان الناجـي الوحيـد قـد حصـل عـلى عفـو رئـاسي بعـد توقيـع اتفاقيـة سـلام نيفاشـا، وبعـد ضغـوط دوليـة عـلى النظـام بسـبب التقاريـر الكثـيرة عــن انتهـاكات حقـوق الإنسـان. لكنـه كان وبعـد سـنوات طويلـة لا يـزال يعـاني مـن آثـار التعذيـب، رغـم أنـه خضـع لعـدة عمليـات جراحيـة طـوال سـنوات .

عـرف أن المعـارك التلفزيونيـة كانـت تصـور في غابـة في ضواحـي العاصمـة، وكان الغـرض محاولـة غسـل أدمغـة الشـباب ودفعهـم للانضـمام للكتائـب المتوجهـة لمناطـق العمليـات، وحـين فشـلت

المحاولات بدأ الجيش يلقي القبض على الشباب في الشوارع والأسواق ليرسلهم لمناطق العمليات، بعد فترة تدريب قصيرة.

فجأة اقتحم عليه سكرتيره المكتب، اجتماع هام سيدي الرئيس في حزب المؤتمر الوطني، مطلوب حضورك فورا الى هناك لحضور الاجتماع المهم، أدرك أن شيئا خطيرا حدث، في العادة لا يتم حتى ابلاغه باجتماعات المؤتمر الوطني التي تتم بعيدا عنه، وجد الجميع في انتظاره، الذين باعوا مبادئ الثورة والذين قبضوا الثمن، المدنيون الذين ارتدوا الزي العسكري للمشاركة في الانقلاب، والعسكر الذين خلعوا الزي العسكري للانضمام الى الحكومة المدنية. الذين اشتروا المشروعات الضخمة التي كانت ملكا للوطن، والذين باعوها، من حاربوا في جهاز التلفزيون ومن حاربوا في الأدغال.

خفتت اصوات العراك العالية حين وصل الى مكان الاجتماع، حسب في البداية انهم يتعاركون على توزيع الغنائم كعادتهم، لكنه اكتشف كارثة من نوع آخر!

رأى آثار الكارثة في وجوههم، كان الارتباك يخيم عليهم، كأنّ تهديدا خطيرا كان يوشك على القضاء على سلطتهم. رسم على وجهه تعبيرا محايدا، رغم شعور خفي بالظفر لمجرد الارتباك الذي كان يخيم عليهم.

قال أحد أقطاب الحزب وكان يبدو على وجهه الغضب الشديد، وكأنه لاحظ أنّ السيد الرئيس لم يكن لديه علم بما يدور في العالم، خارج مكتبه في القصر الجمهوري:

ألم تقرأ الصحف اليوم يا صاحب الفخامة؟

أوضح أنه وصل إلى مكتبه وقبل أن يبدأ في قراءة الصحف والتقارير اليومية، وصل سكرتيره ليبلغه بخبر الاجتماع العاجل!

أشار الرجل إلى بعض أقطاب الحزب الذين يتولون قيادة جهاز الأمن والمخابرات، وأعلن: لقد حاولوا اغتيال الرئيس المصري في مؤتمر القمة الأفريقية!

تذكر الآن أنهم نصحوه بعدم السفر إلى اجتماع القمة الأفريقي، وأرسلوا بدلا عنه نائبه الثاني، كان تبريرهم أن معظم رؤساء الوفود في القمة كانوا من وزراء الخارجية!

كان أول شيء خطر على باله أن الأمور لا تسير بصورة جيدة بين أعضاء حزب الوطن، وأنهم حريصون على حياته لسبب لم يبد له واضحا والا لأرسلوه لمؤتمر القمة، قال مدير جهاز الاستخبارات: النظام يواجه ضغوطا قوية بسبب انكشاف أنّ تنظيم الإخوان المسلمين هو الذي دبّر الانقلاب، الأمر الذي لا يجد قبولا في الإقليم، بسبب أن التنظيم نفسه متورط في نزاعات عسكرية ضد عدد من الأنظمة في المنطقة. قمنا بالتنسيق مع بعض عناصر التنظيم في مصر لتدبير محاولة الاغتيال وأن يحاول التنظيم الاستيلاء على السلطة هناك بمجرد حدوث فراغ في رأس السلطة، أوضح: لا مستقبل لاستمرار النظام سوى أن ينشأ نظام مساند في إحدى الدول المجاورة!

كان واضحا أن هناك تباين في الآراء، أقطاب الحزب الكبار كانوا يرون في التصرف حماقة قد تودي بالنظام كله، لكن السيد الرئيس الذي اكتفى بالاستماع لاحظ أن غضب أقطاب الحزب كان في الواقع

بسبب عدم علمهم بالعملية إلا بعد وقوعها، كأنهم شعروا أن الجناح المتمرد يمكن أن يطبق نفس العملية في الداخل ويكونون هم ضحاياها هذه المرة.

وجد نفسه في نفس المسافة بين المجموعتين، يستعيد سلطة توفيقية مؤقتة، قال إنّ الحركة الإسلامية أصبحت دولة، والمخاطر تحيط بهذه الدولة من كل الجهات وأنه لا يجب التورط في أية عمل لم تُحسب نتائجه بصورة جيدة، قد يعطي أعداء الحركة فرصة لتقويض دولتها، بدا كأنه في تلك اللحظة النادرة كأنه أحرص الموجودين على النظام في ظل الأخطار التي تهدده، أو ربما بسبب الارتباك الذي ضرب النظام كله من عواقب فشل محاولة الاغتيال وانكشاف دور التنظيم الحاكم فيها.

تحدّث النائب الثاني للمرة الأولى منذ الانقلاب: الأدهى والأمر أنهم أعادوا الذين قاموا بتنفيذ المحاولة في طائرتي! لو اكتشفت السلطات الأثيوبية ذلك لواجهت موقفا محرجا للغاية!

قال رئيس جهاز الأمن والمخابرات: وجود هؤلاء الأشخاص هنا هو الذي سيثبت تورطنا في العملية! استمع السيد الرئيس بصبر إلى الحوار الذي تعالت نبراته الحادة حتى أوشك الجماعة على ضرب بعضهم أمامه!

قال الشيخ الكبير: بعد أن استخدموا هؤلاء الشباب الذين قتل عدد منهم، يريدون بكل بساطة تصفيتهم، أي جحود وأي نكران للجميل، وماذا سنقول لكل المجاهدين في العالم؟ نحن نستخدمكم لتثبيت أركان حكمنا ثم نتخلص منكم مثل مناديل الورق؟

قال زعيم الجناح المؤيد للتصفية: لدينا كل الأسانيد الشرعية التي تؤيد التخلص منهم! الضرورات تبيح المحظورات!

تساءل السيد الرئيس وكأنه يبحث عن مخرج لهم: هل هنالك إمكانية لترحيلهم بسرعة إلى أية بلد آخر؟

لدينا خطة بديلة في حال الاتفاق على عدم اللجوء لخيار التخلص منهم، لمحاولة نقلهم إلى الصومال أو أفغانستان!

وهل هناك فرص كبيرة لاحتمال نجاح ذلك وتنفيذه بسرعة؟

قال رئيس المخابرات: سيخرجون بأوراق مضبوطة لكن طبعا احتمال إنكشاف أمرهم وارد رغم أنه صغير!

تم إقرار خطة الترحيل، لم يكن الجناح الذي دبّر محاولة الاغتيال سعيدا بذلك الحل، لكن كان واضحا أنهم كانوا مستعدون للتنازل بسبب ارتباك انكشاف وفشل خطتهم.

8

منذ استيقاظه صباح ذلك اليوم الذي سيتم اختطافه فيه، كان النقيب عبدالله يشعر بقلق غامض، كان قد رفض بعد انشقاق الحزب كل المناصب التي عُرضت عليه، لأنّ ولائه كان لا يزال لقادة الحركة الإسلامية من الجيل الأول، الذين أقصاهم الانشقاق من السلطة، لتحتلّ قيادات الصف الثاني مواقع القرار.

النقيب عبد الله لم يكن ضمن المشاركين في التخطيط لمحاولة اغتيال الرئيس المصري، لكنه بحكم موقع عمله عرف بعض أسرار العملية، كما أشرف على استخراج جوازات سفر المجموعة التي سافرت إلى أديس أبابا ضمن فرقة فنية قامت بجولة في إثيوبيا، لكنه لم يكن على علم بطبيعة المهمة التي ستنفذها المجموعة ليتفاجأ بعد عدة أشهر أنّ المستهدف كان هو الرئيس المصري.

بعد انكشاف العملية، استدعاه الأمين العام للحركة الإسلامية ورئيس حزب المؤتمر الوطني، وكلّفه برئاسة لجنة تحقيق حول العملية وتحديد كل المسئولين عنها، قال له الأمين العام: لديك تفويض كامل لمساءلة الجميع، يمكنك أن تبدأ الآن معي، أو مع الرئيس، لا توجد استثناءات.

شكر النقيب عبد الله الأمين العام على ثقته، وبدأ العمل على الفور، كان مترددا في البداية، كان واضحا أنّ الجيل الذي يسيّر أمور الوطن من الحركة الإسلامية متورط في العملية، وبالتالي ستكون مهمته صعبة خصوصا داخل جهاز الأمن والمخابرات. بعد تخرجه

من الجامعة بداية عقد التسعينيات، وحسب توجيهات الحزب أصبح النقيب عبد الله طالبا في الكلية الحربية لمدة عام ، تخرّج بعدها في رتبة الملازم، عمل لمدة عام في مناطق العمليات قبل أن يتم استيعابه في جهاز الأمن الشعبي، التابع لحزب الوطن، كان الجهاز يعمل بالتنسيق مع جهاز الأمن والمخابرات ويتم تكليفه ببعض المهام الخاصة مباشرة من قيادة الحزب.

حين عمل النقيب عبد الله لفترة قصيرة مع جهاز الأمن الاقتصادي، اكتشف أنّ الحزب الحاكم هو الذي كان يدير تجارة العملة التي تضرر منها الاقتصاد الوطني، وقام النظام بإعدام عدد ممن اتهمهم بالتعامل في النقد الأجنبي خارج النظام المصرفي، اكتشف النقيب عبد الله أنّ التاجر الحقيقي الذي يتعامل في النقد الأجنبي هو التنظيم الحاكم نفسه وأنّ عددا من التجار المحسوبين على الحركة الإسلامية هم المتحكمون في السوق نفسه!

ختم أحد تقاريره بعبارة: لماذا تم إعدام أولئك الشباب إذن؟ شارك النقيب عبدالله من قبل وصول تنظيمه إلى السلطة في عمليات غير قانونية، لتهيئة الجو للتنظيم للوصول إلى السلطة، كانوا يقومون بإخفاء كميات ضخمة من السلع الغذائية لإحداث ندرة تضع الحكومة الديمقراطية في حرج مع الشارع، كانوا يقومون أيضا بسرقة المحلات التجارية وبعض المؤسسات الحكومية لإحداث حالة من الشعور بعدم الأمن وسط المواطنين، كما شارك في تزوير انتخابات عدد من الجامعات والمعاهد حتى يصل طلاب التنظيم للفوز بمقاعد اتحادات الطلاب، لكنه كان يعتقد أنه بعد وصول التنظيم إلى السلطة تصبح مواصلة شن الحرب على الدولة لا معنى لها.

حـاول البحـث عـن الأسـباب الحقيقيـة، اكتشـف أنّ الأمـر لا يعـدو محاولـة إرهـاب النـاس للقبـول بالنظـام الجديـد، كـما توفـرت لديـه شـكوك أنّ النظـام الـذي يريـد إعـادة ترتيـب اقتصـاد الوطـن بمـا يحفـظ فقـط مصالـح التنظيـم الإسـلامي، كان يريـد السـيطرة تمامـا عـلى السـوق، وإخـراج غـير المتعاطفـين مـع التنظيـم مـن رجـال الأعمال أو التجّـار خـارج حركـة السـوق، تذكّـر أن عـددا مـن كبـار التجـار أو حتـى المزارعـين أصحـاب المشـاريع الكبـيرة في مناطـق الزراعـة المطريـة تعرّضـوا إمـا للقتـل أو للإفـلاس خـلال الفـترة الماضيـة.

بعـد عزلـة اسـتمرت في البيـت طـوال عـدة أشـهر رفـض خلالهـا أيـة محـاولات مـن زملائـه للعـودة إلى العمـل، اسـتجاب أخـيرا لضغـوط والـده وقـرّر البحـث عـن عمـل بعيـدا عـن دوائـر النظـام أو الحـزب، بعـد عـدة محـاولات فاشـلة وبتوصيـة مـن والـده لأحـد أصدقائـه وجد عمـلا في شركـة بنـاء حديثـة، كانـت مهمتـه الإشراف عـلى حسـابات الشركـة، لم يكـن يعلـم أنّ الشركـة كانـت مملوكـة لجهـاز الأمـن والمخابـرات.

عـرف بعـد أشـهر أن الشركـة تابعـة للجهـاز فقـرّر الاسـتقالة، فيـما بعـد أقنعـه أمـين الحركـة الإسـلامية بالعـودة للعمـل في جهـاز الأمـن الشـعبي.

بـدأ في جمـع المعلومات، عـرف في البداية أنّ العملية اسـتغرقت أكثر مـن عامـين مـن التخطيـط، حيـث أنّ الجـوازات التـي تـم اسـتخراجها بعلمـه حـين كان يعمـل في الجهـاز في ذلـك الوقـت، اسـتخدمت لتسـفير المجموعـة التـي نفـذت محاولـة الاغتيـال، تـم ضمهـم آنـذاك إلى فرقـة موسـيقية أحيـت عـددا مـن الحفـلات في أديـس أبابـا. كان قـد سـمع أنّ

بعض الموسيقيين الذين توفوا في حوادث غامضة، كانوا هم نفس المجموعة التي سافرت إلى أديس أبابا وبرفقتهم الإرهابيين الذين تورطوا في محاولة الاغتيال، بدا له أن أفراد الفرقة الموسيقية لم يكن لديهم علم بهوية المجموعة التي تم تسفيرها معهم باعتبارها جزء من الفرقة، لكن يبدو أنّ أفراد الفرقة تمت تصفيتهم جميعا خوفا أن يكون أحدهم قد عرف شيئا بالصدفة.

كان واضحا أن جهات كثيرة لم تكن سعيدة بالتحقيق، لكن لم تشأ أية جهة الوقوف بصورة واضحة أمام تحقيق يجري بتوجيه من أمين عام الحركة الإسلامية. كما لم تشأ جهات كثيرة أن يخرج أية خلاف داخل الحزب إلى العلن في تلك المرحلة، حيث يحاول النظام تجاوز آثار المحاولة وتلافي تأثيرها المحتمل على علاقاته بالمجتمع الدولي.

اكتشف أنّ التنظيم لا يحتفظ فقط بعلاقات قوية مع عدد من التنظيمات المتطرفة في المنطقة، بل أنه متورط في دعم وإنشاء تنظيمات جديدة، وأنّ التنظيم يستضيف في معسكرات تدريب على أطراف بعض المدن الكبيرة عدد كبير من أعضاء الجماعات المتطرفة، وأنّ معظمهم يحملون جوازات سفر سودانية.

بدا في تتبع آثار المجموعة التي نفذت محاولة الاغتيال منذ لحظة وصولها لحضور المؤتمر الشعبي الاسلامي، كانت بعض الخيوط لا تزال غير واضحة. طلب مقابلة رئيس جهاز الأمن والنائب الاول للرئيس.

كان يشعر أنّ عيون السلطة تتبعه من على البعد، ويكتشف

كلـما تراكمـت لديـه المعلومـات، أن لا أحـد حتـى في الجنـاح التابـع لأمـين الحركـة الاسـلامية يتعاطـف مـع تحقيقـه! شـعر أنّ نتائـج التحقيـق ان قـدر لهـا أن تنـشر في يـوم مـا سـتورّط جميـع أجنحـة التنظيـم، حتـى تلـك التـي تحفّظـت عـلى محاولـة الاغتيـال! شـعر أنـه أيضـا سـيكون مسـئولا! فقـد شـارك في اسـتخراج عـدد مـن جـوازات السـفر لعـدد مـن الناشـطين الاسـلاميين الأجانـب! رغـم انـه كان يعتقـد ان الأمـر لا يعـدو كونـه عمـلا إنسـانيا لتسـهيل حركـة هـؤلاء الناشـطين بسـبب حرمانهـم مـن جـوازات سـفر مـن حكومـات بلادهـم، لكنـه رغـم ذلـك مـضى في تحقيقـه، كان التحقيـق لا يـزال في بداياتـه حـين نجـا بأعجوبـة مـن سـيارة انطلقـت نحـوه فجـأة وهـو يعـبر شـارع النيـل قريبـا مـن القـصر الجمهـوري، سـقط أرضـا وانكـسرت سـاقه وجـرح في يـده، فيـما لاذت السـيارة بالفـرار.

في المستشـفى اكتشـف أنـه فقـد كل الاوراق التـي كان يحملهـا في تلـك اللحظـة، لحسـن حظـه كان يحتفـظ في البيـت بالقسـم الأكـبر مـن المسـتندات التـي حصـل عليهـا والاوراق التـي دوّن عليهـا المعلومـات، قـضى بضعـة أيـام في المستشـفى، لم تسـتطع زوجتـه خلالهـا مـن زيارتـه كثـيرا، بسـبب انشـغالها بطفلهـما الصغـير، الـذي عـانى بعـض المشـاكل الصحيـة عنـد بـدء ظهـور أسـنانه، أخذتـه الى الطبيـب الـذي نصحهـا باسـتخدام دواء للحمـى، ودهـان لتخفيـف الألم في الفـم.

حـين عـاد النقيـب عبداللـه الى البيـت أخـيرا بعـد أن التأمـت جروح يـده ووجهـه بينـما لا تـزال رجلـه اليمنـى في الجبـص، عـرف مـن زوجتـه أنّهـا وجـدت بـاب البيـت مكسـورا بعـد عودتهـا مـن زيارتـه في المستشـفى، لكنهـا لم تشـأ ان تشـغله بالأمـر خاصـة انهـا لم تكتشـف

اختفـاء أيـة شيء مهـم مـن البيـت، لم يعـثر هـو عـلى أثـر للحقيبـة الجلديـة الصغـيرة التـي كان يحتفـظ فيهـا بمسـتندات التحقيـق.

أكـدّت لـه واقعـة اختفـاء الحقيبـة أنّ الحـادث كان مدبّـرا لإبعـاده عـن التحقيـق، إمـا بقتلـه أو تخويفـه مـن الاسـتمرار فيـه. عـرف أنّ ذلـك كان إنـذارا قويـا وربمـا أخـيرا وعليـه الان اتخـاذ قـرار إمـا بالمـضي قدمـا وتحمـل كل النتائـج أو الانسـحاب. قـرّر في البدايـة أن يتحـدث الى الأمـين العـام لأنّ القضيـة تبـدو معقـدة جـدا ومـن الافضـل ان يكـون هنـاك فريـق كامـل يتـولى التحقيـق حتـى لـو تعـرّض أحدهـم لأيـة حـادث يمكـن أن يواصـل البقيـة فيـه.

أوضـح للأمـين العـام أنّـه توصـل الى نتائـج مهمـة سـيقوم بتدوينهـا رغـم أنـه فقـد كل المسـتندات التـي قـام بجمعهـا خـلال فـترة البحـث. أصـدر الأمـين العـام قـرارا بتكويـن لجنـة، ضمـت عـددا مـن القانونيـين ، كـما أصـدر توجيهـا لجهـاز الأمـن التابـع للحـزب لتوفـير حراسـة لأفـراد اللجنـة لحـين الفـراغ مـن التحقيـق.

في الاجتــماع الأول وضـع النقيـب عبداللـه صـورة كاملـة أمـام أعضـاء لجنتـه.

تسـاءل أحمـد الطيـب المحامـي في بدايـة الاجتـماع عـن الغـرض من التحقيـق، هـل سـيجني التنظيـم منفعـة مباشرة أم أنّ نتائـج التحقيـق قـد تقـود الى انشـقاق في الحركـة الاسـلامية. أوضـح: نحـن نعـرف مـن الـذي دبّـر المحاولـة إنهـم جـزء مـن التنظيـم، المرحلـة صعبـة جـدا والتنظيـم لم يتمكـن مـن مفاصـل الدولـة بعـد، وهنـاك جهـات في الخـارج والداخـل تسـتهدف التجربـة الاسـلامية.

أوضح النقيب عبدالله: أتفق معك في جوهر الفكرة، لكن الحركة الاسلامية لم تعد مجرد تنظيم أو حزب يسعى للوصول الى الحكم، الحركة الاسلامية أصبحت دولة، الدولة لها التزامات داخلية وخارجية، إما أن نصبح جزءا من المجتمع الدولي أو نبحث عن مسمى آخر غير دولة، العلاقة مع جيراننا وبقية المجتمع الدولي يحكمها قانون دولي، لن نستطيع خرقه ونستمر في التعامل معهم بصورة طبيعية، البعض داخل تنظيمنا لا يزال يفكر بنفس عقلية التنظيم المتشدد الذي يحارب من أجل الوصول للحكم وحماية العقيدة المستهدفة!

فيما اكتفى بقية أعضاء اللجنة بالاستماع، واصل أحمد الطيب المحامي كلامه دون أن يبدو عليه أنه اقتنع بوجهة نظر النقيب عبدالله: قد أتفق معك في ما قلت، لكن كما ذكرت الوضع صعب والتنظيم يواجه حربا شرسة في الداخل والخارج، قد يكون هناك مشاكل داخل الحركة الاسلامية بين القيادات، نحن جمهور الحركة الاسلامية اذا اخترنا أحد أطراف هذا الصراع فنحن سنسعى لتوسيع الفتق، سيصبح الانشقاق واقعا ستكون له عواقب وخيمة على التجربة الوليدة.

قال النقيب عبدالله: هناك تجاوزات كثيرة هي التي تهدد التجربة في تقديري أكثر من نقد التجربة أو مراجعتها، في كل الاحوال لنتفق أنّ التحقيق ستبق نتائجه سرية، سترفع فقط لقيادة الحزب، يجب أن تكون هناك محاسبة ولو في حدود ضيقة حتى لا يتكرر انفراد مجموعات بقرار تترتب نتائجه الكارثية في النهاية ليس فقط على الحركة كلها بل على الوطن كله!

9

بعد سبع سنوات من اختفائه، كانت أسرة عبد الرحيم لا تزال تعيش على وقع الصدمة، مظهر البيت يعكس حال الحداد، الحياة متوقفة داخل البيت إلا بالقدر القليل الذي يبقي كوة الأمل مفتوحة، إلا بالقدر الذي يوفر طاقة قليلة للانتظار، جهاز الراديو الذي كان يصدح في بهو البيت طوال اليوم على مدى سنوات بعيدة، بموسيقى برامج الصباح، وفترة ما بعد الظهيرة التي تخفف فيها أغنيات عبد العزيز داؤود وعبد الكريم الكابلي وزيدان من كآبة العالم الذي يكاد يغلي بفضل حرارة الجو غير المحتملة.

قبل أن تغلب على معظم برامجه بعد الانقلاب، الوجه العسكري الإخواني، أغاني تحض على الجهاد، أناشيد تمجّد الموت، تعلن عن كتائب المجندين المتجهة إلى مناطق العمليات، وعن معجزات الحرب: قرد يتقدم المجاهدين، ليقوم بتفكيك الألغام الأرضية التي زرعتها حركة التمرد، غزلان تتحدث بلغة عربي جوبا، تطلب من المجاهدين الجائعين أن يقوموا بذبحها والتغذي بلحمها.

بات الراديو صامتا منذ اللحظة التي اختفى فيها عبد الرحيم، حتى نوافذ البيت الخشبية، التي تغطيها ستائر الساتان المغطاة بالتراب تبدو في وضع الانتظار، حتى شجرة النيم التي تغطي نصف الفناء، والتي شهدت طفولة عبد الرحيم وإخوته، تبدو ايضا كأنها في إنتظار عودة الغائب لتستأنف الحياة، لتُبدل أوراقها وفق

دورة تعاقب الفصول، لتحتفل بعصافير المغيب، ومهرجانات ضوء الفجر.

اضطرت ثريا لطلب عطلة من عملها حتى لا تترك والدتها لوحدها في البيت طوال النهار، أشقائها بدر وسمير كأنا لا يزالا يدرسان في الجامعة، مساء يعمل بدر في متجر لتأجير أفلام الفيديو وتصوير المناسبات، سمير كان الأصغر، رفضت والدته أن يخرج للبحث عن عمل، حتى أثناء وجوده في المدرسة كانت تشعر بقلق شديد وتسأل كل دقائق عن أسباب تأخره، أقنعتها ثريا أنها ربما تفقد عملها لاضطرارها للبقاء بجانبها لذلك يجب أن يجد سمير عملا، لم تقل ثريا شيئا عن حاجتهم للمال منذ اختفاء عبد الرحيم، لم تشأ ثريا أن تذكر اسم شقيقها الغائب حتى لا تثير أحزان والدتها رغم أنها تعرف أن والدتها لا تحتاج لسماع اسمه لتتذكره، فهي كانت طوال اليوم لا تفعل شيئا سوى انتظار ظهوره، يتعلق قلبها بكل وقع خطوات عابر في الشارع، أمام البيت أملا في أن تكون هي خطواته، ينتفض جسدها كله وتهب واقفة لدى كل خبطة على باب البيت، شعرت الأم بوحشة أكثر بعد زواج ثريا وسفرها خارج الوطن للالتحاق بزوجها. قاموا بتأجيل زواج ثريا عدة مرات أملا في ظهور عبد الرحيم، في النهاية بعد إلحاح الزوج وابنيها سمير وبدر وافقت الأم على إتمام الزواج، بشرط ألا يكون هناك اية مظهر للفرح في البيت، قاموا بعمل عقد الزواج في المسجد القريب من البيت، ومساء اليوم نفسه جاء الزوج لاصطحاب زوجته حيث سافرا خارج الوطن في اليوم نفسه، كانت تلك مناسبة أخرى للحزن والبكاء.

بعـد سـفر ثريـا أصابـت الأم حالـة مـن الشـعور بالوحـدة زادت مـن فداحـة الشـعور بفقـد عبـد الرحيـم، كان ابناهـا يتناوبـان البقـاء في البيـت معهـا، قاما بعـد أيـام قليلـة مـن سـفر ثريـا بإحضـار طبيـب لمعاينتهـا بسـبب تدهـور صحتهـا، كانـت تـأكل قليـلا، وبعـد الحـاج شـديد مـن ابنيهـا. وجـد الطبيـب أن ضغـط الـدم كان مرتفعـا كثـيرا واكتشـف أنهـا لم تكـن تتنـاول الـدواء. كتـب لهـا بعـض المقويـات وطلـب مـن ابنيهـا التأكـد أنهـا تتنـاول جرعـة الـدواء يوميـا، اقـترح سـمير أن يتصـل بثريـا ويطلـب منهـا العـودة سريعـا، لكـن بـدر اعـترض عـلى ذلـك، قـال إنهـا سـافرت للتـو مـع زوجهـا ومؤكـد أنهـا سـتعود في أقـرب فرصـة للاطمئنـان عـلى والدتهـا.

كانـت الحاجـة نـور أثنـاء هذيانهـا طـوال أيـام مرضهـا، تـردد اسـم عبـد الرحيـم باسـتمرار، تخاطبـه طـوال الوقـت، تنخـرط أحيانـا في البـكاء، ثـم تعـود لتسـأله عـن أسـباب سـفره الطويـل، يختلـط لديهـا المـاضي والحـاضر، تغنـي لـه لينـام في طفولتـه، تـراه تائهـا في البيـت يـوم وفـاة والـده، يراقـب بدهشـة عويـل النسـوة مـع أمـه، دون أن يفهـم لم يبـكي الجميـع في وقـت واحـد، كان يعـرف أن الإنسـان يبـكي بسـبب الألم، ويبـكي لوحـده، لكنـه لم يكـن يفهـم كيـف يتـألم النـاس ويبكـون جميعـا في الوقـت نفسـه، تبعـده مـن الغرفـة التـي يرقـد فيهـا جثـمان والـده أثنـاء غسـل الجثـمان وتجهيـزه للدفـن، حتـى لا يـرى وجـه والـده الميـت، تقـول لـه حـين سـأل في اليـوم التـالي عـن والـده: والـدك ذهـب إلى الجنـة!

ولمـاذا لم يأخذنـا معـه؟ وعـدني حـين سـافر آخـر مـرة، أنـه سـيأخذني معـه في كل مـرة يسـافر فيهـا!

تمسح دموعها، وتحاول أن تصف له الجنة، أنّ الناس يسافرون إلى الجنة لوحدهم، لا يأخذون معهم أية إنسان!

تقول أثناء هذيانها حين ترى زوجها الراحل يعبر أمامها في ومضة حلم: لن أسمح لك لتأخذه معك! اذهب أنت ودعنا في حالنا اعتدنا على الحياة بدونك، لكننا لا نستطيع العيش بدونه! تصرخ فيه: أتركه في حاله، لن أسمح لك أبدا أن تأخذه مني! وحين يتحول صوتها إلى صراخ، يحثُّ الميت الخطى بعيدا خائفا مرتجفا بسبب عدم اعتياده في هدأة الموت على صراخ الأحياء، يهرع أبنائها معتقدين أنها تنادي عليهم، يجدونها غارقة في عرق جسدها وهذيان عراكها مع الموتى.

توصيه كيف يتصرف في المدرسة، وهي تصحبه في الطريق إلى المدرسة في أول أيامه فيها، توصيه أن يحافظ على نظافة ملابسه، وأن لا يتشاجر مع أقرانه، تتشاجر مع مدير المدرسة لأنّ أحد المدرسين عاقب عبد الرحيم بدون رحمة، حتى ترك الجَلد اثارا على وجهه وظهره، قالت لمدير المدرسة: هل لأنه يتيم تفرطون في عقابه؟ لو كان والده حيا ما تجرأ أحد على ضربه بمثل هذه القسوة.

تستمع إلى مدير المدرسة وهو يعتذر لها، ويعدها أنّه لن يسمح بمعاقبته مرة أخرى مهما حدث. تبكي بشدة في اليوم الذي جُرح فيه عبد الرحيم حين سقط فوق قطعة زجاج مدفونة في التراب أثناء لعب الكرة في الباحة أمام البيت، كانت تمنع إخوته الصغار من الخروج من البيت، هو الوحيد الذي لم تكن تستطيع رفض اية طلب له، حين ألح عليها أن يخرج للعب الكرة، سمحت

لـه بعـد تـردد بـشرط أن لا يذهـب بعيـدا، فاسـتطاع إقنـاع زملائـه أن يلعبـوا في الباحـة أمـام بيتهـم رغـم أنهـا كانـت صغـيرة جـدا ولا تصلـح كملعـب لكـرة القـدم.

قـام الطبيـب في المركـز الصحـي القريـب بتنظيـف وخياطـة الجـرح، وأعطـاه دواء لعـلاج الالتهـاب ومسـكنا لـلألم، كانـت تسـهر بجـواره طـوال الليـل، إصابتـه حمـى في الأيـام الأولى، لكـن الجـرح بـدأ في التعـافي بسرعـة، لم تشـأ أن تمنعـه مـن اللعـب مـرة أخـرى، لكنهـا قامـت ليـلا حتـى لا يراهـا أحـد بتنظيـف الباحـة أمـام البيـت وإزالـة الشـوك والطـوب وقطـع الزجـاج التـي عـثرت عليهـا.

رغـم صغـر سـنه يحمـل هـم البيـت وهـم إخوتـه الأصغـر منه سـنا، يسـاعد أمـه في أعـمال البيـت، يغسـل الأواني ويكنـس الفنـاء، يراعـي إخوتـه الصغـار وكأنـه والدهـم، رغـم أنـه يكبرهـم بأعـوام قليلـة، وحين بـدأ أشـقائه في الذهـاب إلى المدرسـة، كان يقـوم في طريقـه بالذهـاب مـع ثريـا حتـى تدخـل مدرسـتها المجـاورة لمدرسـتهم، ثـم يصحـب بـدر وسـمير معـه إلى المدرسـة، كان يحميهـما مـن الطلبـة المشـاغبين، في البيـت بعـد أن يفـرغ مـن مسـاعدة أمـه ، كان يجلـس لمذاكـرة دروسـه ويسـاعد إخوتـه في مراجعـة دروسـهم.

يـوم عيـد الفطـر تصطحـب الأطفـال لزيـارة قـبر والدهـم، يضيـع وقـت طويـل كل مـرة حتـى يعـثرون عـلى قـبر والدهـم، بسـبب ازدحـام المـكان تضيـع معـالم القـبر في كل مـرة، تقـول الأم: يمـوت النـاس كثـيرا هـذه الأيـام، أخـشى أننـي حـين أمـوت لـن أجـد مكانـا لِأُدْفِـن فيـه جـوار زوجـي! تضـع جريـد النخيـل فـوق القـبر وتدعـو للميـت، وتعلّـم أطفالهـا كيـف يقـرءون الفاتحـة ويدعـون لوالدهـم، ثـم تناجـي

زوجها مودعة، تطمئنه على أحوالهم: نحن بخير، كل شيء يسير بصورة حسنة، لم تمت يا والد أبنائي، ما دمت أنجبت عبد الرحيم فأنت موجود دائما معنا، هو يشبهك في كل شيء، يحمل هم الناس جميعا، ويخدمهم رغم صغر سنه، بدر مشاغب قليلا لكنه طيب القلب مثلك، ثريا أيضا تشبهك في كل شيء، ورغم أنها لا تذكر صورتك، لكنها تقول حين أكبر لن أتزوج إلا رجلا يشبه أبي، سمير أيضا يشبهك، وحين كان صغيرا جدا قبل سنوات، كان يحب دائما أن يحاكي صورتك الموجودة في صالة البيت، يحمل عصا في يده، ويرسم شاربا بالفحم على وجهه، ويستخدم ثوبي كعمامة حين يضعها على رأسه تغطي جسمه كله.

10

أحـضروا أفضـل طبيـب للمسـالك البوليـة، قـام بفحـص السـيد الرئيـس فحصـا شـاملا، أوصى باسـتخدام بعـض الأدويـة، قـدّم توصيفـا عامـا ضاعـف مـن الإربـاك الـذي سـببته المشـكلة: يبـدو أنّ هنـاك مشـكلة مـا، أحتـاج لبعـض الوقـت لمزيـد مـن المراجعـة والاستشـارات!.

اتصـل شـخص مـا سـيدي الرئيـس، يقـول إن العضـو الضائـع معـه! ويطلـب مبلغـا كبـيرا مـن المـال!

ألا تسـتطيعون تحديـد مكانـه؟ دفعـت لكـم الشـهر المـاضي خمسـة ملايـين لـشراء أحـدث أجهـزة التجسـس عـلى المكالمـات الهاتفيـة، أيـن ذهبـت تلـك الأمـوال؟ بالطبـع ذهبـت إلى حسـاب في ماليزيـا أو تركيـا، واشـتريتم بـدلا مـن الأجهـزة الغاليـة الثمـن، أجهـزة مُقلّـدة رخيصـة مصنوعـة في الصـين!

سـيدي الرئيـس الرجـل يسـتخدم هاتـف الثريـا الـذي يسـتحيل علينـا تتبعـه!

ساحر مشعوذ يستخدم الثريا!؟

يقـال إنـه يسـتخدم سـيارة نقـل صغـيرة مـن نـوع لاندكـروزر، يحمـل فيهـا شـحنة الأعضـاء الذكريـة التـي اسـتولى عليهـا، ويسـتخدم تليفـون الثريـا للتفـاوض مـع أصحـاب الأعضـاء، ثـم يتفـق مـع صاحـب العضـو عـلى مـكان التلاقـي الـذي يصلـه عـن طريـق الجـي بي اس، أحيانـا تحـدث أخطـاء فقـد قـام مـرة بإعـادة عضـو ذكـري يخـص شـابا

صغيرا إلى مسن في التسعين من عمره! وكانت النتيجة أنّ التسعيني أصابته حُمى الزواج مرة أخرى!

كشف تهافته العاطفي بسرعة حين علّق دون حكمة: لا أحد يرفض مثل هذا الخطأ!

هل تنوي فخامتك أيضا الزواج؟

تجاهل سؤال مساعده، وأعلن: لدي موعد الأسبوع القادم مع المبعوث الأمريكي، أخشى أنني لن أكون مهيئا لاستقباله!

إن لم تتمكنوا من حل المشكلة سأضطر إلى إلغاء لقائي معه! حين أجلس معه بكامل أعضائي البشرية فإنني أحاول طوال الوقت دفن إرتباكي في إبتسامة أرسمها على وجهي حتى من قبل وصول المبعوث، ليس بدافع المجاملة أو الفرح بخبر قرب رفع العقوبات الأمريكية، بل لأخفي أن أعضاء جسمي كلها كانت ترتجف في حضرة المبعوث، الذي لا يكف عن الحديث عن التعويضات التي يجب أن ندفعها لأسر ضحايا المدمرة كول، أشرح وأعيد له أنني لم أكن أحكم آنذاك، كنت في القصر، وكان الاخوان في السلطة! لا فرق بيني وبين الديدبان الذي يقف أمام باب القصر! أستعرض حرس الشرف وأتسلم أوراق اعتماد السفراء، ويؤدي الوزراء القسم أمامي، دون حتى أن اعرف أسمائهم، أقوم بالتوقيع على أوامر جمهورية بتنفيذ حكم الإعدام في أصدقائي!

لم أستطع ولا حتى حماية أهل قريتي وجلهم من أقربائي، ولأن معظمهم كانوا يتعاطفون مع المعارضة، اعتقلهم جهاز المخابرات، قاموا بتعليقهم من أرجلهم، وضربوهم ضرب غرائب الإبل، وحين

جاءني وفد منهم طلبا للمساعدة استدعيت مدير المخابرات، لكنه أنكر أن هؤلاء من أقاربي وقام بإحضار وفد آخر من رجال غرباء، زعموا أنهم من تلك القرية وأنهم من اقربائي، حتى أنّ احدهم حكى لي انه كان موجودا يوم مولدي، وان والدي رحمه الله، أرسله لإحضار القابلة لأمي، وشرح لي انهم يعيشون في رخاء في عهد الثورة، وانّ جهاز الأمن والمخابرات أعاد تأهيل المشروع الزراعي في القرية، وانهم عادوا للمرة الأولى بعد سنوات لزراعة القطن، وانهم أنشأوا أيضا وحدة أبحاث زراعية لدراسة إمكانية زراعة محاصيل جديدة واستخدام بذور مُحسّنة لزيادة انتاج القمح، وأعطاني جوالا صغيرا من الكركدي، قال انه من انتاج المشروع، وانه عرف من والدي قبل سنوات انني احب الكركدي لذلك أحضر لي كمية منه، لأن الموجود في السوق ليس من النوع الجيد، ومعظم المعروض في الأسواق يستخدم المزارعون الأسمدة الكيماوية لإنجاحه، لكنهم يتجنبون استخدام الأسمدة الكيماوية التي سبّب انتشارها انتشار أمراض السرطان والفشل الكلوي. صدّقته لأنني بالفعل أحب الكركدي ولم يكن يعرف ذلك سوى أفراد أسرتي!

وبعد سنوات اكتشفت أن جهاز المخابرات قام بإفراغ تلك القرية من سكانها وتحويلها إلى مصنع ضخم للأسلحة! قلت لهم من الجيد أن نصبح دولة عظمى تُصنّع الأسلحة! ولكن ألم تجدوا مكانا آخر بدلا من تشريد أهلي وإفراغ قريتهم؟ قالوا لي وجدنا القرية فارغة من سكانها، كانت هناك جائحة كوليرا، وبدلا من إبلاغ الجهات الصحية، اغلقوا القرية على أنفسهم، وكانوا يستخدمون القرض والأدوية المحلية للعلاج حتى ماتوا كلهم،

حتـى الحمـير والبهائـم نفقـت كلهـا!

قـال المبعـوث: أسـلحة مصنعكـم العظيـم كانـت تذهـب للإرهابيـين في مـالي ولإرهابيـي بوكـو حـرام في غـرب أفريقيـا وفي أماكـن أخـرى! قـرّرت أن اصمـت، كلـما قلـت شـيئا مـا أمـام المبعـوث الأمريـكي، يحوّلـه بسرعـة إلى دليـل آخـر لضلـوع دولتنـا في الإرهـاب !

حتـى الصمـت يسـتثمره المبعـوث، حـين وجـد أننـي لـذت بالصمت قـال لي: ألم تقـل في حـوار صحفـي أنـك تكـره الصمـت، وأنـك تحـب الصخـب، حتـى إنـك اسـتجلبت مغنيـا مغمـورا ليقيـم معـك في القـصر، وأصـدرت لـه أمـرا ألا يتوقـف عـن الغنـاء طـوال اليـوم، وأنـه كان يكـرر عـددا مـن الأغـاني الهابطـة حسـب طلبـك سـيدي الرئيـس، وأنـك لم تطـرده إلا بعـد أن أصيـب بالتهـاب في الحنجـرة نتيجـة الغنـاء دون توقـف لعـدة أشـهر! حتـى أنـه تعـود عـلى اسـتئناف الغنـاء حتـى وهـو ينـام واقفـا والمايـك في يـده، والفرقـة الموسـيقية الكاملـة تعـودت أيضـا عـلى اسـتئناف العـزف أثنـاء النـوم، رغـم أنّ الشـخير كان يطغـى أحيانـا عـلى صـوت الآلات الموسـيقية التـي أصبحـت بالـكاد تصـدر صوتـا بسـبب اسـتهلاك أوتارهـا مـن فـرط الغنـاء!

ابتسـمت ولم أُعلـق عـلى كلامـه، كان بـودي أن أصحـح لـه بعـض المعلومـات التـي مـضى يسردهـا وهـو يتحـدث عـن دعـم بلادنـا للإرهـاب، وعـن انتهـاكات حقـوق الإنسـان، لكننـي آثـرت الصمـت، فقـال: ألم تقـل في نفـس ذلـك الحـوار الصحفـي أنـك مـن الإخـوان! وانّ أشـقائك مـن الإخـوان المؤسسـين للتنظيـم! ثـم يقـول لي: تقـول إنـك انقلبـت عليهـم لكنهـم موجـودون في كل مفاصـل الدولـة، وهـم قـادة حزبـك سـيدي الرئيـس!

حتى داخل هذا القصر الجديد هم موجودون في كل مكان! يا لخبث هذا المبعوث، كأنه عرّاف، يقول لي حين عبر أحد أعضاء حزب الإخوان أثناء اللقاء من أمامنا، متى حلق هذا الأخ المسلم ذقنه التي كان يسحبها على الأرض قبل سنوات؟ وأشار لآخر وقال: متى انضم هذا الأخ المسلم لحزبك؟ ألم يكن تابعا للجناح الآخر! قام المبعوث بتلخيص انشقاق تنظيمنا: كل ما حدث هو الجزء الثاني من مسرحية اذهب إلى القصر رئيسا واذهب أنا إلى السجن حبيسا! جناح معارض بالنهار وحكومة بالليل! حكومة الأبواب الخلفية!

ضحكت وطلبت منه أن يترك لي ملف تعويضات ضحايا المدمرة كول، قلت محاولا إغلاق الموضوع، سنبحث الموضوع في مجلس الوزراء وسأرد عليكم قريبا، مجرد أن تسلّمت منه الملف، أخرج من حقيبته ملفا آخر، قلت هل سنناقش الآن ملف رفع العقوبات؟ ابتسم وقال لي: هذا ملف تعويضات تفجير السفارتين في تنزانيا وكينيا!

أعدت له كلامي حول القصر والسجن، قلت له كنت أقوم آنذاك بتعيين أشخاص في مناصب دستورية، حين يذهبون بعد أداء القسم لاستلام وظائفهم، يجدون أشخاصا آخرين يجلسون في مكانهم! فأضطر للاعتذار لهم! لم أكن أحكم خارج غرفة نومي، الآن تغيرت الأحوال، الشيطان الذي كان يحكم من وراء ظهري، هو الان في كوبر!

يبتسم المبعوث الأمريكي بخبث ويقول: لكنّ نائب الشيطان موجود في القصر! هل هذا مبعوث أمريكي أم عرّاف؟ يعرف كل

ما يدور في القصر، يعرف حتى قصة العضو الذكرى الذي سرقه أحدهم، لابد أنه يملك تسجيل محادثة تليفون الثريا مع الساحر، الذي حصل على عشرين مليون دولار مقابل إعادته!

تسلّمت ملف تعويضات ضحايا تفجير السفارتين في تنزانيا وكينيا، وقلت محاولا إن أختم اللقاء، سأقوم بمناقشة الملف في اجتماع مجلس الوزراء الأسبوعي وسنرد عليك قريبا جدا، مددت يدي وأنا واقف لأودعه وبدلا من أن يعطيني يده لأصافحها، فوجئت في يدي بملف آخر: قلت مندهشا ما هذا ؟ قال هذا آخر ملف: ملف تعويضات ضحايا 11 سبتمبر!

11

قـال النقيـب عبـد اللـه في آخـر اجتـماع للجنـة التحقيـق: لقـد فعلنـا مـا بوسـعنا سـأقدم التقريـر غـدا لأمـين الحـزب وأمـين الحركـة الإسـلامية، هـل أذهـب بمفـردي أم نذهـب جميعـا؟

اقـترح أحـد أعضـاء اللجنـة أن يذهـب النقيـب عبـد اللـه لوحـده ويسـلّم التقريـر والمسـتندات إلى أمـين الحـزب، وإن رغـب الأمـين في حضـور اللجنـة للاجتـماع معـه فيمكـن ترتيـب موعـد لذلـك.

عنـد وصولـه إلى أمانـة الحـزب ومعـه حارسـه الخـاص، وجـد النقيـب عبـد اللـه عـددا كبـيرا مـن حـرّاس جهـاز الأمـن المدججـين بالأسـلحة والذيـن تعـرف إليهـم مـن ملابسـهم، يحيطـون بـكل مداخـل المبنـى، أبلغـه أحدهـم: لا يمكـن مقابلـة أي شـخص في مقـر الحـزب اليـوم، هنـاك اجتـماع مهـم في الداخـل، لم يسـتطع أن يفهـم منهـم مـا الـذي يحـدث بالضبـط في الداخـل، كان يسـتقل مـع حارسـه عربـة تابعـة للحـزب، طلـب مـن السـائق أن يقلهـم إلى فـرع الحزب في وسـط المدينـة لمحاولـة إسـتجلاء مـا يحـدث، فقـد شـعر أنّ هنـاك تطـور غـير عـادي يحـدث.

اتصـل مـن داخـل السـيارة مسـتخدما هاتفـه النقـال بعـدد مـن معارفـه دون أن يعـرف شـيئا، كان هنـاك أعـداد مـن قـوات الجيـش في الشـوارع إضافـة للحراسـة القويـة عـلى عـدد مـن المؤسسـات الحكوميـة التـي عـبروا بجانبهـا.

كان الوضع يشبه انقلابا عسكريا، طلب من السائق تشغيل راديو السيارة، البرنامج يبدو عاديا، أمام فرع الحزب تكرّر نفس المشهد، عدد من الرجال المسلحين يقفون بلباس مدني أمام الباب الرئيسي، تلقى في تلك اللحظة اتصالا من أحد أعضاء اللجنة: يقولون أنّ الرئيس سيذيع بيانا هاما بعد قليل.

دون أن يعرف شيئا عما يدور داخل أروقة السلطة، شعر أنّ مجهود عدة أشهر قد ضاع في تلك اللحظة، بنهاية عمل لجنة التحقيق لم يكن هناك من داع للحراسة الشخصية، طلب من الحارس العودة إلى مقر عمله، وطلب من السائق إعادة السيارة إلى مقر الحزب، أنتظر قليلا أملا في أن يظهر أحد معارفه، ثم وقف في الشارع لبعض الوقت، قبل أن يعثر على عربة أجرة.

في نشرة أخبار الساعة الثالثة بعد الظهر استمع في جهاز الراديو إلى مقاطع من خطاب السيد الرئيس، الذي أعلن أنه بصدد إصدار بعض القرارات الجمهورية تتعلق بتنظيم العلاقة بين الحزب والدولة بما يحقق التناغم في الأداء الحكومي، وللحد من تضارب القرار وتعدد المراكز التي تدير الجهاز الحكومي.

أجرى بعض الاتصالات لمعرفة ما وراء القرارات الجمهورية، عرف أنّ قرارا صدر بحل حزب الوطن، وتشكيل تنظيم سياسي جديد يرأسه رئيس الجمهورية ويكون النائب الأول أمينه العام، حاول الاتصال بأمين الحزب وأمين الحركة الإسلامية لكن تليفونه كان دائما مغلقا أو الخطوط مشغولة، قَرَّرَ أن ينتظر حتى اليوم التالي مرجحا أنّ التغييرات التي حدثت، ربما أربكت قيادة الحركة الإسلامية، وربما تؤدي إلى انشقاق كبير في صفوف الحركة، لكن

النقيب عبد الله كان يريد فقط إغلاق ملف لجنة التحقيق ويخلي مسئوليته، خاصة وأنه كان يملك عدة مستندات ليست في صالح المجموعة الثانية في الحركة الإسلامية والتي أصبحت الآن في السلطة.

فكّر متوجسا: المجموعة التي دبّرت محاولة اغتيال الرئيس المصري أصبحت في السلطة! رغم أنه لاحظ من بعض الخيوط التي لم تتمكن اللجنة من متابعتها، أن كل أجنحة الحركة كانت في الواقع متورطة بصورة أو بأخرى، جناح الأمين العام الذي طلب التحقيق واعترض على المحاولة بعد وقوعها، كان هو الذي قدّم الدعوة لفريق الاغتيال باعتبارهم من الناشطين الإسلاميين، وافتتاح معسكرات التدريب كان مبادرة من الحركة الإسلامية لم يعترض عليها أحد، صحيح أنّ تدريب عدد من المقاتلين ربما كان بهدف المساعدة في تأمين النظام نفسه، مثل مقاتلي حركة حماس الذين أسهموا في تأمين الكباري وبعض النقاط الاستراتيجية في أيام الانقلاب الأولى، لكن هل يعقل (فكّر النقيب عبد الله) أن قيادة الحركة لم تكن واعية أنّ فتح معسكرات تدريب تضم عددا من الإسلاميين المحسوبين على حركات إسلامية معارضة لأنظمة الحكم في بلادها، يمكن أن يمر دون رد فعل من تلك الدول حتى لو لم تتورط تلك المجموعات في مخطط اغتيال رئيس دولة.

عرف النقيب عبد الله أنه يجب أن يتخلص من تقرير اللجنة والمستندات التي يحتفظ بها، وَإِلَّا فعليه توقع الأسوأ، الجهة التي كانت تسند ظهره أصبحت خارج لعبة السلطة، بدأ يجري بعض الاتصالات مع مقربين من أمين الحركة لمحاولة تحديد موعد

معـه، دون جـدوى.

في اليـوم التـالي كانـت المسـتندات وتقاريـر اللجنـة لا تـزال معـه، قـرّر أن يقـوم بنقلهـا إلى بيـت يقيـم فيـه بعـض أقربائـه مـن الشـباب بعضهـم طُـلاب، إذا مـا أراد أحدهـم الحصـول عـلى المسـتندات، لـن يفكـر أنـه نقلهـا إلى هنـاك، وربمـا وجـود المسـتندات بعيـدا عـن بيتـه قـد يمثـل نوعـا مـن الحمايـة لـه كـما مـضى يفكّـر، أنهـم عـلى الأقـل لـن يقدمـوا عـلى التخلـص منـه قبـل الحصـول عـلى المسـتندات ومحـاضر لجنـة التحقيـق، قـرّر أن يسـتغل الارتبـاك الناجـم عـن التغيـيرات التـي تحـدث بعـد القـرارات الجمهوريـة، في سرعـة نقـل المسـتندات بعيـدا عـن البيـت، قبـل أن يتنبـه مـن يهمهـم أمرهـا ويبـدأون في مطاردتـه.

حمـل المسـتندات في حقيبـة سـيكون ملفتـا للأنظـار، بسـبب كـبر حجمهـا وجـد أن وضعهـا داخـل ثيابـه سـيكون ملفتـا أيضـا، قـرّر في البدايـة أن ينقلهـا بعـد حلـول الظـلام، فكّـر أن يسـتعين بولـده عثـمان، يمكـن أن يمـلأ حقيبـة المدرسـة ثـم يضـع بقيـة المسـتندات داخـل ملابسـه، لكـن خـروج عثـمان معـه بحقيبـة مدرسـية خـارج وقـت المدرسـة ربمـا يكـون أيضـا ملفتـا للأنظـار، خطـرت لـه فكـرة أخـرى، زوجتـه تخـرج دائمـا في الصبـاح لـشراء الخبـز وبعـض مسـتلزمات البيـت، سـيضع المسـتندات في حقيبـة بلاسـتيك داخـل السـلة الكبـيرة التـي تحملهـا زوجتـه للتسـوق، يقـوم هـو أحيانـا بالذهـاب مـع عثـمان إلى المدرسـة، بعـد أن يصـل عثـمان إلى المدرسـة، يمكنـه الذهـاب إلى السـوق لينتظـر زوجتـه هنـاك، وليتأكـد مـن تضليـل أيـة مراقبـة محتملـة، ثـم يتسـلم مـن زوجتـه المسـتندات في أثنـاء تسـوقها، أبلـغ زوجتـه بتفاصيـل خطتـه مسـاء، في الصبـاح، مجـرد أن خـرج مـع

عثـمان خـارج البيـت شـعر بحـدس غامـض أنـه مراقـب، لم يحـاول أن يعطـي أيـة انطبـاع بأنـه لاحـظ ذلـك، حـاول أن يكـون طبيعيـا، يمـزح ويضحـك مـع عثـمان ، وينظّـف لـه بقايـا آثـار النـوم في عينيـه، توقـف معـه أمـام متجـر في الركـن الشرقـي للمدرسـة، واشـترى لـه بعـض الحلـوى ماسـحا الشـارع مـن حولـه بحـذر، ثـم أدخـل عثـمان إلى المدرسـة وانطلـق إلى السـوق.

12

كانت عشرة أعوام كاملة قد انقضت منذ اليوم الذي اختفى فيه عبد الرحيم، كانت والدته لا تزال تعيش على أمل ظهوره في أية لحظة، يداوي جراح قلبها، التي تشعر بها تنزف، خاصة في صمت ساعات الضحى، حين يغادر الجميع، ولا يبقى من حولها سوى مرارة الذكرى، سوى كل الأشياء التي تبدو كأنها تشير إلى صورته، كل الأشياء الجميلة التي كان يحضرها لها، قبل أيام استيقظت صباحا، بقلب مثقل بأحزان خارقة، كانت تشعر بها تنبض في كل شيء من حولها، رفعت رأسها كما تعودت أن تفعل كل صباح، فلم تراه يحدق فيها كعادته، اختفت صورته المعلّقة على الجدار في مواجهة فراشها، تشاجرت مع بدر الدين، ارتبك في البداية حين سألته عن الصورة، قال إنه اكتشف أنّ الصورة كانت على وشك السقوط لأنّها لم تكن مثبتة جيدا على الجدار، وأنه سيعيدها بعد أن يقوم بتغيير الخيط الذي يثبت الصورة إلى الجدار، شعرت به يكذب عليها، لم تكن تلك المرة الأولى في محاولاته لجعلها تنسى، قالت له وهي تشير إلى صدرها الذي كان الغائب المقيم أول من رضع منه من حبها وحنانها، أول من شاهدته يتعلم المشي، كان متعجلا كأنه يريد اختصار رحلة الحياة، كأنه عرف مبكرا بالخطر المحدق به، فتعجّل الخطى إلى قدره، يستيقظ من النوم ويشرع فورا في المشي، يمشي فوق كل شيء، بخطاه المتعثرة الأولى، الوحيد الذي تسمح له بالمشي فوق وجهها، تفرش وجهها برموش عينيها، ليعبر دون أن تذل قدمه، قالت ويدها تتشبث في صدرها، كأنها

تمسك بذكرى وجهه الجميل وهو يلتصق بصدرها، يمتص منه رحيق الحياة، قبل أن يستغرق في النوم، تضعه على فراشه، يرتاح قليلا قبل أن يواصل المشي فوق كل شيء: حتى لو سقطت الصورة فإنه باق هنا، كيف سأنسى من أضع صورته في قلبي! منذ تلك اللحظة توقف بدر الدين عن محاولاته لدفعها إلى النسيان.

يحدثها قلبها أن ابنها حي، وأنه قريب منها، تشعر بدفء وجوده من حولها، حتى إنها استأجرت صبيا طرق الباب ذات يوم ليعرض بضاعته من الأواني المنزلية، أعطته والدة عبد الرحيم مالا، وطلبت منه أن يطوف على بيوت الحي والأحياء المجاورة كلها، التي تكون دائما أبوابها مغلقة، ليعرض بضاعته ويحاول التلصص ليرى ما يحدث داخل هذه البيوت، كانت الأم قد سمعت أن معظم الغائبين يعتقلهم جهاز الأمن ويقوم باحتجازهم في بيوت سرية، يكون بعضها مؤسسات حكومية قديمة تقع داخل الأحياء السكنية.

طرق الصبي كل أبواب الحي، اشترى البعض من أدواته المنزلية، ولم يجد ردا حين طرق أبوابا كثيرة، بعض البيوت اضطر للهرب من أمامها حين سمع نباح كلاب متوحشة تتأهب للإنقضاض عليه، لم يستطع التأكد إن كان أحدا يقطن في هذه البيوت أم أنّ سكانها هجروها، كان يسمع أصواتا مبهمة تتسرب من داخل بعض البيوت المغلقة، أثناء عمله لسنوات كبائع متجول كان دائما ما يسمع تحذيرا من بعض الناس الذين يصادفونه يطرق أبواب بعض البيوت، يطلبون منه الابتعاد عن تلك البيوت التي يعتقدون أن الجن يسكن فيها، قال للحاجة نور: لم أجد شيئا، هناك بيوت

مغلقة أبوابها مغطاة بخيوط العنكبوت، لكنني سمعت أصواتا ربما يسكن الجان في هذه البيوت كما سمعت! أو ربما هناك أبواب خلفية يستخدمها سكان هذه البيوت! بعض البيوت بها كلاب متوحشة، طرقت أبوابها وإضطررت للفرار!

طلبت من سمير أن يذهب مع الصبي ويسأل عن سكان تلك البيوت التي سمع الصبي أصواتا تصدر منها رغم أن أبوابها تبدو مغلقة منذ سنوات، وتلك البيوت التي يُربي أصحابها الكلاب، ولا يسمحون لأحد بالاقتراب منها، وطلبت من بدر نشر إعلان آخر في إحدى الصحف اليومية، علّ أحدا يكون قد رآه، أو يعرف أية معلومة تفيد بمكان وجوده، أعطته صورة صغيرة كانت نسخة من الصورة المعلقة في جدار غرفتها وعلي جدار صالة البيت، لم يكن بدر الدين مقتنعا بالفكرة لكنه قام بتنفيذها لإرضاء أمه، قرّر أن يقوم هذه المرة بتجربة نشر النداء في إحدى الصحف الرياضية، التي تجد رواجا أكثر من صحف الحكومة.

بعد يومين من نشر الإعلان، دقّ جرس التليفون، عرّف المتحدث نفسه بأنه كان يعمل سائقا لعربة أجرة لعدة سنوات، وأنه تقاعد من العمل منذ ثلاث سنوات بسبب المرض، لكنه أوضح أنه رأى الإعلان في الصحيفة، وأنه ربما رأى الشخص المذكور في الإعلان قبل سنوات، اعتذر أنه لا يستطيع التحرك بسبب المرض، وطلب من بدر الدين أن يحضر لمقابلته، ثم وصف له كيف يصل إلى البيت، ارتدى بدر ملابسه بسرعة وغادر البيت دون أن يقول شيئا لأمه.

وجد الرجل المسن يعيش مع ابنته التي أصبحت تعتني به منذ وفاة أمها، حكى لبدر الدين أنه اضطر لترك بيته بسبب

إصابتــه بمــرض يعــوق حركتــه، وبســبب ســفر أبنائــه خــارج الوطــن اضطــر لــترك البيــت والعيــش مــع ابنتــه، كان أطفــال ابنتــه وأعمارهــم متقاربــة يثــيرون صخبــا مــن حــول جدهــم، الــذي كان يقــضي القيلولــة في فرانــدة البيــت، المطلــة عــلى الفنــاء الواســع بشــجرة النيــم التــي تتوســط الفنــاء، وشــجيرات ورد الحمــير بمحــاذاة ســور البيــت.

اذكــره تمامــا، أنــه يشــبهك كثــيرا لكنــه أطــول قليــلا، كان الوقــت مســاء، لكننــي لم أنــس وجهــه قــط رغــم أننــي لم أره ســوى لدقائــق معــدودة، لم أنــس تعبــير الدهشــة والمفاجــأة في وجهــه حــين اســتوقفه رجــال الأمــن!

تســاءل بــدر الديــن بلهفــة وخــوف: هــل اســتوقفه رجــال الأمــن؟ رغــم معرفتهــم بــأن شــقيقهم احتجــزه جهــاز الأمــن، لكــن كانــت تلــك هــي المــرة الأولى التــي يؤكــد فيهــا شــاهد عيــان حــدوث ذلــك.

قــال الرجــل: نعــم، أشــار لي شــقيقك وحــين توقفــت ســألني إن كان بإمــكاني نقلــه إلى البيــت، أعتقــد أنــه وصــف لي البيــت إن لم تخنــي الذاكــرة في مــكان مــا قريبــا مــن وســط الخرطــوم، بمجــرد أن فتــح بــاب العربــة ليركــب بجانبــي توقفــت عربــة بيضــاء صغــيرة، أنــا أعرفهــم جيــدا مــن طريقــة ظهورهــم ومــن نــوع العربــات التــي يســتقلونها، لم أســمع مــا قالــوه لشــقيقك لكــن مؤكــد أنهــم طلبــوا منــه مرافقتهــم، كنــت أعــرف أن شــقيقك لــن يذهــب معــي، ومــع ذلــك انتظــرت قليــلا أمــلا في أن يكــون هنــاك خطــأ مــا، لكــن أحدهــم طلــب منــي بســرعة أن اذهــب وأنهــم ســيقومون بأنفســهم بنقــل شــقيقك إلى البيــت، قــال لي ذلــك بلهجــة مــن يعــرف شــقيقك، كأنــه أراد أن يقــول لي إنــه صديقــه، لكــن لهجــة الأمــر كانــت واضحــة في وجهــه وحديثــه، قــدت الســيارة

بعيدا منهم لكنني تباطأت قليلا حتى رأيت سيارتهم تتجه شمالا، ربما ذهبوا إلى وسط الخرطوم أو إلى الخرطوم بحري، خطر لي في لحظة أن أتتبعهم، لكنني عرفت أنهم سيلاحظون ذلك بسرعة وسيعتقلونني بدون شك.

قال بدر الدين: ولم يقل لك أخي شيئا قبل أن يغادر معهم؟

قال العم الطريفي: لا، الحقيقة أنني منذ لحظة أن ناداه رجل الأمن لم أر وجهه مرة أخرى، حين كانوا يتحدثون معه قبل أن يستقل سيارتهم كان يعطيني ظهره، وكان الضوء خافتا نسبيا في الشارع فلم أعرف كيف تصرّف حين طلبوا منه أن يرافقهم، أنهم في العادة حسب ما علمت من كثيرين تم اعتقالهم في تلك الفترة، يطلبون منك مرافقتهم لوقت قصير لكن الوقت القصير يتحول إلى أشهر وأحيانا إلى سنوات.

قال بدر الدين: لقد نشرنا إعلانا في نفس تلك الأيام في إحدى الصحف اليومية، ألم تر ذلك الإعلان؟

تساءل الرجل: متى تم نشر الإعلان بالضبط؟

أوضح له بدر أن ذلك كان بعد حوالي الشهر من حادث الاختفاء.

كان الرجل يبذل جهدا ليتذكر، قال لقد سافرت إلى مصر في تلك الفترة، كنت مريضا أرسل لي ابني تذكرة سفر، قضيت في مصر ثلاثة أشهر، ربما نُشر الإعلان في تلك الفترة، لم أكن أتابع الصحف كثيرا، ولولا أن زوج ابنتي يقرأ الصحف الرياضية ويحضرها إلى البيت بانتظام ما كنت لاحظت الإعلان الأخير.

كانـت ذاكـرة الرجـل حديديـة، قـال كان شـقيقك يرتـدي قميصـا ازرقـا ونظـارة طبيـة، كانـت هنـاك حنـاء في يديـه، أعتقـد أنـه كان عـلى وشـك الـزواج إن لم تخنـي الذاكـرة!

أوضح بدر الدين: كانت تلك الليلة بالتحديد هي ليلة زفافه!

بـدت الصدمـة عـلى وجـه الرجـل: يـا للكارثـة! كيـف يحـدث ذلـك؟ هـؤلاء النـاس لا خلـق لهـم ولا ديـن! كيـف يعتقلـون رجـلا ليلـة زفافـه؟ ويختفـي لأكـثر مـن عـشرة أعـوام!

تساءل الرجل: هل حاولتم الاتصال بجهاز الأمن لسؤالهم عنه؟

قـال بـدر الديـن: رغـم أنـه لم يكـن لدينـا معلومـات عـن مـا حـدث تلـك الليلـة، فكرنـا في البدايـة في وقـوع حـادث حركة، لم نترك مستشـفى في العاصمـة أو قسـم شرطـة، لكـن لم نعـثر عـلى أيـة اثـر ولأن شـقيقي لم يكـن معروفـا بأيـة نشـاط ضـد النظـام لم نتوقـع في البدايـة أن يحتجـزه جهـاز الأمـن، سـافرت إلى بورتسـودان لأنّ شـخصا مجهـولا اتصـل بنـا، وذكـر أنـه التقـى شـقيقي في مينـاء بورتسـودان وهـو يقـوم بتخليـص سـيارة مـن جـمارك المينـاء، أعطانـا ذلـك بعـض الأمـل، أقنعني شـقيقي سـمير بالسـفر، قـال إنـه سـمع عبـد الرحيـم يقـول انـه قـام بشـحن سـيارة سـتصل الى مينـاء بورسـودان خـلال أيـام، قـال المتصـل المجهـول إن أخـي ربمـا اضطـر للسـفر فجـأة لأنـه اكتشـف أنّـه يجـب أن يقـوم بإكـمال إجـراءات إخـراج السـيارة مـن المينـاء بسرعـة، وإلا سـيضطر لدفـع غرامـة كبـيرة، لم يكـن ذلـك الـكلام مقنعـا لي، لكـن كـما يقولـون الغريـق يتعلـق بقشـة، تعلقنـا بقشـة احتـمال سـفره المفاجـئ رغـم أن الفكـرة لم تكـن منطقيـة، فحتـى إن كان سـيضطر لدفـع غرامـة

فهو لن يسافر في ليلة زفافه ودون أن يخطر أحدا، أحد أقربائنا كان يعمل مع جهاز الأمن في الفترة الديمقراطية، هو الذي نبّهنا إلى أنّ المتصل ربما يكون تابعا لجهاز الأمن، وهم يريدون فقط تشتيت مجهودنا، وإيهامنا أن شقيقنا اختفى لأسباب تخصه، وربما لا يكون راغبا في إتمام زواجه، كما فهمت خطيبته وأسرتها الأمر كذلك، ولابد ان رجال الأمن اتصلوا بهم أيضا وأوقعوهم في خطا اعتقاد أنّ شقيقي هرب ليلة زفافه!

كان قريبنا ذلك هو الذي أشار لنا الى ان شقيقي محتجز في جهاز الأمن، وقد بذل جهدا مضنيا عبر زملائه القدامى والذين لا زال بعضهم في الخدمة، لكنه فشل في الحصول على اية معلومة، عرف أنّ معظم الاعتقالات تتم من قبل أجهزة أمن أخرى تابعة لتنظيم الاخوان المسلمين، وأنّ معظم من تعتقلهم هذه الأجهزة يودعون في معتقلات سرية، يصعب على اية جهة أخرى، حتى الشرطة أن تصل اليها.

أوضح بدر الدين للعم الطريفي: قضيت في بورتسودان عدة أيام ابحث عن أخي دون جدوى، ولم أعثر حتى على ما يفيد أن هناك سيارة باسمه وصلت إلى الميناء. بعد عودتي اتصل شخص آخر وقال إنه شاهد أخي فاقدا للوعي من أثر شراب الخمور! في منطقة خارج العاصمة، قال إن رجلا يشبه صورة أخي المنشورة في الصحيفة، استوقفه ومعه ثلاثة أشخاص كانوا جميعا سكارى، وقد حسبهم في البداية فرقة موسيقية شعبية فقد كانوا يحملون معهم طبلة وكان أحدهم يعزف على آلة الطنبور، ويغني مقاطع من إحدى أغنيات التراث، قال إنهم طلبوا منه أن ينقلهم بسيارته

إلى منطقـة أخـرى بعيـدة، لكنـه اعتـذر لهـم لأنـه يجـب أن يعـود إلى البيـت بسـبب مـرض أحـد أبنائـه وأنـه يحمـل دواء لولـده عـثر عليـه بصعوبـة، وحسـب إرشـادات الطبيـب يجـب أن يتنـاول الصبـي المصاب بالأزمـة، الـدواء بسرعـة أو قـد تصبـح حياتـه في خطـر، لكنهـم حاولـوا إرغامـه عـلى نقلهـم بالقـوة، ولم يسـتطع التخلـص منهـم إلا بعـد ظهـور بعـض المـارة فـلاذ الرجـال الأربعـة بالفـرار!

ذهبـت إلى المنطقـة وقضيـت يومـا كامـلا ابحـث فيـه دون أن أجـد أيـة اثـر بـل إن رجـلا مسـنا أكـد لي أنـه يعيـش في هـذه المنطقـة منـذ حـوالي نصـف قـرن، ويعـرف كل شيء يحـدث فيهـا ويعـرف حتـى عابـري الطريـق الذيـن يشـقون المنطقـة في طريقهـم إلى أقـصى الشـمال، ويعـرف حتـى السـكارى الذيـن يرتـادون بعـض البيـوت في أطـراف المنطقـة تبـاع فيهـا الخمـور المحليـة، لكـن لم يحـدث قـط أن ظهـر شـخص ومعـه ثلاثـة أشـخاص آخريـن بالوصـف الـذي ذكرتـه! حـين ذلـك تأكدنـا أنّ جهـة مـا كانـت تريـد فقـط تضليلنـا عـن حقيقـة أنّ أخـي محتجـز لـدى إحـدى منظـمات السُـلطة.

13

شعر بأنه يمسك ببعض خيوط السُلطة، الشركاء الجدد حريصون على بقائه في الواجهة، لضمان ولاء الجيش إن حاول الجناح المُبعد من السلطة استخدام ميليشيات الحزب، لكنه يلاحظ بمرور الأيام أن لا فرق كبير بين الأجنحة المتصارعة داخل الحزب الإسلامي، تستمر عمليات بيع المؤسسات الحكومية، ويستمر ظهور الأجانب، رغم أنّ المؤتمرات ذات الصبغة الدينية بضيوفها من الجهاديين، تراجعت أمام جهاد تجاري، في نهاية الأسبوع خاطب مؤتمرا للاستثمار، دعت له الحكومة بعض رجال الإستثمار من الأجانب، تساءل مندهشا وهو يشير بأصبع يده إلى رجل ملتح يجلس في الصف الأول بين عدد من المستثمرين الأجانب: أليس هذا هو الرجل الذي قتل السادات؟

أُتهم بالمشاركة سيدي الرئيس، قضى سنوات في السجن ثم أطلق سراحه، ربما بسبب صغر سنه آنذاك لم يثبت عليه شيء!

سيدي الرئيس، اندلعت الحرب في إقليم دارفور!

النزاعات القبلية موجودة هناك منذ القدم، لكن الدولة كانت تتدخل للتوسط بين المتنازعين!

هذا تمرد كبير يدعمه جناح الحركة الإسلامية الآخر! الدولة لن تتدخل، الدولة ستستعين ببعض القبائل لضرب القبائل المتمردة!

الوحيد الذي اعترض على التصعيد كان رئيس هيئة أركان

القوات المسلحة: هناك سلاح كثير دخل إلى دارفور في فترة الحرب الليبية التشادية، بدلا من جمع ذلك السلاح نقوم الآن بتسليح قبائل ضد أخرى، ذلك أمر خطير للغاية، الدولة كانت دائما على مسافة واحدة في النزاعات التي تحدث بسبب المراعي والتي ازدادت حدتها في عقد الثمانينيات بسبب موجة الجفاف التي ضربت الإقليم. تسليح قبائل ضد أخرى يعني أن تنحاز الدولة إلى أحد أطراف الصراع، ما قد يعني اتساع دائرة الغبن واستمرار الصراع لعدة سنوات وقد يجر إليه أطرافا دولية بسبب حساسية المنطقة التي تجاور مناطق نفوذ لبعض الدول الكبرى في أفريقيا.

قال النائب الأول، رئيس الحزب وأمين الحركة: هناك جهات تريد فتح جبهات صراع جديدة، ما يعني مزيدا من الضغط على النظام، وللأسف تشير كثير من المعطيات إلى أن بعض إخواننا الإسلاميين متورطين في إشعال الصراع بعد انشقاق حزبنا!

قال وزير الدفاع: يجب وأد الفتنة في مهدها وإلا فإن النار ستتسع، ووجود جبهة صراع جديدة ستجعل حسم أي من الجبهتين أشبه بالمستحيل.

قال وزير الخارجية: بدأت تظهر على الإنترنت صور الأقمار الصناعية التي تظهر فيها القرى المحترقة، وهناك حديث في بعض نشرات الاخبار عن قوّات الجنجويد التي تقوم كما يقولون بتدمير القرى وتهجير الأهالي، وهناك حديث عن اختطاف أطفال واغتصاب نساء، أخشى إن طال أمد الحرب أن تستغل المعارضة وبعض الدوائر التي تدعمها القضية.

تحدث رئيس هيئة الأركان وكان واضحا أنه عسكري ينتمي

للجيش ولا علاقة له بالحركة الإسلامية، موجها كلامه لوزير الخارجية: هل كل ما يعنيك هو استغلال المعارضة أو الدوائر الأجنبية للحرب؟ ألا يجب أن تتحدث عن لجان تحقيق حكومية للتحقيق في تلك الانتهاكات؟ وماذا عن المواطنين الذين تعرضوا لتلك الانتهاكات؟ واضطروا للنزوح من قراهم ومزارعهم؟ ألا يجب أن تتحدث عن خطط أو مساع لتحقيق السلام وإبعاد الميليشيات القبلية عن الصراع؟

قال وزير الخارجية: لست سعيدا بالحرب أن كنت تظن ذلك، رغم أنني أشم رائحة المؤامرة الخارجية فيما يحدث في دارفور، لكن عموما الحديث عن لجان تحقيق لتحديد وقوع انتهاكات من عدمها لا يدخل في دائرة اختصاصي!

كان واضحا أنّ هناك صوت واحد في الاجتماع ضد التصعيد، حتى السيد الرئيس حسم أمره وأبدى تأييده لضرورة ضرب التمرد وحسم الحرب بسرعة.

بعد الاجتماع يعود إلى مخدعه الرئاسي، يجد زوجته أخلدت مبكرا إلى النوم، يبتلع قرصين من دواء الباراسيتامول لعلاج الصداع الذي يشعر به يطرق دماغه بعنف، لم يلاحظ في البداية وجود ورقة صغيرة في العلبة التي يحتفظ فيها بأدويته، حين أعاد علبة دواء باراسيتامول لاحظ الورقة، رسالة من سطر واحد: لا تتركهم يقيلون رئيس هيئة الأركان! يريدون تدمير الجيش وإقالته ستعني أن مُخطط التدمير يسير قدما!

لم يهتم بفحوى الرسالة، بقدر اهتمامه بكيفية معرفة خلية الجنرال عوف لتفاصيل اجتماع مجلس الوزراء، ربما لديهم علاقة

برئيس هيئة الأركان ويعرفون بخطه المعادي للحرب، ربما يكون رئيس هيئة الأركان نفسه عضوا في الخلية أو أنه كتب هذه الرسالة بنفسه!

فتح الراديو بجانب رأسه، وسحب الغطاء الخفيف فوق جسمه، كان أول خبر في نشرة الساعة الثالثة بعد الظهر: قرار جمهوري صادر باسمه شخصيا، رغم عدم علمه به، يقضي بإقالة السيد رئيس هيئة أركان القوّات المسلحة!

في اليوم التالي سأل سكرتيره عمن أصدر القرار الجمهوري بإقالة رئيس هيئة الأركان، قال السكرتير: صُدر القرار منكم يا صاحب الفخامة!

لكن فخامتي (قالها بسخرية) لم يصدر شيئا بالأمس، ألم نقض اليوم كله في اجتماع وزراء القطاع الأمني وقادة الأجهزة الأمنية والقوات المسلحة؟

قال السكرتير: قدّمت لك بنفسي عددا من القرارات لتضع توقيعك عليها، يبدو أنك كنت مشغولا جدا يا سيدي فلا تذكر تلك التفاصيل الصغيرة!

وهل إقالة قائد الجيش يدخل ضمن تلك التفاصيل الصغيرة؟

أقصد أن النقاش كان حادا في اجتماع الأمس، والتقارير المهمة من مناطق العمليات، كانت هي الطاغية على كل موضوع آخر!

ومن الذي أصدر توصية إقالة رئيس هيئة الأركان؟

السيد النائب الأول!

وأين السيد النائب الأول الان

حسب علمي أنه سافر لتفقد مناطق العمليات.

14

يشـعر أنـه يخـسر مكاسـب انشـقاق الحركـة الإسـلامية بنفـس السرعـة، لم يكـن آسـفا في واقعـة إعفـاء رئيـس هيئـة الأركان سـوى عـلى إصـدار القـرار الجمهـوري مـن وراء ظهـره.

كان يؤمـن أنّ التمـرد يجـب أن يواجـه بـكل الحـزم والقـوة، لكـن إقالـة الرجـل دون حتـى إبلاغـه بذلـك، كان يمثـل بدايـة سـيئة للثـورة التصحيحيـة كـما أسـمت بعـض الصحـف حركـة إقصـاء الحـرس القديـم في الحركـة الإسـلامية.

أصبـح يترقـب علبـة الـدواء بسـبب الغضـب والشـعور بالمهانـة، وجـد هـذه المـرة رسـالة طويلـة، دهـش حتـى إنـه خـشي في البدايـة أن يكـون أمـر المراسـلات السريـة قـد انكشـف، لكنـه لاحـظ أنّ الرسـالة بنفـس الخـط الـذي كُتبـت بـه الرسـائل السـابقة. كانـت الرسـالة أشـبه بتقريـر يكتبـه شـاهد عيـان، تحـدّث بالتفصيـل عـن الانتهـاكات الجسـيمة التـي تحـدث في دارفـور بدعـوى محاربـة التمـرد، وأنّ المدنيـين الأبريـاء هـم مـن يدفعـون الثمـن، ذكـرت الرسـالة بعـض أسـماء قـادة الميلشـيات الذيـن يعملـون بالتنسـيق مـع قـوات الجيـش والدفـاع الشـعبي، تقـوم طائـرات الأنتينـوف بإلقـاء البراميـل المتفجـرة فـوق القـرى فيهـرب الأهـالي خـارج القريـة حيـث تكـون المليشـيات في انتظارهـم، تقـوم الميلشـيات بإلقـاء الجثـث في آبـار المـاء، حتـى تجـبر مـن تمكنـوا مـن الفـرار مـن المجـزرة، عـلى عـدم العـودة لقراهـم.

ثـم تطرقـت الرسـالة لواقعـة إعـدام حاكـم الإقليـم المضطـرب

لبعض قادة التمرد، وأنه لم يشفع لبعض هؤلاء القادة أنهم كانوا جزءا من الحركة الإسلامية، بل إن أحدهم كان رئيس الخلية التي كان حاكم الإقليم عضوا فيها، كانت قوات الجنجويد قد نجحت في إلقاء القبض على بعض قادة إحدى حركات التمرد إثر هجومها المفاجئ وإحراقها لإحدى القرى، يبدو أنه كان هناك اجتماع لبعض القادة الذين لم يتوقعوا هجوما على تلك القرية.

كانت قوات الجنجويد تريد إعدامهم على الفور، حسب الأوامر الحكومية الصارمة بعدم الاحتفاظ بأية أسرى، لكن أحد قادتهم طلب منهم إرجاء تنفيذ الإعدام إلى اليوم التالي، قال لهم سيزور حاكم الإقليم المنطقة غدا وربما ترغب الحكومة في الإبقاء على هؤلاء الأسرى، فهم ليسوا محاربين عاديين بل قادة لحركة التمرد.

تفقد حاكم الإقليم والوفد المرافق له الأسرى في اليوم التالي، يقال أنّ الحاكم قال لأحد القادة وكان قائدا للحاكم أيام كان التنظيم في ذروة نشاطه: هذه نهاية الخيانة، يقال أنّ الأسير شتمه شتائم بذيئة كونه يعرف كل أسراره القديمة، وقال له: لو كنا نعرف أنّ الحركة الإسلامية سوف يرثها ساقط أخلاقيا مثلك، لما أسسنا هذه الحركة! لم يكتف بذلك بل بصق في وجه الحاكم حتى تدخل الحرّاس وأبعدوا الأسير، واعتدوا عليه بالضرب!

لم يرد عليه حاكم الإقليم، لكنه أعطى التعليمات في الخارج لقوات الجنجويد، لإعداد مأدبة الإعدام على الفور، ربطوا الأسرى وكانوا ستة من القادة مع بعضهم في دائرة ثم وضعوا فوقهم وحواليهم كميات كبيرة من الحطب والحشائش الجافة، وصبوا

فوقه كميات من البنزين، أشعل قائد الجنجويد عود ثقاب وأعطاه للحاكم الذي ألقاه فوق كومة الحطب!

التهمت النار الرهيبة الضحايا في ثوان قليلة، ولم يبق بعد لحظات سوى الرماد ورائحة الشواء الآدمي! كأننا في عهد محاكم التفتيش سيدي الرئيس!

ذكرت الرسالة تفاصيل أخرى عن حجم المجازر الرهيبة التي ترتكبها ميليشيات المؤتمر الوطني، وقوات الجنجويد بحق المدنيين، وإن هناك قرى بأكملها قد أحرقت ونزح آلاف المدنيين إلى خارج الحدود.

انتهت الرسالة إلى القول، يجب أن يكون هناك تحرك لسعادتكم، يجب أن تعيد رئيس هيئة الأركان الذي أحالوه للتقاعد، هو الوحيد الذي يستطيع استعادة دور الجيش ليقوم بحماية المدنيين، وإلا فإن المسئولية في النهاية ستقع على عاتق فخامتكم.

أصبحت نافذة خلية الجنرال عوف بالنسبة له مجرد قناة تصله عبرها أخبار تكون في العادة مغايرة للأخبار التي يبثها التلفزيون الرسمي، كان يعرف أن الخلية قد انتهت ولم يتبق منها ربما سوى هذا الشخص الذي يقوم بكتابة هذه التقارير، أكد له ذلك ملاحظته أنهم لا يلتزمون بإجراءات الأمن التي كانوا يقومون بها في السابق، حين يطلبون منه حرق الرسائل أو وضع إشارة تفيد بتلقيه للرسالة. عرف أنه لا معنى للحرص القديم من أجل حمايته وحمايتهم لأن الخلية التي أسسها الجنرال الراحل باتت في حكم العدم.

15

قال عاصم الحاج رئيس تحرير صحيفة الزمان المستقلة للصحفية الشابة التي انضمت مؤخرا لهيئة تحرير الصحيفة: هذا مقال صعب، ستكون عواقب نشره وخيمة! كان يحاول أن يجد لصحيفته موقعا في سوق التوزيع، وسوق الإعلانات الحكومية، يعرف بحكم خبرته مع التنظيم الذي كان عضوا فيه، أنه ما لم يرفع صوته قليلا بين الحين والآخر فلن يتذكره أحد في حمى البيع التي تجتاح الوطن، ما لم ينشر كل عدة أشهر مقالا ناريا، تهتز له دوائر السلطة الغارقة في فوضى اقتسام غنائم الوطن، فسوف يغرق في النسيان وتغرق صحيفته في الديون.

قبل سنوات كان شاهدا على اقتسام غنيمة الوطن، كان عضوا في لجنة تابعة للهيئة العامة للاستثمار، مهمتها الرسمية تشجيع الاستثمار وإعادة صياغة قوانين تشجع وتجذب المستثمرين، لكن عملها الفعلي كان توزيع الغنائم على منسوبي الحزب: هذه المؤسسة لك، بها ماكينات جديدة سنقيّم سعرها باعتبارها حديد خردة! هذا المشروع لك، ستدفع فقط قيمة التراكتورات والعربات وخط السكة الحديد الذي ينقل القطن باعتبارها كلها حديد خردة! إن سألوك يوما كيف حصلت عليه، هذه هي مستندات البيع عبر مزاد حكومي مستوف لكل الشروط، حقا أنك الوحيد الذي حضر المزاد، لكن لا مشكلة لقد أعلنا عنه في الصحف اليومية ولم يحضر أحد! فهل سنذهب لإحضار المستثمرين بالقوة

مـن بيوتهـم لـشراء المشـاريع الحكوميـة الخـاسرة؟!

وضـع رئيـس التحريـر نظارتـه جانبـا بعـد أن فـرغ مـن قـراءة المقـال وقـال للصحفيـة هاجـر السـناري الواقفـة أمامـه بثوبهـا الأبيـض تحـدّق فيـه بعينيهـا الجميلتـين، في انتظـار قـراره حـول مقالهـا: سـأنشره عـلى مسـئوليتي، لكـن يجـب أن نسـتعد للسـجن، لـو كنـت مكانـك سـأحضر حقيبـة ملابـسي معـي غـدا، تعليـمات الأمـن: دارفـور والجنجويـد وفسـاد حـزب النظـام خطـوط حمـراء، أنـت تجـاوزت في مقالـك الثلاثـة خطـوط حمـراء!، جرائـم الجنجويـد في دارفـور، وفسـاد رمـوز النظـام، إذا اسـتطعنا تمريـر المقـال سنكتسـب صدقيـة لـدى القـراء لكننـا سـنخسر الإعلانـات الحكوميـة، قـال بعـد تفكـير: اكتسـاب الصدقيـة لـدى القـراء لـن يفيدنـا في شيء إذا تعرضـت الصحيفـة للإفـلاس! اعتقـدت هاجـر أنـه بصـدد تغيـير موقفـه ولـن يوافـق عـلى نـشر المقـال، لكنـه كـرّر كلامـه: سـأنشره عـلى مسـئوليتي! وليرحمنـا اللـه!

الغريـب أنّ الرقيـب التابـع لجهـاز الأمـن الـذي يراجـع الصحيفـة قبـل الطبـع لم يعـترض عـلى المقـال، رغـم ذلـك لم يشـعر رئيـس التحريـر بالاطمئنـان، متوقعـا حـدوث شيء مـا في أيـة لحظـة، حتـى إن لم يلاحـظ الرقيـب المقـال، وصـدرت الصحيفـة فـإنّ ذلـك لـن يعنـي أنّ المشـكلة قـد انتهـت. لكنـه طـمأن نفسـه أنّ النظـام يمـرر أحيانـا جرعـة نقـد تتجـاوز بعـض خطوطـه الحمـراء، لمحاولـة تحسـين صورتـه أمـام منظـمات حقـوق الإنسـان، كـما أنـه لـن يكـون سـيئا أن يثـير المقـال بعـض الضجـة، ويرفـع قليـلا مـن توزيـع الصحيفـة.

أجـرى عاصـم الحـاج اتصـالا تليفونيـا بالمطبعـة فعـرف أنهـم بـدءوا

في طباعة الصحيفة، فقرّر أن يغادر إلى البيت ويتابع من هناك مع المطبعة إن حدثت أية مستجدات، لكنه كان مرهقا جدا فاستسلم للنوم فور وصوله إلى البيت.

استيقظ على رنين الهاتف فجرا، كانت الساعة حوالي الخامسة صباحا، بدا له صوت المتحدث غريبا، قبل أن يعرف أنه عبد العظيم المحرر المناوب تلك الليلة في الصحيفة. قال عبد العظيم لقد دمروا كل شيء! نحن في الطريق إلى المستشفى، اتصلت بأحد أصدقائي فحضر ونحن معه الآن في سيارته، كنت أنا الأكثر حظا أصبت بجرح في ذراعي لكن زميلي عبد الله تعرّض لإصابات كثيرة، الساعة الرابعة وصلت الصحيفة من المطبعة، لكن قبل خروجها للتوزيع، قام أشخاص مُلَثَّمُونَ بالهجوم على الصحيفة، ضربوا جميع من وقف في طريقهم، لحسن الحظ كان الوقت مبكرا لم يحضر معظم المحررين وحتى العدد القليل من المحررين الذين قضوا الليل في الصحيفة لإنجاز المراجعات النهائية قبل الطبع، كانوا قد غادروا الصحيفة قبل دقائق من الهجوم للحصول على بعض الراحة في بيوتهم قبل العودة لاستئناف العمل.

يبدو أنه كانت هناك جهة ما تراقب المبنى، ما أن وصلت السيارة القادمة من المطبعة وهي تحمل الصحيفة، حتى تم الهجوم، قاموا بتحطيم بعض الأثاث في استقبال الصحيفة، وأتلفوا السجّاد بأحذيتهم الملوثة بالوحل، استولوا على الصحيفة بالكامل، قبل أن يغادروا المكان.

حين وصل عاصم الحاج كان المبنى غارقا في الفوضى، اتصل بعدد من الجهات الحكومية ومجلس الصحافة الحكومي لمعرفة

الجهـة المسـئولة عـن الهجـوم، أنكـرت كل الجهـات التـي اتصل بهـا معرفتهـا بـه، بـل أنّ وزارة الإعـلام نـشرت بيانـا أدانـت فيـه الحـادث ودعـت الجهـات الأمنيـة إلى سرعـة التحقيـق وتحديـد الجنـاة، وأكـد البيـان عـلى أنّ احـترام حريـة التعبـير هـي سياسـة رسـمية لـن تحيـد الدولـة عنهـا.

لم يلاحـظ عاصـم الحـاج أنـه تجـاوز حـدوده كثـيرا وهـو يتحـدث إلى رئيـس جهـاز الأمـن، وأنـه سـيدفع غاليـا ثمـن مـا قالـه بعفويـة: لقـد أمسـكنا عـن النـشر الكثـير مـن الوثائـق التـي تكشـف أشـياء كثـيرة ستسـيئ كثـيرا إلى صـورة الحكومـة إذا عرفهـا النـاس! حـاول أن يتراجـع بعـد فـوات الأوان، أوضـح أنـه لا يقصـد التهديـد بـل يذّكـر فقـط بولائـه للنظـام وللحركـة الإسـلامية، قـال مديـر جهـاز الأمـن مختتـما الاتصـال: سـوف أبلغـك قريبـا بنتائـج التحقيـق حـول الجهـة التـي قامـت بالهجـوم.

لم تتعـرض هاجـر السـناري لأيـة مضايقـات طـوال عـدة أيـام بعـد نـشر المقـال، اسـتأنفت حياتهـا العاديـة، شـاركت بعـد أيـام في ورشـة عـن مسـتقبل الصحافـة الورقيـة في ظـل تنامـي دور الصحافـة الإلكترونيـة، بعـد نهايـة برنامـج اليـوم الثالـث والأخـير، قـرّرت أن تـزور إحـدى صديقاتهـا قبـل أن تعـود إلى البيـت، خاصـة أن العثـور عـلى مقعـد في حافلـة في الثالثـة بعـد الظهـر كان مـن المسـتحيلات، كانـت صديقتهـا تعمـل في شركـة قريبـا مـن شـارع النيـل، فجـأة وهـي تسـير عـلى قدميهـا توقفـت بجانبهـا عربـة مليئـة برجـال شرطـة النظـام العـام، طلـب منهـا أحـد رجـال الشرطـة أن تتوقـف، أشـار إلى بنطـال الجينـز الـذي ترتديـه وقـال لهـا: ألا تعرفـين أن ذلـك ممنـوع حسـب القانـون!

حاولـت الاعـتراض لكـن العسـكري صفعها عـلى وجهها وأمرهـا بالصعـود إلى العربـة، حاولـت أن تقـاوم لكنهـم دفعوهـا بالقـوة إلى داخـل السـيارة التـي انطلقـت بهـا. قضـت ليلـة كاملـة في سـجن النسـاء وفي اليـوم التـالي حكـم عليها قـاضي محكمـة النظـام العـام بالجلـد بسـبب ملابسـها غـير المحتشـمة، كـما جـاء في قـرار المحكمـة، كـما حكـم عليها القـاضي بغرامـة مالية وفي حالـة عـدم الدفـع تقـضي شـهرا في السـجن، رفضـت هاجـر دفـع الغرامـة فقامـت الشرطـة بترحيلهـا إلى السـجن.

16

لم يشعر النقيب عبدالله بالعيون الحذرة التي كانت تراقبه من على البعد وهو يتسلم حقيبة المستندات من زوجته ويسرع بها الى بيت اقربائه، لحسن الحظ وجد ابن عمه سعيد عبدالهادي يتأهب للخروج، أعطاه الحقيبة وأوضح له أنها تحوي مستندات مهمة يريد حفظها بعيدا عن العيون، أعطاه سعيد حقيبة اخرى ليضع فيها المستندات حتى يحمل الحقيبة الاخرى معه لتضليل أية شخص قد يكون تبعه.

سعيد كان ذاهبا الى مكان عمله، شعر أن المستندات التي تركها ابن عمه على درجة عالية من الأهمية، وأن البيت لن يكون المكان المناسب لحفظها، قرّر أن يأخذها معه الى ورشة إصلاح السيارات التي يعمل فيها، لن يفكر أحد في البحث عنها هناك، وللتمويه قرّر أن يحتفظ بصورة من المستندات في البيت، توقف أمام محل صغير لتصوير المستندات قريب من مكان عمله، وقام بعمل صور من كل المستندات، فكّر أنّ من الافضل أن يحتفظ بالصور في مكان عمله ويعيد الاصلية الى البيت حتى اذا عثر عليها شخص ما، لن يفكر ان صورة من هذه المستندات موجودة في مكان آخر، في طريق عودته الى البيت قرّر النقيب عبدالله أن ما اكتشفه من حقائق أثناء عمله مع لجنة التحقيق يكفي ليس فقط ليستقيل من عضوية الحركة الإسلامية، بل ليعتزل أية عمل سياسي مقررا ان يحاول الهجرة الى خارج الوطن ليبعد نفسه عن

تأثير الرفاق القدماء الذين خمّن أنهم لن يتركوه في حاله.

كانت المشكلة الآن هي نتائج لجنة التحقيق والمستندات التي جمعها أثناء التحقيق، توقّع أنهم سيحاولون الحصول عليها بعد أن تستقر أحوالهم بسبب التغييرات الجديدة والحرب الأهلية التي اندلعت في منطقة دارفور، حين عاد النقيب عبدالله الى البيت كانت زوجته قد خرجت لتعيد طفلهما الصغير من الحضانة، دُهش حين وجد باب البيت مفتوحا، لا بد أن زوجته كانت متعجلة جدا فلم تنتبه لإغلاق باب البيت، ما أن وطأت قدمه عتبة الباب حتى تسللت الى أنفه رائحة مألوفة: رائحة رفاقه القدامى!

عادت صفية زوجة النقيب عبدالله الى البيت مع طفلها الصغير، كان هشام لا يزال في الرابعة من عمره، يشبه والده بعيونه القلقة الغارقة في حواجب بارزة قليلا، عاد خلف والدته يحمل حقيبته الصغيرة، وجدت صفية باب البيت مفتوحا، اعتقدت ان عبدالله في الداخل وربما نسي إغلاق الباب، قطعت الفناء الصغير داخل البيت بخطوات سريعة لتفاجأ بمنظر البيت في الداخل مقلوبا رأسا على عقب، قماش الكراسي ممزق والملابس والاشياء التي كانت مرتبة في خزانة الخشب في غرفة النوم مكومة ارضا، حتى المطبخ كان مدمرا، والسجّاد في الغرف وفي الصالة مسحوب من مكانه وممزق، لم تجد لعبدالله اثرا، اتصلت بسرعة بشقيقها ساتي، كان واضحا أنّ من هاجموا البيت يبحثون عن شيء ما، لم يكن واضحا ان كانوا قد عثروا عليه أم لا، حتى الثلاجة قاموا بإفراغها أرضا، حتى المراتب والمخدات قاموا بتمزيقها بوحشية،

الصور المعلقة في الجدران قاموا بتحطيمها.

حاول ساتي أن يتصل بالنقيب عبدالله، لكن تليفونه النقّال كان مغلقا، فكّر في البداية أن يتصل ببعض اصدقائه ليحضروا لترتيب البيت وتنظيفه، لكنه تذكر أنّ كل شيء يجب أن يبق في مكانه حتى تفحص الشرطة المكان. قالت شقيقته صفية: نستدعي الشرطة! لكنّ الحكومة هي التي فعلت ذلك! دُهش ساتي قليلا حين سمع كلام أخته: الحكومة فعلت ذلك؟ ألا يعمل عبدالله في الحكومة؟ لماذا يفتشون بيته هكذا؟ شرحت له صفية الموقف: كنت أظن انك تعلم أنّ عبدالله يرفض العمل معهم منذ فترة، وقبل أسابيع استدعاه أمين الحزب وطلب منه عمل تحقيق، كان مشغولا به طوال الفترة الماضية، لم يقل شيئا عن ذلك التحقيق، لكن ربما كان ذلك هو السبب، كان يحمل صباح اليوم حين خرج كمية من الأوراق الهامة كما أخبرني وكان يريد إخفائها بعيدا عن البيت! فكّر ساتي قليلا، كان قد سمع أنّ هناك صراعات بين الأجهزة الأمنية وأجنحة حزب الاخوان المسلمين، حزب الحكومة، قال: الشرطة غالبا بعيدة عن الصراعات السياسية، في كل الاحوال ربما سُرق شيء ما، عليك بمراجعة أشيائك الغالية، وسأذهب أنا لعمل بلاغ لدى الشرطة.

دخلت صفية الى المطبخ محاولة ترتيب بعض الاشياء لتتمكن من اعداد الاكل لولديها، طلبت من عثمان أن يساعد هشام في تغيير ملابسه وأن يلعبا في الفناء تحت شجرة النيم حتى تعد لهما الاكل، حتى تلك اللحظة لم تشعر صفية بالقلق على عبدالله، لم تكن تعرف أنه كان موجودا في البيت لحظة الهجوم، كان من

عادتـه أن يرجـع الى البيـت متأخـرا، دون أن يفصـح في الغالـب عـن الأسـباب التـي تجعلـه يتأخـر خـارج البيـت.

عـاد سـاتي بعـد أن قـام بتسـجيل بـلاغ لـدى الشرطـة حـول الواقعة، عـثرت صفيـة عـلى النقـود التـي يحتفـظ بهـا زوجهـا في دولاب الملابـس، لكنهـا لم تعـثر عـلى صنـدوق صغـير تحتفـظ فيـه ببعـض مصاغهـا الذهبيـة التـي أهداهـا لهـا زوجهـا قبـل الـزواج، خمّنـت أنـه ربمـا يكـون مدفونـا تحـت ركام الأثـاث لكـن سـاتي اقـترح عليهـا ضرورة إبلاغ الشرطـة بذلـك، رغـم أنـه دهـش لأن مـن اقتحـم البيـت تـرك النقـود أرضـا، قـال مفكـرا: كانـوا يبحثـون عـن شيء آخـر! ربمـا سرقـة المصاغ لمجـرد الإيهـام أنهـم جـاءوا للسرقـة! لا بـد أنهـم يريـدون الأوراق التـي أخذهـا عبـد اللـه صباحـا!

اسـتطاعت صفيـة أن تعـد مـن ركام المطبـخ وجبـة خفيفـة، أكلـت مـع شـقيقها ووالديهـا. حـين بـدأ المسـاء يرخـي سـدوله شـعرت للمـرة الأولى ببعـض القلـق عـلى عبـد اللـه، كان تليفونـه لا يـزال مغلقـا، حـاول سـاتي أن يطمئنهـا، بالقـول إنهـم لـو عـثروا عليـه لمـا احتاجـوا للحضـور إلى هنـا وتدمـير البيـت بحثـا عـن تلـك المسـتندات.

كان حديثـه يبـدو منطقيـا، أصرّ شـقيقها أن يبـق معهـم لحـين ظهـور عبـد اللـه، بسـبب حـرارة الجـو وانقطـاع الكهربـاء مسـاء، قـام سـاتي بنقـل أسرة النـوم إلى الفنـاء، اسـتيقظ سـاتي عـلى صـوت أذان الفجـر، وجـد شـقيقته مسـتيقظة، اعتقـد في البدايـة أنهـا اسـتيقظت مثلـه عـلى صـوت الاذان لكنـه اكتشـف أنهـا لم تنـم مطلقـا، قالـت لـه: لم يظهـر عبـد اللـه حتـى الآن!

قال ساتي: لكنه فعل ذلك كثيرا، هل نسيت أنه كان يتصل بي أحيانا لأحضر لقضاء الليل معكم حتى يعود؟

قالت صفية: كان يتصل ليقول إنه سيتأخر، لكن ليس من عادته أن يتأخر دون أن يبلغنا، كما أنّ تليفونه مغلق حتى هذه اللحظة!

حاول ساتي أن يطمئنها، لا أظن أن هناك مشكلة، على كل حال سأقوم بمرافقة الأولاد إلى المدرسة، وأسجل بلاغا ثانيا لدى الشرطة إن لم يظهر حتى ذلك الوقت، لكن حسب علمي يكون غياب يوم واحد عاديا، ولا يمكن عمل بلاغ إلا بعد غياب ثلاثة أيام، من الأفضل أن نتريث قليلا، ألا يمكنك البحث عن أية أرقام تليفونات لبعض زملائه؟

17

خرجت هاجر السناري من السجن بعد أن قضت عقوبة الشهر التي حكم بها عليها، بخلاف والدتها لم يزرها أحد طوال فترة سجنها سوى عاصم الحاج الذي زارها مرة واحدة في الأسبوع الأول، ورغم أنه وعدها أن يكرر الزيارة كل أسبوع لكنها لم تره مرة أخرى، خارج السجن لم يكن هناك أحد في انتظارها سوى والدتها، توقعت أن تجد خطيبها أو بعض زملائها في العمل، لكن لم يكن هناك أحد.

في اليوم التالي قرّرت أن تذهب إلى الصحيفة، شعرت أن الأمور لا تسير بصورة جيدة، توقعت أن يكون مالك الصحيفة قد تعرّض لضغوط للاستغناء عنها، لكنها قرّرت الذهاب على الأقل لتحاول معرفة ما حدث أثناء فترة غيابها.

طلب منها موظف الاستقبال أن تلتقي مدير شئون المستخدمين حسب تعليمات إدارة الصحيفة، كانت تلك إشارة سيئة، سألت إن كان بإمكانها مقابلة رئيس التحرير، فأبلغها موظف الاستقبال أنّ السيد عاصم الحاج في مهمة خارجية.

أبلغها مدير شئون المستخدمين، أنها فقدت وظيفتها في الصحيفة بسبب الظروف المالية التي تمر بها الصحيفة، وأنها ليست الوحيدة التي تم الاستغناء عنها، تحدّث الرجل الذي كان واضحا أنه لا يدين بالولاء لحزب الحكومة، عن احتكار الحكومة لسوق الإعلانات وقصره على الصحف الموالية لها أو التي تخدم

خطهـا، وأنّ اسـتمرار هـذا الوضـع سـيؤدي إلى توقـف كل الصحـف المسـتقلة.

طلـب منهـا وضـع توقيعهـا عـلى بعـض الأوراق حتـى يتمكـن بسرعـة مـن إنجـاز معامـلات الحصـول عـلى بقيـة مسـتحقاتها الماليـة ووعدهـا بالاتصـال بهـا قريبـا لتسـليمها تلـك المسـتحقات.

خرجـت مـن مبنـى الصحيفـة إلى الشـارع، كانـت تشـعر بالارتبـاك، رغـم توقعهـا في أيـة لحظـة أن تطـرد مـن وظيفتهـا أو حتـى أن يتـم إغـلاق الصحيفـة بقـرار مـن جهـاز الأمـن والمخابـرات كـما يحـدث كثـيرا، لكنهـا شـعرت كأنهـا لم تكـن مهيئـة لذلـك أبـدا، كان أقـصى مـا توقعتـه أن يتصـل بهـا جهـاز الأمـن لإبلاغهـا منعهـا مـن الكتابـة في الصحـف كـما حـدث لبعـض زملائهـا.

قـررت العـودة إلى البيـت لتسـتريح قليـلا قبـل أن تبـدأ في الغـد مـن جديـد رحلـة البحـث عـن عمـل، وجـدت في تليفونهـا النقـال أنّ أحدهـم اتصـل بهـا، كانـت قـد وضعـت الجهـاز في وضـع الصامـت حـين ذهبـت لمقابلـة مديـر شـئون المسـتخدمين في الصحيفـة، لم تجـد رقـم الشـخص الـذي اتصـل بهـا، اعتقـدت أنـه ربمـا كان خطيبهـا بـدر الديـن الـذي لم تسـمع صوتـه منـذ صـدور الحكـم عليهـا.

حاولـت الاتصـال بـه عـدة مـرات لكنـه كان دائمـا مشـغولا، بسـبب طبيعـة عملـه مـع شركـة تقـوم بتسـويق الصمـغ العـربي يسـافر كثـيرا، رجّحـت أنـه ربمـا كان مسـافرا وتوقفـت عـن محاولـة الاتصـال بـه، رغـم أنهـا كانـت تشـعر أنّ حكـم محكمـة النظـام العـام لم يثمـر فقـط عـن خسـارة وظيفتهـا بـل أيضـا خطيبهـا، الكثـيرون يؤمنـون أنّ قانـون

النظام العام وضع لإذلال المواطن وخاصة النساء، لكن برغم ذلك حين تدين محاكم القانون سيئ السمعة فتاة أو امرأة ما، تنسحب إدانة تلك المحكمة على المدان في كل مكان، ينظر إليه الجميع باعتباره ارتكب فعلا مشينا.

التقت في الخارج بأحد زملاء الصحيفة، لاحظت أنه صافحها بعجلة، وهمس لها وهو ينطلق أنّ أحد زملائهم السابقين يخوض تجربة إصدار صحيفة جديدة، وعليها أن تبادر بالاتصال به، تركها دون تفاصيل كثيرة، شعرت أنّ مجرد تواجدها في مكان ما يحرج زملائها.

قررت أن تتصل ببعض زملائها بحثا عن رقم هاتف محمد نور الدين، دهشت في البداية لأنّ نور الدين كان لا يخفي معارضته للحكومة، وسبق له التعرض للاعتقال والإيقاف من الكتابة، لابد أنّ السلطة ستضعه في دائرة اهتمامها إن فكّر في إصدار صحيفة، وسيكون محظوظا إن استطاع الحصول على ترخيص لإصدار الصحيفة، وسيحتاج إلى معجزة إن أراد أن يجد لصحيفته مكانا في سوق الإعلانات، السوق الذي تسيطر عليه الحكومة عبر الشركات والمؤسسات التي باتت تسيطر على السوق ويتبع معظمها اما إلى جهاز الأمن والمخابرات، أو إلى أفراد في التنظيم الإخواني، بل أنّ جهاز الأمن والمخابرات كان يحدد حتى للشركات القليلة خارج مظلة الحكومة ومنسوبيها، لمن يجب إعطاء الإعلانات ومن الذي يجب منعه.

بعكس من التقتهم من زملائها منذ خروجها من المعتقل، رحّب بها محمد نور الدين ترحيبا شديدا حين اتصلت به،

واعتذر أنه كان يجب أن يزورها في فترة سجنها لولا وجوده خارج الوطن لبضعة أسابيع، وأنه كتب مقالا انتقد فيه قانون النظام العام، وتحدث عن واقعة القبض عليها من قبل تلك القوات، وأرسله لإحدى الصحف، لكن المقال للأسف لم ير النور بسبب مقص الرقيب، لكنه نشره في بعض المواقع الإلكترونية.

وبدون أن تطلب منه شيئا أخبرها أنه يضع اللمسات الأخيرة على إصدار صحيفته، وأنه سيتصل بها خلال أيام لتحضر للصحيفة لتوقيع عقد العمل معهم.

بقيت لها زيارة أخيرة مهمة قبل العودة إلى البيت، الساعة تشير إلى الثانية بعد الظهر، توقعت أن تجد بعض المشاكل في المواصلات في طريق العودة، فكّرت في تأجيل الزيارة لكنها قرّرت أن الأمر لم يعد يحتمل التأجيل.

قررت أن تسير على قدميها، المكان الذي تقصده ليس بعيدا عن وسط المدينة. أبلغها موظف الاستقبال أنّ بدر الدين موجود لكنه في اجتماع ربما لن يستغرق وقتا طويلا، أخبرته أنها ستبقى في انتظاره، كان البهو الذي يقع فيه مكتب الاستقبال نظيفا بصورة لافتة، بقيت تراقب الأشخاص الذين كانوا يعبرون من أمامها، في عجلة لا تعرف لماذا شعرت بأنها عجلة زائفة.

انتظرت لأكثر من ساعة، استعرضت خلالها علاقتها مع بدر الدين التي بدأت بصدفة تحقيق صحفي حول المشاكل التي تواجه إنتاج الصمغ العربي، ومشاكل تصديره بسبب العقوبات الأمريكية، كانت قد حصلت على رقم تليفونه ليساعدها بحكم عمله في إكمال التحقيق. بعد أن أكملت تحقيقها فوجئت به يتصل بها

عـدة مـرات، ثـم التقيـا في أماكـن عامـة قبـل أن تحسـم أمرهـا وتوافـق عـلى طلبـه بالـزواج، لاحظـت منـذ البدايـة أنـه كان متعجـلا، وأنـه يتخـذ معظـم قراراتـه ببسـاطة ودون تفكـير، نشـأت هـي في كنـف أب كان يفكـر عـدة مـرّات قبـل اتخـاذ قـرار حتـى في بعـض الأشـياء البسـيطة، علّمهـا الصـبر وتمحيـص كل شيء.

لكـن البسـاطة الفوضويـة في بـدر الديـن كان أكـثر مـا أعجبهـا فيـه، كأنهـا كانـت تنتقـم لذلـك الانضبـاط اليومـي الـذي أغرقـت فيـه حياتهـا منـذ طفولتهـا، عنـد بـدر الديـن لم تكـن هنـاك مشـكلة في العـالم لا يمكـن حلهـا، رغـم أنـه كان يبـدو وكأنـه يصنـع مزيـدا مـن المشـاكل حـين يحـاول إيجـاد حـل لمشـكلة مـا بطريقـة لامبالاتـه المتعجلـة.

كان موظـف الاسـتقبال مشـغولا مـع عـدد مـن الأشـخاص ذهبـت إليـه بعـد قليـل، كان قـد نـسي سـبب وجودهـا في المـكان، لاحظـت أنـه دهـش قليـلا حـين قالـت لـه إنهـا بانتظـار بـدر الديـن، قـال: غريـب انتهـى الاجتـماع منـذ أكـثر مـن نصـف سـاعة وأخبرتـه أنـك في انتظـاره في الاسـتقبال، وقـال إنـه سـيحضر خـلال دقائـق، طلـب منهـا أن تبـق في مكانهـا وسـيذهب للسـؤال عنـه، عـاد بعـد قليـل ليخبرهـا أنـه عـرف أن بـدر الديـن خـرج مـن المبنـى، قـال مندهشـا: لابـد إنـه اسـتخدم البـاب الخلفـي لم أره يخـرج مـن هنـا!

فكّـرت هاجـر قليـلا، بـدت لهـا الأمـور واضحـة بمـا يكفـي لإعـادة وضعهـا في نصابهـا الصحيـح، طلبـت مـن موظـف الاسـتقبال مظروفـا فارغـا، أعطاهـا واحـدا مطبـوع عليـه شـعار الشركـة وعنوانهـا، كتبـت اسـمه عـلى المظـروف ووضعـت داخلـه خاتـم الخطوبـة وتركتـه لـدى موظـف الاسـتقبال.

18

مـرّت أكـثر مـن سـتة أشـهر عـلى اختفـاء النقيـب عبـد اللـه، دون أن يظهـر لـه أيـة أثـر، بعـد شـهر مـن الواقعـة اضطـرت صفيـة لإغـلاق بيتهـا مؤقتـا تحـت ضغـوط أسرتهـا وعـادت لتسـكن في بيـت والديهـا، لم تعـرف في البدايـة كيـف تـبرر لطفليهـا غيـاب والدهـم، جـاء بعـض رجـال الشرطـة وفحصـوا المـكان، كان واضحـا أنهـم يقومـون فقـط بمـا يتطلبـه الموقـف في الأحـوال العاديـة وحتـى لا يتهمهـم أحدهـم بالإهـمال أو التواطـؤ.

كان عـلى رأس قـوة الشرطـة ضابـط برتبـة مـلازم كان يبدو متحمسـا قليـلا، كان شـابا لطيفـا يرتسـم عـلى وجهـه الجـاد شـبح ابتسـامة خفيفـة، تعطيـه مظهـرا طفوليـا سـعيدا، يـزداد وضوحـا كلـما ضاقـت عينيـه بفضـل اسـتغراقه في التفكـير وكلـما سـقط الضـوء عـلى أنفـه الصغـير الـذي يطـل مـن فـوق شـارب خفيـف، يـكاد يحيـط بفمـه الصغـير، سـألهم عـن آخـر مـرة شـوهد فيهـا النقيـب عبـد اللـه وإن كان لديـه أيـة أعـداء، وإن كان معتـادا عـلى الغيـاب لفـترات طويلـة مـن البيـت، ثـم اسـتدعى عـددا مـن الجـيران لسـؤالهم عـن المـرة الأخـيرة التـي شـاهدوا فيهـا النقيـب عبـد اللـه.

فحـص ركام الأثـاث المبعـثر بحثـا عـن شيء لا يسـتطيع تحديـده، أخـرج تليفونـه الجـوّال والتقـط بعـض الصـور للبيـت ولأكـوام الملابـس والأثـاث، كان يبـدو عـلى وجهـه الطفـولي أنـه يتحـرك في المـكان فقـط بدافـع الفضـول وليـس بدافـع إيجـاد حـل للغـز الرجـل المختفـي،

والتفتيش الدقيق للبيت لدرجة اقتلاع ألواح السقف وتقليم فروع شجرة النيم في الفناء، قال وهو يحاول إخفاء فضوله الطيب، في نبرة الاستجواب الرسمية: هل كان يخفي شيئا مهما في البيت؟

قالت صفية: ماذا تقصد بشيء مهم؟

بدا على الملازم وكأنه فوجئ بالسؤال، تراجع إلى الخلف قليلا، كأنما تلك الخطوة ستفسر سؤاله، ثم قال وكأنه يوضح شيئا آخر لا علاقة له بسؤاله الأول: مقتنيات ثمينة، نقود مثلا أو ذهب؟

النقود عثرنا عليها كلها رغم أن كل من يفتح دولاب الملابس يرى النقود بوضوح، هناك مصاغ ذهبية قليلة في صندوق صغير لم أعثر عليها لكنها ربما كانت مدفونة تحت الملابس وبقية الأشياء في الأرض، ولو فرضنا أنهم أخذوها هل يعقل أن كل هذا المجهود للحصول على قطعة مصاغ لا تساوي الكثير، ويتركون النقود وهي تساوي أضعاف قيمة المصوغات الذهبية!

كاد الضابط أن يبدي موافقته لتوضيحها، لكنه تذكر أنه هو المحقق وليس صاحب البيت، هو من يجب أن يقرر لماذا ترك اللص بعض الأشياء الثمينة وسرق بعض الأشياء الأخرى، بعض اللصوص يتسمون بغرابة الأطوار، لقد مرّت عليه قضية مشابهة قبل فترة، لص تمكن من اقتحام أحد المنازل، سرق بعض التليفونات النقالة والساعات وترك الجواهر ربما لاعتقاده أنها جواهر مزيفة مصنوعة في الصين!

لم تستطع صفية أن تفهم إن كان الرجل لا يريد ربط الواقعة بأحد الأجهزة الرسمية التابعة للسلطة، أم أنه كان يتعمد تمويه

القضيـة والتعامـل معهـا عـلى أنهـا مجـرد سرقـة بيـت قـام بهـا بعـض لصـوص المنـازل.

تساءلت صفية ببراءة: هل ستقومون برفع البصمات؟

ردّ المـلازم بعـد لحظـة صمـت حـاول فيهـا مـداراة بريـق المفاجـأة في وجهـه: لمـاذا سـنفعل ذلـك؟ انتبـه عندئـذ لـرده غـير الـذكي، قـال: بالطبـع سـنفعل ذلـك، سـيحضر فريـق مـن المعمـل الجنـائي، نظـر إلى ساعته وقـال: ربمـا بعـد قليـل، حـاول إغـلاق القضيـة: سـيكفينا بقيـة اليـوم لجمـع كل الأدلـة، يمكنكـم مـن الغـد إعـادة ترتيـب البيـت.

ثـم خاطـب شـقيق صفيـة: أرجـو أن تعطينـي رقـم هاتفـك سـأتصل بـك خـلال أيـام إذا مـا وصلنـا إلى أيـة معلومـات جديـدة، يمكنـك الحضـور في نهايـة اليـوم لاسـتلام مفتـاح البيـت، ثـم قـال بصـوت أقـرب للهمـس، لـو أمكـن أن تأخـذ معـك الآن شـقيقتك وأطفالهـا حتـى يمكننـا أن نكمـل عملنـا في هـدوء! نحتـاج لإعـادة فحـص وتفتيـش البيـت بحثـا عـن آثـار محتملـة للفاعـل، طبيعـة عمـل صاحـب البيـت تقتـضي منـه الغيـاب عـن البيـت حسـب مـا فهمـت مـن زوجتـه، سـنقوم بالانتظـار حتـى الغـد إن لم يرجـع أرجـو أن تتصـل بي لنقـوم بعمـل التحريـات اللازمـة ونراجـع المستشـفيات.

بعـد سـتة أشـهر عـلى الواقعـة بقـي الوضـع عـلى حالـه، لم يظهـر النقيـب عبـد اللـه، ولم تفلـح كل محـاولات العثـور عليـه، نـشروا إعلانـا مـع صورتـه في الصحـف اليوميـة، وبحثـوا في كل مـكان يحتمـل ذهابـه إليـه دون جـدوى، تذكـرت صفيـة، ابـن عـم زوجهـا سـعيد الـذي ربمـا كان آخـر شـخص يلتقيـه زوجهـا قبـل اختفائـه.

حين طرقت باب البيت فتح لها الباب أحد زملاء سعيد في السكن، كان رجلا يبدو في الخمسين من عمره، وعرفت من منظر العمامة الضخمة على رأسه، أنه ربما كان خارجا أو عاد للتو من الخارج، قال لها الرجل بحذر أن سعيد غير موجود، سألته متى سيعود إلى البيت، فتردد قليلا قبل أن يقول إنه لا يعلم، شعرت أنه يخفي شيئا ما، فأوضحت أنها زوجة النقيب عبد الله ابن عم سعيد وأنّ زوجها مختف من فترة وكان سعيد هو آخر شخص يلتقيه قبل اختفائه.

تغيرت لهجة الرجل على الفور ورحّب بها كثيرا، رغم أنه كان ينظر من خلف صفية في خوف واضح وكأنه كان يخشى ظهور شخص ما، دعاها للدخول إلى البيت، جلست على مقعد قديم في الفناء الصغير جوار شجرة الحناء، كان بيتا قديما يحيط سور من الطوب الأحمر بالفناء، وجدران البيت متشققة ربما بفعل المطر، وقد تآكل طلائها منذ أمد بعيد، أحضر لها الرجل كوب شاي واعتذر أنّ زوجته وابنه خرجا لمقابلة الطبيب، دهشت لسماع ذلك وقالت له إنها كانت تعتقد أنّ البيت يسكنه عدد من الشباب اَلْعَذَاب، رد عليها أنّ ذلك صحيح وأنه قريب لأحد هؤلاء الشباب وجاء في زيارة قصيرة للعاصمة لتقابل زوجته الطبيب، وسيعودون في الغد إلى قريتهم في منطقة مشروع الجزيرة.

حكى لها أنه لا يعرف بالضبط ما حدث لسعيد، لكنه بعد وصوله إلى العاصمة قبل أيام لم يجد سعيد في البيت، وهو كان يعرفه بحكم زياراته المتقطعة للعاصمة حيث اعتاد أن يقيم أثناء زياراته القصيرة معهم، وأنه سأل ابن أخته عن سعيد فأخبره

أنّ رجـال الأمـن داهمـوا البيـت قبـل فـترة، وقلبـوه رأسـا عـلى عقـب وصـادروا بعـض المسـتندات التـي عـثروا عليهـا مـع سـعيد، وأخـذوه معهـم، وأنهـم حاولـوا الذهـاب إلى مبنـى جهـاز الأمـن للسـؤال عنـه، لكـن أحـدا هنـاك لم يدلهـم عـلى أيـة شيء عنـه، بـل أنهـم أنكـروا أنـه محتجـز لديهـم، واضطـروا للمغـادرة بعـد أن هددوهـم بالاعتقـال إن لم يغـادروا المـكان.

بعـد معرفتهـا باعتقـال سـعيد باتـت صفيـة عـلى يقـين أنّ زوجهـا مختطـف مـن قبـل الأجهـزة الأمنيـة، اتصلـت بمحـام مـن أقربائهـا، حـدّد لهـا موعـدا لزيارتـه في مكتبـه، حـاول أن يطمئنهـا في البدايـة أنّ زوجهـا سـيعود، وأنـه مـا دامـت الأجهـزة الأمنيـة حصلـت عـلى المسـتندات فلـن يكـون هنـاك داع لاحتجـازه، لكنهـا ذكّرتـه بحـالات الاختفـاء الكثـيرة المتهـم بهـا جهـاز الأمـن، كـما أوضحـت لـه أنهـا تعتقـد أنّ زوجهـا يعـرف معلومـات كثـيرة بحكـم طبيعـة عملـه السـابق وكذلـك مـن خـلال عملـه مـع لجنـة التحقيـق في محاولـة اغتيـال الرئيـس المـصري في أديـس أبابـا، وربمـا تكـون المعلومـات التـي يعرفهـا زوجهـا أخطـر حتـى مـن المسـتندات التـي حصلـوا عليهـا.

بـدا القلـق عـلى وجـه المحامـي واقـترح عليهـا أن تحـاول الاتصـال بعـدد مـن رجـال الحـزب الإسـلامي الذيـن يعرفـون زوجهـا، قالـت صفيـة إنـه حسـب علمهـا فـإن معظـم معـارف زوجهـا هـم الآن خـارج السـلطة، أوضـح المحامـي أنهـم جميعـا إسـلاميون مـن هـم في السـلطة ومـن طـردوا منهـا، وأنّ العلاقـات الشـخصية تلعـب دورا مهـما في مثـل هـذه الظـروف، طلـب منهـا أن تحـاول وإن لم تنجـح المحاولـة، فيمكنـه أن يسـاعدها في كتابـة عريضـة ترسـلها إلى مفوضيـة حقـوق الإنسـان

التابعـة للأمـم المتحـدة، أوضـح لهـا أنّ مجـرد ورود اسـمه في تقاريـر حقـوق الإنسـان وأنـه معتقـل دون أن تعـرف أسرتـه مكانـه سـيكون ضمانـا لعـدم تعرُّضـه لـلأذى.

عـادت صفيـة إلى بيتهـا برفقـة شـقيقها، بحثـت في متعلقـات زوجهـا التـي نجـت مـن المصـادرة وعـثرت عـلى دفـتر صغـير بـه عـدد مـن أرقـام التليفونـات، لم تجـد أي مـن أسـماء زمـلاء زوجهـا الذيـن كانـت تعرفهـم بحكـم زياراتهـم إلى زوجهـا.

بـدأت تتصـل بالأرقـام عشـوائيا، أول رقـم حاولـت الاتصـال بـه، ردّ عليهـا بسرعـة لكنهـا حـين عرّفـت نفسـها، لاحظـت مـا يشـبه ارتبـاكا في صـوت الرجـل الـذي وعدهـا بمعـاودة الاتصـال بهـا بسـبب انشـغاله في تلـك اللحظـة، حاولـت رقـما آخـر، لم تجـد ردا، حاولـت رقـما ثالثـا، سـمعت صوتـا عميقـا كأنـه يتحـدث مـن عـالم آخـر، حـين أوضحـت لـه أنهـا زوجـة النقيـب عبـد اللـه رحّـب بهـا بشـدة، وقـال إنـه علـم بمـا حـدث لـه وتسـاءل إن كان هنـاك جديـد في قضيتـه، أوضـح لهـا أنهـما عمـلا سـويا قبـل سـنوات لكنـه تـرك الوظيفـة منـذ فـترة، قـال بعـد فـترة صمـت أنـه ليسـت لـه اتصـالات مـع نافذيـن في النظـام يمكـن أن يفيـدوا في هـذه القضيـة، لكنـه سيسـأل مسـاعدة زملائـه السـابقين الذيـن لا زالـوا في الخدمـة، ووعدهـا بالاتصـال بهـا قريبـا.

واصلـت الاتصـال بالأرقـام التـي عـثرت عليهـا بالترتيـب، الرقـم التـالي أغلـق الخـط مجـرد أن عرّفـت عـن نفسـها.

19

كانـت السـاعة الثانيـة عـشرة منتصـف النهـار والعـالم عـلى وشـك الذوبـان في القيـظ، حـين ترجّـل عاصـم الحـاج مـن سـيارته أمـام جهـاز الأمـن والمخابـرات، قبـل يومـين تلقـى طلـب اسـتدعاء لجهـاز الأمـن، دون أيـة توضيـح حـول الغـرض مـن الاسـتدعاء، كان يشـعر ببعـض الخـوف والارتبـاك، في الأسـابيع الأخـيرة نفّـذ كل أوامرهـم بطـرد بعـض المحرريـن، آخرهـم كانـت الصحفيـة هاجـر السـناري، ونتيجـة تعاونـه فقـد سـمحوا لـه بالحصـول عـلى عـدد مـن الإعلانـات الحكوميـة، لـولا تلـك الإعلانـات كان عـلى وشـك إعـلان إفـلاس الصحيفـة، فقـد تراجعـت مبيعاتهـا بعـد أن اضطـر للتخـلي مـن عـدد مـن الصحفيـين الذيـن كانـوا لا يـترددون في توجيـه سـهام نقدهـم إلى النظـام ورمـوزه، أصبحـت صحيفتـه نسـخة مـن صحـف الحكومـة، حـين يتوقـف نقـد الحكومـة تزدهـر صفحـات الصحيفـة بالإعلانـات.

أعطـى ورقـة الاسـتدعاء لموظـف الاسـتقبال، حـين حـان دوره، نظـر فيهـا وأدار قـرص الهاتـف أمامـه، تكلـم بصـوت هامـس لم يتبـين رئيـس التحريـر مـا قـال الرجـل الـذي وضـع سـماعة الهاتـف وطلـب منـه الجلـوس وأن أحدهـم سـيحضر لاصطحابـه، لم يكـد يجلـس جيـدا في مقعـده حتـى وقـف أمامـه شـاب فـارع الطـول، يرتـدي قميصـا مـن قـماش قطنـي سـميك يشـبه قـماش الدمّـور المصنـوع يدويـا، وطلـب منـه بتهذيـب شـديد أن يتبعـه، كان يعتقـد أن المقابلـة سـتكون مـع أحـد ضبـاط الجهـاز لكنـه وجـد نفسـه أمـام مديـر جهـاز الأمـن والمخابـرات نفسـه!

رحّب به الرجل ترحيبا شديدا وطلب من الشاب الذي رافقه أن يحضر لهم كوبين من القهوة، كان الرجل يهز باستمرار رأسه الصغير الذي لم يكن متناسبا مع جسمه الضخم، عيناه باردتان مثل عيون سمكة ميتة، تختبئان خلف نظارة طبية سميكة، تجلس فوق أنف ضخم، تعطيه النظارة الطبية إضافة للشيب فوق رأسه نصف الأصلع، وقارا علميا طيبا.

تحدثا في أمور عامة، حول مستقبل الحركة الإسلامية بعد الانشقاق، حول اتفاقية السلام مع الجنوب، حول الحرب في دارفور، كان الحديث عاما، يدور بحذر حول نفس التوجيهات الحكومية التي يتسلمها رؤساء تحرير الصحف حول الخطوط الحمراء التي لا يجب تجاوزها، في تناول قضايا الحرب والأزمات والأوبئة.

فجأة سحب رئيس المخابرات مظروفا ضخما ووضعه أمام ضيفه، نظر عاصم الحاج إلى الظرف وهز رأسه كأنه لا يفهم شيئا، قال رئيس جهاز الأمن: هذه أتعاب خدمة صغيرة أطلبها منك!

لم يمد عاصم الحاج يده نحو الظرف، لكنه قال بتردد خائف: نحن في خدمة أمننا الوطني.

عاد رئيس الجهاز ليكمل كلامه حول اتفاقية السلام، وسأل رئيس التحرير سؤالا مفاجئا: من قراءتك للأحداث هل تعتقد أنّ أهل الجنوب سيختارون الوحدة أم الانفصال؟

حاول عاصم الحاج لملمة مظاهر الذعر في وجهه، ففي كل كلمة يتفوه بها رئيس جهاز الأمن كان يتوقع شيئا عن كارثة المهمة التي يريد منه إنجازها، والمظروف الضخم المليء بالنقود يشير إلى جسامة المهمة.

قال رئيس التحرير بحذر معتقدا أنّ إجابته للسؤال ربما تحدد نوع المهمة التي يجب عليه القيام بها: لا يستطيع أحد التكهن بما سيدور، لكن الصحف القريبة من الحركة الإسلامية تبدو وكأنها تؤيد الانفصال! البعض يقولون أنّ الحركة الإسلامية تريد أن يُخفّف الغرب الضغط عليها، وسيكون انفصال الجنوب مهر علاقة جديدة تُلغى فيها العقوبات الاقتصادية، ويجد الإسلاميون اعترافا من الغرب بأن وجودهم في السلطة كفيل بسحب البساط من تحت أقدام الجماعات الأكثر تطرفا!

صمت رئيس الجهاز قليلا وقال كمن يؤيد وجهة نظر رئيس التحرير: تعتقد الحركة الإسلامية أنّ الجنوب كان عبئا دائما على الشمال، وحان الوقت للشمال لكي يتحرر من ذلك العبء!

شعر رئيس التحرير كأنّ كلام رئيس الجهاز هو توجيه رسمي لتتبنى صحيفته نفس الخط الرسمي في تأييد الانفصال، شعر ببعض الارتياح، أن كانت تلك المهمة فلن تكون صعبة على كل حال، كان رئيس التحرير يود أن يستفيض قليلا في الحديث رغم أنه لم يكن يملك موقفا محددا تجاه القضية، لكنه خشي أن تجعل أية كلمة يقولها مهمته تزداد تعقيدا.

انتظر رئيس جهاز الأمن أن يقول ضيفه شيئا وحين وجده آثر الصمت، قال: هل تحضر اجتماعات الحركة الإسلامية؟

قال رئيس التحرير: منذ سنوات لم تصلني أية دعوة للمشاركة في اجتماع! ولا أعرف إن كنت لا أزال عضوا فيها أم لا!

وكيف عرفت أنّ الحركة الإسلامية تفضّل خيار الانفصال؟

كما قلت من الخطوط العامة في الصحف القريبة من الحركة، من النشاط المتزايد لحزب الشمال القومي الذي يقوده إسلاميون، الحزب الشمالي الوحيد الذي يعلن تأييده لخيار الانفصال!

أطرق مدير الأمن مفكرا، كان صمته يثير مخاوف رئيس التحرير بشأن المهمة التي سيطلب منه تنفيذها، حاول أن يتقدم خطوة واحدة فقال: إن كان المطلوب حملة صحفية مؤيدة للانفصال يمكننا البدء في ذلك فورا!

تجاهل مدير الجهاز اقتراحه المراوغ وقال: ما رأيك فيما يحدث في دارفور!

استرسل رئيس التحرير حول وجود مؤامرة أجنبية تستهدف النظام ومشروعه الحضاري، لم يلاحظ حتى أنه كان يردد نفس الأطروحة الرسمية للنظام.

نظر رئيس الجهاز في ساعته وقال: سرقنا الوقت، للأسف لديّ موعد مهم أخشى أن أتأخر عليه.

لم يقل ولا كلمة واحدة حول المهمة، انتظر رئيس التحرير أن يقول له وهو يغادر المكتب أية شيء عن طبيعة المهمة أو أنهم سيستدعونه مرة أخرى، لكنّ المدير لم يقل شيئا، ودّعه حتى باب المكتب وعاد بسرعة إلى الداخل.

في الخارج وجد رئيس التحرير أنّ المظروف الضخم يحتوي على مبلغ مائة ألف دولار! طغت الفرحة بالنقود على الخوف من المهمة التي يجب أن ينفذها، والتي اقتنع الآن أنها أمر خطير يساوي الكثير دون أن يستطيع أن يحدد أن كانت تعني الكثير للوطن أم للسيد رئيس جهاز المخابرات.

20

في تلـك الأثنـاء كان سـعيد عبدالهـادي ابـن عـم النقيـب عبـد اللـه لا يـزال معتقـلا في أحـد البيـوت السريـة التابعـة لجهـاز الأمـن والمخابـرات، كان المـكان يعـج بالمعتقلـين، طُـلاب، شـيوعيون، وعـدد مـن النقابيـين والناشـطين مـع عـدد مـن الأحـزاب ومنظـمات المجتمـع المـدني، كان سـعيد يسـأل الجميـع عـن النقيـب عبـد اللـه أمـلا في أن يعـرف شـيئا عـن مصيره، كان قـد سـمع قبـل اعتقالـه أنّ النقيـب عبـد اللـه اختفـى في نفـس اليـوم الـذي قـام فيـه بتسـليمه المسـتندات.

يتعـرّض سـعيد لتعذيـب يومـي، رغـم أنهـم صـادروا المسـتندات التـي عـثروا عليهـا مخبـأة في البيـت، كان الضابـط في كل مـرة يسـأله أيـن توجـد صـور المسـتندات، وفي كل مـرة كان يؤكـد لهـم أنـه احتفـظ بهـا كـما أعطاهـا لـه النقيـب عبـد اللـه، وإنـه حتـى لم يكـن لديـه وقـت لرؤيـة هـذه المسـتندات أو تصويرهـا، وانّ ابـن عمـه طلـب منـه فقـط الاحتفـاظ بهـا وهـو نفّـذ طلبـه حرفيـا.

كان الضابـط يسـأله في كل مـرة: مـن قـام بفتـح الظـرف إذن؟ هـل قمـت بالاطـلاع عـلى هـذه الأوراق أو رآهـا شـخص آخـر؟

كان يقسـم في كل مـرة أنـه لم يكـن هنـاك وقـت حتـى لـيرى مـا بداخـل الظـرف وأنـه كان مفتوحـا حـين تسـلّمه مـن النقيـب عبـد اللـه.

قـال لـه ضابـط الأمـن: النقيـب عبـد اللـه كان ضابـط أمـن مـدرب، لابـد أنـه طلـب منـك عمـل نسـخة احتياطيـة مـن المسـتندات، هـو كان مراقبـا طـول الوقـت لذلـك لم يتمكـن مـن عمـل ذلـك، والمنطقـي

أنـه طلـب منـك ذلـك.

حاولـوا مـرة رشـوته، كانـوا قـد تركـوه طـوال الليـل واقفـا ويديـه إلى أعـلى حتـى كاد جسـده يتصلّـب، وكلـما غـزا التعـب والنعـاس عينيـه كان يحصـل عـلى دفعـة مـاء بـارد فـوق جسـمه، تجعـل جسـده يرتجـف مـن الـبرد والتعـب، في الصبـاح وهـو لا يـزال في حـال سـيئة مـن فـرط التعذيـب وإرهـاق عـدم النـوم، اسـتدعوه للتحقيـق معـه، عـرض عليـه المحقـق إطـلاق سراحـه فـورا والحصـول عـلى مكافـأة كبـيرة، إذا اقتنـع بالتعـاون معهـم.

أوضـح الضابـط: سـتحصل عـلى مكافـأة كبـيرة وسـنقوم بتعيينـك معنـا في الجهـاز! لدينـا شركات تعمـل في مجـالات متعـددة، إحـدى شركاتنـا تعمـل في مجـال صيانـة السـيارات يمكنـك أن تصبـح موظفـا كبـيرا في هـذه الشركـة، أو إذا كنـت تفضـل العمـل الحـر، يمكننـا إنشـاء شركـة لـك وسـتحصل عـلى إعفـاءات مـن الضرائـب والجـمارك لـكل قطـع الغيـار أو العربـات التـي تقـوم باسـتيرادها، فقـط سـلّمنا صـور المسـتندات، هـذه المسـتندات تخـص أمـن الدولـة كلهـا، ووقوعهـا في يـد أيـة جهـة خارجيـة يهـدد أمـن وطننـا!

كان سـعيد رغـم شـعوره بعـدم المقـدرة عـلى التركيـز لمـا يـدور مـن حولـه بسـبب الإرهـاق الشـديد، يكـرر إنـكاره تصويـر المسـتندات أو العلـم بمـا تحتويـه، ورغـم علمـه بأهميـة تلـك المسـتندات لكنـه عـرف مـن اسـتجوابهم لـه أنّ تلـك المسـتندات أكـثر خطـورة مـما توقـع، وخمّـن أنـه لـولا شـكهم في وجـود نسـخة منهـا مخبـأة في مـكان مـا ربمـا تخلصـوا منـه، وأن إنـكاره لمعرفتـه بوجـود نسـخة منهـا سـيكون الضـمان الوحيـد لعـدم قتلـه.

قال له ضابط الأمن: هل تعتقد إننا أغبياء؟ سوف نصل لصور المستندات وعندها سيكون حسابك قاسيا، نحن الآن نراجع كل محلات تصوير المستندات في المنطقة، وإن تأكدنا أنك قمت بتصويرها فسيكون ذلك آخر يوم في عمرك.

قال للضابط في إخلاص: أنا مجرد عامل ميكانيكي، أقرأ واكتب بصعوبة، وحتى حين اشتري إحدى الصحف الرياضية أقرأ فقط العناوين الرئيسية، وأعطيها لشخص ما ليقرأ لي التفاصيل!

نفذ الضابط بنظرته إلى عينيه المرتبكتين، فرأى تلال الخوف القابعة خلف نظراته، ورأى كل عضلة في جسمه ترتجف، مثل سيارة قديمة هيكلها المعدني غير مثبّت جيدا. كان واضحا لهم أنّ سعيد يخفي أو على الأقل يخاف من شيء ما.

كانوا يعيدون استجوابه كل يوم، بعد حفلات التعذيب والضرب الجماعية، وارتفع عرض الرشوة إلى ملايين الجنيهات إضافة لفرص أعمال أخرى، وسعيد يشعر أن صموده يتراجع بمرور الأيام، مع الضرب بالخراطيم والطعام الرديء، ورائحة نتانة عرق الأجساد ورائحة الغائط والأجساد المحترقة من الصعق بالكهرباء.

كان حظه أفضل قليلا من بعض المعتقلين الذين يُعلّقون في السقف أو يتعرضون للصعق بالكهرباء، الغرفة التي يقيمون فيها كبيرة نسبيا، كانت فيما يبدو غرفة لاستقبال الضيوف في البيت الذي يقيمون فيه والذي لا يستطيع أحد المعتقلين أن يجزم بموقعه، لكن فيما يبدو أنه كان قريبا من منطقة المطار قريبا من وسط المدينة، فقد كانوا يسمعون أصوات هبوط الطائرات وإقلاعها.

ذات يوم أحضروا رجلا، سمع همسا يدور أنّ الرجل متهم بالاشتراك في محاولة انقلاب ضد النظام، قاموا بضربه حتى فقد الوعي، كانوا يأخذونه كل صباح ويعيدونه نهاية اليوم

وهو على وشك أن يلفظ آخر أنفاسه، وفي أحد الأيام عاد الرجل في حال سيئة، ثيابه ممزقة وقد تناثرت عليها بقع من الدماء، بقي جالسا في مكانه لا يستطيع حراكا أو كلاما لمدة يوم كامل، أمام إلحاح بعض المعتقلين قاموا بنقله للمستشفى، لم يروه مرة أخرى. أوضح أحد المعتقلين أنّ الرجل تعرّض في الغالب للإغتصاب، وأوضح أنه رأى عدة حالات مشابهة في فترة اعتقاله، وأنه كان شاهدا على شاب تعرّض قبل أشهر إلى التعذيب نفسه مما أدى به لفقد عقله، وأنه أقدم حين أطلق سراحه على قتل زوجته وأطفاله الصغار ثم انتحر.

سعيد كان على وشك الاعتراف حين رأى حالة المعتقل الذي تعرّض للاغتصاب، رغم أنه كان يخشى أن يتعرض للقتل إن قام بالاعتراف بامتلاكه لصورة المستندات. كان قد سمع من حوارات المعتقلين معه أنّ كل من يعرف شيئا عن أسرار محاولة اعتقال الرئيس المصري أو حتى عرف شيئا عن طريق الصدفة يتعرّض فورا للقتل.

وحكى أحدهم قصة مطرب مشهور اغتيل قبل سنوات، ويقال أنّ جهاز الأمن قام بتهريب بعض من شاركوا في تنفيذ عملية الاغتيال ضمن الفرقة الموسيقية التي رافقت ذلك الفنان في رحلة فنية في بعض دول الجوار.

أفضى سعيد بحذر ببعض تفاصيل قصته إلى معتقل سياسي وثق فيه كثيرا، فنصحه الأخير ألا يتحدث عن ذلك الأمر أبدا، وحتى إن كان يعرف طريق بعض المستندات عليه أن ينكر ذلك وأن ينكر حتى أنه رآها أو قرأ شيئا منها، وأنّ ذلك هو الطريق الوحيد لينجو من الموت، أوضح له المعتقل أنهم في الغالب يصدّقون أنك بريء ما داموا يعرفون كل شيء عنك، وأنه ليس لديك نشاط سياسي أو نقابي لكنهم في الغالب سيحتفظون بك لبعض الوقت حتى يتأكدوا من سلامة موقفك.

شارك سعيد بحذر في حوار بين زملائه المعتقلين حول استخدام جهاز الأمن للاغتصاب ضد بعض المعتقلين السياسيين، قال معتقل مسن قليلا: لقد كنا زوارا للمعتقلات في معظم العهود العسكرية الوطنية وحتى في فترة الاستعمار، ولم يسبق لنا رؤية ذلك إلا في عهد الإخوان المسلمين، شرح أحد المعتقلين وجهة نظره أنّ الجهاز يحاول ابتداع طرق جديدة للمعتقلين تؤدي لمزيد من إرهاب الناس في الخارج، وتخويفهم من الانخراط في عمل ضد النظام، وكذلك تهدف إلى اغتيال معنوي لهؤلاء الضحايا، فالمجتمع حكمه لا يرحم على من يمارسون الشذوذ الجنسي.

قال معتقل آخر: غريب إن يحمل المجتمع نفس النظرة لشخص تعرّض لانتهاك جسده بالقوة! فهذا يظل نوع من التعذيب لا يمكن مساواته بمن يمارس الشذوذ برغبته!

علّق معتقل آخر: لقد قرأت مقالا لصحفي غربي تعرّض للاغتصاب على يد الطالبان في أفغانستان، وكان يحكي عن التجربة باعتبارها تعذيبا وليس فيها أية انتقاص من رجولته كما نفهم

نحـن ذلـك! بـل أنـه كان يطلـب كل بضعـة دقائـق مـن المجموعـة التـي رافقتـه بعـد إنقـاذه، إيقـاف السـيارة ويخـرج ليحـاول تنظيـف مؤخرتـه مـن المصائـب التـي أدخلهـا الطالبـان فيهـا! فقـد شـارك عـدة مجاهديـن في عمليـة اغتصابـه!

ضحـك أحـد المعتقلـين وحـكى نكتـة المعتقـل السـياسي الـذي أمـر قـاضي النظـام بـأن تكـون عقوبتـه الاغتصـاب وحـين أخـذوه للتنفيـذ كان هـو يلـوح بيـده مهـددا الجنـدي الـذي يرافقـه، وأنـه سـيحطم رأس كل مـن يحـاول اغتصابـه، وحـين وصـل إلى مـكان التنفيـذ وجـد شـخصا آخـر كانـت عقوبتـه هـي القتـل، بـدلا مـن التهديـد أصبـح المعتقـل المحكـوم بالاغتصـاب يسـتجدي الجنـدي ويذّكـره أن عقوبتـه هـي الاغتصـاب حتـى لا يخلـط بينـه وبـين المعتقـل الآخـر المحكـوم بالمـوت!

ضحك المعتقلون وعلّق أحدهم: (قضاء أخف من قضاء!)

21

بعد عدة أيام من لقائه مع رئيس جهاز الأمن والمخابرات، كان عاصم الحاج في بيته يشاهد برنامجا في جهاز التلفزيون، حين سمع خبطا على باب البيت، فوجئ بالقادم، كان رئيس جهاز الأمن والمخابرات، استقبله رئيس التحرير بارتباك، كان رئيس المخابرات يرتدي جلبابا ناصعا وعمامة شديدة البياض، وبدا وهو يقتحم البيت بدون أية هالة رسمية مصاحبة، وكأنه في زيارة ودية لصديق عزيز.

شرب الشاي الذي طلبه بدون حليب، ثم سال مضيفه إن كان بإمكانه التدخين داخل البيت مقترحا أن يجلسا في الفناء. في وسط الفناء حديقة صغيرة، نجيلة خضراء محاطة بأشجار الاركويت تسع بالكاد عددا قليلا من المقاعد. اختفى الاثنان داخل أشجار الاركويت، ثمة قمر حزين كان يطل بخجل من خلف سحاب خفيف، تتلاعب به أنسام ليلية لطيفة تهب برائحة نوّار الليمون، فيما يتصاعد صوت الباعة في الخارج مختلطا مع أصوات بعض السيارات العابرة وأزيز الموتورات الكهربائية التي تسحب المياه من خطوط المياه الرئيسية إلى داخل البيوت.

أفرغ رئيس المخابرات حمولة صدره من الدخان، وقال دون تضييع أية وقت في حديث عن خدمة الوطن، قال: أريد المستندات الآن!

ارتبك رئيس التحرير، فهم المطلوب، لكنه نسي أنه تحدث عن

تلك المستندات عرضا في يوم ما مع رئيس المخابرات، قال أية مستندات تقصد؟

قلت لي قبل ثلاثة أشهر وسبعة أيام، إنّ لديك مستندات تكشف فساد رؤوس كبيرة في النظام!

صمت رئيس التحرير، عرف أنه لن يستطيع الكذب، قال وكأنه على وشك أن يفقد كنزا ثمينا: إنها موجودة في المكتب!

وقف رئيس المخابرات على الفور، سنذهب ونحضرها، المكان ليس بعيدا، سنعود لنكمل شراب الشاي!

فهم عاصم الحاج أنّ الأمر لن ينتهي بتسليم المستندات، داهمه شعور قوي أنّ رئيس جهاز الأمن كان يريد تلك المستندات لشخصه، يريد استثمارها في شيء ما يخصه هو فقط، ولا علاقة له بأمن النظام نفسه!

في الخارج لم يترك رئيس المخابرات فرصة لعاصم الحاج الذي كان يود استخدام سيارته. أشار له إلى المقعد الأمامي بجانبه في السيارة التي كان يقودها بنفسه، اكتشف رئيس التحرير مندهشا أن الرجل يتحرك بدون حراسة ، اعتقد أنّ التحرُّك بصورة عادية لا تلفت الأنظار هو نفسه نوع من الحماية، لم يفكر قط أنّ الرجل كان في الواقع حريصا على الحصول على تلك المستندات دون أن يلحظ أية إنسان ذلك!

فتح رئيس التحرير خزانة صغيرة أسفل مكتبة وأخرج المظروف، سحب الأوراق خارج المظروف حتى يتأكد أنها المستندات المطلوبة، ثم سلمها لرئيس المخابرات، قال رئيس المخابرات: كيف حصلت عليها؟

كان معـي صحفـي شـاب متحمـس جـدا بعـد انتشـار شـائعات فسـاد بعـض رمـوز السـلطة والحركـة الإسـلامية، واسـتطاع عـن طريـق بعـض العلاقـات مـع بعـض زملائـه مـن الشـباب الذيـن تصـادف عمـل بعضهـم في مكاتـب بعـض المسـئولين الحصـول عـلى هـذه المسـتندات.

وأين هذا الشاب الان هل لا يزال يعمل معك؟

مـات لِلْأَسَـفِ صدمتـه سـيارة ويعتقـد بعـض زملائـه أنّ الحـادث كان متعمـدا للتخلـص منـه بسـبب هـذه المسـتندات، أو ربمـا بسـبب معلومـات أخـرى جمعهـا أثنـاء تحقيقاتـه!

وهل نشرتم شيئا من تلك التحقيقات؟

للأسف مات قبل أن يفرغ منها!

وهل عثرتم على المواد التي قام بكتابتها؟

كان لديه جهاز لابتوب لم يتم العثور عليه أبدا!

فكّـر رئيـس المخابـرات قليـلا: وكيـف لم أسـمع بهـذه الواقعـة؟ ألم يتصـل بكـم جهـاز الأمـن الاقتصـادي؟

لا، الحقيقـة أن الحـادث كان قبـل حـوالي خمـس سـنوات، لم تكـن أنـت في الجهـاز حسـب علمـي آنـذاك!

وهل نشرتم أو كتبتم شيئا عن هذه المستندات؟

كلا

لماذا؟

تعرضنـا لحـرب خفيـة رغـم أننـا لم ننـشر شـيئا، توقفـت الإعلانـات

الحكومية وكنا على حافة الإفلاس!

قال مدير المخابرات مندهشا: قتلوا الصحفي، وسرقوا كمبيوتره الشخصي، كيف لم يقدموا على سرقة هذه المستندات؟

توقعت في الحقيقة أنهم سيقومون بسرقتها، لكن الأرجح أنهم لم يتوقعوا أنّ الصحفي المغدور كان قد سلّمني المستندات في نفس اليوم الذي حصل فيه عليها. لذلك اكتفوا بالتخلص منه والاستيلاء على المقالات في جهاز اللابتوب، وربما لم يكن لديهم علم أصلا أن الصحفي حصل على هذه المستندات ربما لأنها في الواقع صور من المستندات الأصلية واعتقد أنهم بالطبع تخلصوا بعد ذلك من المستندات الأصلية!

قال رئيس المخابرات وهو يتوقف أمام بيت عاصم الحاج: قلت إنك كنت تتوقع أنهم قد يقدمون على سرقة المستندات، ذلك يعني أنك تحتفظ بنسخة احتياطية في مكان ما!

قال رئيس التحرير ببساطة: نعم، صور عن طريق جهاز الموبايل أحتفظ بها في فلاش صغير!

أين هو؟

هنا في البيت!

أحضره لي من فضلك بسرعة.

غاب رئيس التحرير لدقيقة واحدة وعاد حاملا الفلاش في مظروف مغلق صغير.

هل هناك أية صور أخرى!

حسب علمي لا توجد صور أخرى!

ماذا تعني بحسب علمك!

أعني ربما كان الصحفي المغدور قبل وفاته، قد قام بعمل نسخ احتياطية أيضا!

نظر رئيس المخابرات إليه بشك، لحسن حظ أو لسوء حظ رئيس التحرير لم يلحظ بسبب الظلام نظرة الشك القاتلة تلك.

22

بـدأت هاجـر السـناري عملهـا الجديـد، يقـع البيـت الـذي يضـم مبنـى الصحيفـة الجديـد عـلى شـارع جانبـي في إحـدى الأحيـاء الشـعبية البعيـدة عـن وسـط العاصمـة. يتكـون المقـر مـن صالـة واسـعة كانـت مكتبـا جماعيـا لـكل صحفيـي الجريـدة بمـا فيهـم رئيـس التحريـر نفسـه، هنـاك غرفتـان صغيرتان خصصـت إحداهـا للاجتماعات ولتنـاول وجبـات الطعـام، وواحـدة تضـم المديـر المـالي ومسـئول شئون مسـتخدمي الصحيفـة ومسـئول الإعلانـات. بسـبب إمكانيـات الصحيفة المحـدودة لم يكـن عـدد الصحفيـين أيضـا كبـيرا، هنـاك محـرر واحـد لقسـم الرياضـة وبقيـة الصحفيـين السـبعة يعملـون سـويا في تغطيـة الأخبـار السياسـية والاجتماعيـة والثقافيـة.

في أول اجتـماع لهيئـة التحريـر أوضـح رئيـس التحريـر أن الصحيفـة إمكانياتهـا محـدودة لكـن طموحهـا في تقديـم خدمـة صحفيـة متميـزة لا حـدود لـه، أوضـح أنـه يتوقـع مصاعـب وحربـا ممـن لـن يعجبهـم الخـط المسـتقل للصحيفـة، وأنّ الصحيفـة قـد لا تجـد موطـئ قـدم في سـوق الإعلانـات الـذي تسـيطر عليـه الحكومـة وتسـتخدمه لمكافـأة المواليـن لهـا، أوضـح أنـه كلّـف أحد الأصدقـاء بتصميـم موقـع للصحيفة عـلى الإنترنـت، حتـى تكـون الصحيفـة متاحـة للقـارئ خـارج الوطـن وداخـل الوطـن أيضـا إن تعرّضـت للمصـادرة، أو للذيـن لا يسـتطيعون الحصـول عـلى النسـخة الورقيـة. وإن الصحيفـة أيضـا سـتتواصل مـع قرائهـا عـبر صفحاتهـا عـلى مواقـع التواصـل الاجتماعـي، أشـار إلى

هاجر وقال إنها ستكون مسئولة عن تحديث صفحة الجريدة على موقع ألفيس بوك، والإشراف أيضا على الموقع الإلكتروني للصحيفة وستنال تدريبا من مصمم الموقع حول كيفية رفع العدد اليومي إلى الموقع.

ختم رئيس التحرير قوله: إننا سنحاول فتح ملفات مهمة، الفساد الحكومي، أوضاع المواطنين السيئة خاصة في مناطق النزاعات، انهيار الصحة والتعليم وغيرها من القضايا التي تهم المعاش اليومي للمواطنين، رغم أنّ الحكومة تضع خطوطا حمراء على تناول بعض القضايا مثل قضية دارفور، لكن في الحقيقة هناك خطوط حمراء غير مرئية لكل ما يمكن أن نتناوله من قضايا، يجب أن نحرص على المواصلة مهما كانت الصعاب.

تحدد موعد صدور العدد صفر من الصحيفة بعد أسبوع، عملت خلالها هاجر بجهد مضاعف لإعداد مواد للصفحات الداخلية تكفي لعدة أيام، ستواصل في نفس موضوعاتها القديمة لكشف الفساد في الدوائر الحكومية، كما أعدت تقريرا حول أطفال الشوارع، وبدأت في العمل على تقرير حول جرائم التحرش الجنسي التي يتعرّض لها الأطفال.

في اليوم السابق لصدور العدد صفر كان الجو العام يبدو هادئا، كانت هاجر هي الوحيدة التي تنبهت إلى أن الهدوء الشديد، كان يثير الخوف أكثر مما يثير الشعور بالسكينة، لابد أنهم يشحذون سكاكينهم للانقضاض على الضحية الجديدة دون رحمة، كانت تتوقع أن يظهر أحد ضباط المخابرات كما هي العادة مع كل الصحف قبل طبع الصحيفة لمراجعة المواد وحذف المقالات أو

العبارات التي تتجاوز خطوط الرقيب الحمراء.

لم يحضر أحد ومضى كل شيء في هدوء، تم إرسال ملفات الصحيفة إلى المطبعة في وقت متأخر من مساء الأحد، وبقي أحد المحررين في المطبعة للإشراف على الطبع، كانت هاجر هي المحرر المناوب في تلك الليلة، كان هناك عدد قليل من المحررين إضافة للحارس الليلي، في الخامسة صباحا اتصل أبو بكر، المُحرّر المُشرف على طباعة الصحيفة وقال إن الصحيفة جاهزة وأنّه سيحضر إلى مبنى الصحيفة خلال نصف ساعة، وطلب منها إبلاغ مندوب شركة التوزيع الذي ربما يصل أولا، أنه في الطريق ومعه الصحيفة.

وصل مندوب شركة التوزيع، بدأ وصول بقية المحررين، استأذنت هاجر للذهاب إلى البيت لتحصل على قسط من الراحة على أن تعود ظهرا.

تأخّر وصول الصحيفة رغم أنّ أبوبكر كان قد اتصل ليخبرهم أنه في الطريق، أصابت عدوى قلق مندوب شركة التوزيع الجميع بالقلق، غادر مندوب شركة التوزيع الصحيفة لأنّ لديه موعد لاستلام صحيفة أخرى، على أن يعود في وقت لاحق. اتصل رئيس التحرير بتليفون ابوبكر النقّال عدة مرات، كان تليفونه مغلقا طوال الوقت.

أخيرا وصل أبو بكر إلى الصحيفة لوحده، وكان يبدو في حال سيئة، ملابسه ممزقة، وقد صودر تليفونه المحمول، شرب كوبا من الماء وشرح ما حدث: بعد تحميل أعداد الصحيفة في سيارة النقل، انطلقت السيارة في طريقها لمبنى الصحيفة، لم تمض سوى دقائق

قليلـة، قبـل أن تتوقـف عـدة عربـات أغلقـت الطريـق أمـام سـيارة النقـل، نـزل عـدة رجـال مسـلّحون، واضـح مـن ملابسـهم وطريقـة تعاملهـم أنهـم يتبعـون لجهـاز الأمـن والمخابـرات، أنزلـوني أنـا والسـائق مـن السـيارة وانهالـوا علينـا ضربـا، وقـاد أحدهـم السـيارة وتركونـا عـلى أرض الشـارع.

دعـا رئيـس التحريـر لاجتـماع عاجـل لطاقـم المُحرريـن، بـدأ رئيـس التحريـر الاجتـماع بقولـه: كنـا نتوقـع أنهـم لـن يتركونـا في حالنـا، لكـن لم نتوقـع هجومـا بهـذه السرعـة، نحـن حتـى لم نفتـح أيـا مـن الملفـات التـي تزعجهـم! لكـن واضـح أنهـم يعرفـون ميزانيتنـا المحـدودة، وأننـا لـن نحصـل عـلى أيـة إعلانـات مهمـة، وبالتـالي يحاولـون ضرب ميزانيتنـا القليلـة مـن البدايـة.

تحـدث عثـمان عـوض مديـر التحريـر: أرى أن الضربـة التـي لـن تكسرنـا سـتقوينا، فلنقـم برفـع العـدد صفـر عـلى الإنترنـت، ونضـع خـبر مصادرتـه عـلى مواقـع التواصـل، ونرسـل الخـبر لـوكالات الأنبـاء، ثمـة جانـب إيجـابي، القـارئ حـين يعلـم بمصـادرة الصحيفـة لحظـة ميلادهـا سـيتأكد إن كان لديـه شـك أنهـا صحيفـة مسـتقلة منحـازة لهمومـه، وبالتـالي سـيبحث عنهـا في اليـوم

التـالي وهـذا هـو المهـم في تقديـري، إن لم يكـن لدينـا إمكانيـة لعمـل حملـة إعلانيـة لصحيفتنـا الجديـدة، فهـذه فرصـة إعـلان مجـاني لا يجـب أن نضيعهـا.

ابتسـم رئيـس التحريـر بحـزن: لـن يكـون الاعـلان مجانـا تمامـا، لا تنـس العـدد المصـادر!

أضافت هاجر التي جاءت متأخرة قليلا فور وصولها من البيت: أثني على كلام عثمان، وان وافقتم سوف أبدأ فورا في رفع العدد إلى الموقع، ويمكنني أيضا وضع معظم المواد على صفحتنا في الفيسبوك، ويمكن لمحرر آخر أن يتولى الاتصال ببعض وكالات الأنباء ومراسلي الصحف العالمية.

تم الاتفاق في نهاية الاجتماع، ستقوم هاجر برفع العدد المصادر في الموقع ووضع المواد وخبر المصادرة في صفحة الفيسبوك، وسيقوم عادل الشفيع محرر الشئون الخارجية بالاتصال بوكالات الأنباء ومراسلي الصحف لتعميم خبر مصادرة العدد صفر.

23

قبـل بـدء جلسـة مجلـس الـوزراء كان يشـعر أن ثمـة عاصفـة تتجمـع في الأفـق، يختنـق الـوزراء في البـدلات الأنيقـة الكاملـة ماركـة جـوشي وكريسـتيان ديـور، يعـرف أنّ أكثرهـم فقـرا يملـك عـدة قصـور في الداخـل والخـارج وتغـصّ أرصدتهـم البنكيـة بـكل العمـلات الأجنبيـة التـي بسـببها: تـم إعـدام عـدد مـن أبنـاء وطننـا الأبريـاء، بتهمـة الاتجـار في العملـة الصعبـة، كـما كانـت تقـول إحـدى رسـائل خليـة الجـنرال عـوف (أسـكنه اللـه فسـيح جناتـه) تلـك الخليـة التـي عـرف مـن الناجـي الوحيـد فيهـا، أنهـا كانـت تتكـون مـن أكـثر مـن ثمانـين ضابطـا وجنديـا مـن خـيرة أبنـاء جيشـنا، أكـثر مـن نصفهـم أعدمـوا رميا بالرصـاص بعـد محاكـمات لم تسـتغرق سـوى ثـلاث دقائـق، كان هـو الوقـت الـذي قـرأ فيـه القـاضي حكـم المحكمـة.

لا اسـتجواب ولا شـهود ولا حتـى لائحـة اتهـام، كان القـاضي لا يـزال في مكانـه حـين بـدأ رصـاص فرقـة الإعـدام يلعلـع في الخـارج، فرقـة إعـدام مكونـة مـن عـدد مـن المتطرفـين الإسـلاميين، الذيـن تدربـوا في معسـكرات الجهاديـين التـي رعتهـا حكومـة الإخـوان المسـلمين! حكومة فخامتكـم سـيدي الرئيـس! ضبـاط في الجيـش يقتلهـم متطرفـون إسـلاميون أمـام نظـر وسـمع جيشـنا! هـل تصـدق ذلـك سـيدي الرئيـس؟ المتطرفـون الذيـن يفـترض أنّ جيشـنا يحاربهـم ويسـلمهم إلى دولهـم، يقومـون بإعـدام أفضـل ضبـاط جيشـنا! والبقيـة قضـوا مـن التعذيـب في المعتقـلات، حرقـوا جلودهـم بالكهربـاء وبـتروا أصابعهـم

وأجبروهـم عـلى ابتلاعهـا.

أمـا المدنيـون الذيـن اتهمـوا بالتـورط في المحاولـة، فقـد تـم ترحيلهم إلى سـجن شـالا، تعرضـوا للاغتصـاب والتعذيـب لمعرفـة الجهـات التـي دفعتهـم لمحاولـة الانقـلاب، قبـل أن يربطـوا بالحبـال ويسـتخدموا لتنظيـف مناطـق العمليـات مـن الألغـام الأرضيـة! رغـم أنّ خليـة الجـنرال عـوف لم يكـن فيهـا ولا مـدني واحـد!

ولماذا اتهموهم بالمشاركة في الانقلاب؟

تصفيـة حسـابات، قوائـم أعدائهـم مـن مختلـف التنظيـمات المعارضـة والناشـطين، حتـى الناشـطين ضـد النظـام في مواقـع الإنترنـت جاهـزة، مـا أن يعـثروا عـلى شـبهة محاولـة انقلابيـة ضدهـم، حتـى يقومـون بإضافـة القوائـم إلى المتهمـين بتدبـير الانقـلاب! لا يرهقـون أنفسـهم ولا حتـى بتلفيـق أدلـة! حتـى لـو اضطـروا لتقديـم بعضهـم للمحاكمـة ذرا للرمـاد في عيـون منظـمات حقـوق الإنسـان، فالقضـاة إسـلاميون مثلهـم، يحكمـون عليهـم بفـترات سـجن قصـيرة، يصـدرون عفـوا عنهـم بعـد أشـهر، قبـل أن يصطادهـم قناصـة كتائبهـم السريـة واحـدا وراء الآخـر! هـل تصدق سـيدي الرئيـس جهـاز أمنـك يسـتخدم قتلـة محترفـين بعقـود خاصـة!

وكيف نجوت أنت من كتائب الإعدام ؟

كنـت خـارج البيـت أتابـع مبـاراة في كـرة القـدم اتصـل بي أحـد جيراننـا، وأبلغنـي أن رجـال الأمـن يحـاصرون بيتنـا، ونصحنـي بعـدم العـودة إلى البيـت، هربـت بمسـاعدة بعـض البـدو شـمالا وبقيـت مختبئـا في قريـة قريبـة مـن مدينـة دنقـلا عـدة أيـام، حتـى تمكـن

أحدهـم أن يسـتخرج لي جـواز سـفر باسـم مختلف، اسـتخدمته للسـفر إلى ليبيـا عـن طريـق البـص مـن دنقـلا، كان ذلـك قـرارا سـيئا فقـد عرفـت مـن جارنـا الـذي بقيـت عـلى اتصـال بـه لأطمـئن عـلى أهـلي، أنهـم قامـوا باقتيـاد أخـي الأصغـر، للضغـط عـليّ حتـى أقـوم بتسـليم نفـسي، وللأسـف لا يـزال أخـي مفقـودا حتـى اليـوم!

وكيف عدت إلى الوطن؟

عـدت بعـد العفـو الـذي أعقـب اتفاقيـة نيفاشـا، هـل نسـيت سـيدي الرئيـس؟ أذهـب كل أسـبوع إلى مكتـب حقـوق الإنسـان التابـع للأمـم المتحـدة ليتأكـدوا أننـي لا زلـت حـرا وعـلي قيـد الحيـاة، ورغـم ذلـك أشـعر بهـم يراقبوننـي طـوال النهـار والليـل، أعيـش تحـت حمايـة منظـمات حقـوق الإنسـان، لكـن مـن يضمـن اسـتمرار ذلـك؟ يحاولـون الآن تحسـين علاقاتهـم مـع المجتمـع الـدولي عـلى أمـل اسـتئناف علاقاتهـم مـع المؤسسـات الماليـة الدوليـة والحصـول عـلى بعـض القـروض، لكـن إن يئسـوا مـن رحمـة المجتمـع الـدولي وقروضـه سـنكون نحـن أول الضحايـا! ومنـذ حضـوري قبـل أكـثر مـن عامـين وانـا ابحـث عـن أخـي دون جـدوى، ألا يمكنـك مسـاعدتي سـيدي الرئيـس؟

قـال السـيد الرئيـس: طبعـا لأجـل خاطـر الجـنرال عـوف سـأبذل كل مـا بوسـعي، المشـكلة اننـي اتلقـى يوميـا طلبـات اسـترحام لا تحـصى للبحـث عـن مفقوديـن اختطفتهـم الأجهـزة الأمنيـة! وحـين نجـري اتصـالات بجهـاز الأمـن، يكـون الجـواب لم نعـثر عليـه في أي مـن معتقلاتنـا! ويقومـون بتحويلنـا الى جهـاز الأمـن الشـعبي، والأمـن الشـعبي يحوّلنـا الى جهـاز الأمـن الاقتصـادي والأمـن الاقتصـادي يحولنـا الى شـعبة القبائـل! وشـعبة القبائـل تحوّلنـا الى الأمـن الالكـتروني! حتـى

الأمـن الالكـتروني لديهـم معتقـلات! لكننـي سـأهتم بمشـكلة شـقيقك بنفـسي.

قاطعتهـم زوجتـه: هنـاك سـيدة مُسـنة في الخـارج، لهـا صلـة قرابـة بأحـد جنـود حراسـتي، تريـد رؤيتـك، تقـول إن ابنهـا اختفـى منـذ سـنوات، وتريـدك أن تتدخـل لإطـلاق سراحـه!

أخبريهـا أن تذهـب إلى حـزب المؤتمـر الوطنـي، سـأضع لافتـة في بـاب بيتـي، لا أعـرف شـيئا عـن أيـة مفقـود، لديـك مفقـود؟ فضـلا اذهـب إلى حـزب المؤتمـر الوطنـي!

أخبرها بنفسك، لدي موعد مع عدد من رجال الأعمال!

قـال السـيد الرئيـس: نصـف سـكان هـذا الوطـن هاجـروا إلى كل أصقـاع الدنيـا والنصـف الآخـر مفقـود!

وجـه الـكلام إلى زوجتـه: لا أسـتطيع مقابلـة هـذه العجـوز يجـب أن اخـرج بعـد قليـل، سـأخاطب الاحتفـال بعيـد الجيـش!

قالت زوجته ضاحكة: وهل لا يزال هنالك جيش؟

تطوّعـت السـيدة الأولى وهـي في طريقهـا مـع سـائقها إلى الخـارج، سـأخبر السـيدة العجـوز أنـك غـير موجـود!

24

كان قد مرّ أكثر من عامين على سعيد عبدالهادي وهو معتقل في زنازين جهاز الأمن والمخابرات. تغيرت وجوه من حوله وبقيت وجوه، كان يبدو في لحظات كثيرة وكأنه قد فقد الإحساس بمن حوله، يجلس صامتا طوال النهار، يزداد توغلا داخل نفسه كلما تطاولت فترة الحبس، كأنه يمارس إطلاقا لسراح روحه في فضاء داخلي بدون حدود في مقابل حبس جسده.

يفتح نوافذ الروح على فضاء الذاكرة، يرى نفسه جالسا بجانب شقيقه كمال الذي يصغره بخمسة أعوام، يراقبان قطيع والده الصغير من الخراف والماعز وهي ترعى بقايا مزارع الذرة والفول السوداني بعد موسم الحصاد، يرتدي أسمالا معطونة بالتراب والعرق، وينتعل حذاء بلاستيكيا أخضرا ممزقا، ينتبه إلى أنه رأى نفس الصورة قبل سنوات لكن ألوانها كانت مختلفة، حتى حذائه الممزق الأخضر كان لونه أشبه بلون التراب، حتى أعداد خراف وماعز والده القليلة بدت كأنها تضاعفت في ذاكرته، حتى ارتفع صخبها من حوله وغرقت صورته في تفاصيل معجزة تكاثرها الزائف.

طوال عدة شهر لم يتعرض مرة أخرى للاستجواب الذي كان يوميا في الفترة الأولى. كان يتوقع في أية لحظة أن يستدعونه ويقولون له: عثرنا على المكتبة التي قمت بتصوير المستندات فيها! لكنه شعر بمرور الزمن أنهم لم يعثروا على أية خيط لإدانته، سمع من

بعض المعتقلين أنه نتيجة لضغوط بعض منظمات حقوق الإنسان سيتم قريبا إطلاق سراح عدد من المعتقلين، وسيتم نقل البقية إلى سجون نائية.

كانت ملابسه قد تحولت إلى أسمال وكان بنطلون الجينز قد التصق بجسمه تقريبا بسبب تراكم العرق والغبار، بعد أيام جاء أحد رجال الأمن ونادى على عدد من الموجودين من قائمة قرأها عليهم، وطلب منهم الاستعداد للخروج، تسلموا أشيائهم القليلة وحملتهم سيارة نقل فجرا إلى أحد مراكز الشرطة في وسط المدينة حيث أُخلي سبيلهم.

شعر سعيد أنه عاجز في اللحظة الأولى عن التعرف إلى العالم خارج أسوار المعتقل، بدت له خطوات الناس في الخارج، غريبة، مرتبكة، تضرب في الأرض دون هدف، وشعر بصدمة خفية، كأنه يستبدل المعتقل الصغير، بآخر يسجن فيه الناس داخل ذواتهم، الكل يسير مثل من يسير داخل محيط جسده، لا يجرؤ على الاقتراب من بوابة الجسد، حيث العالم الغارق في سبات أزمنة مختلفة.

اكتشف حين نظر في المرآة لأول مرة منذ أكثر من عامين، أنه لم يفقد جزءا من وزنه فقط، بل فقد حيوية شبابه القديم، رأى عدة شعرات بيضاء غزت شعر رأسه الغزير، شاعرا كأنّ وجهه تراجع من مكانه القديم إلى الخلف قليلا.

كان صديقه المعتقل قد نصحه بالتزام الحيطة عند الإفراج عنه، لأنهم في الغالب سيبقونه تحت المراقبة لفترة من الزمن،

ليتأكدوا أنّ صور المستندات ليست في حوزته، أوضح له: الموضوع بالنسبة لهم يشكل هاجسا خطيرا، أنك محظوظ، كل من ورد اسمه أو عرف حتى تفاصيل غير مهمة عن هذه القضية حتى لو بالصدفة تخلصوا منه، وضحك صديقه وقال له لو استطعت الهجرة ربما تصبح تلك المستندات ثروة في الخارج! ستصلح كتابا يوثّق لرعاية النظام للتنظيمات المتطرفة وكل المحاولات الإرهابية التي قام بتدبيرها.

لم يحاول سعيد أن يتأكد من وجود صورة المستندات، استأنف حياته العادية، لحسن الحظ أن صاحب الورشة التي عمل بها قبل اعتقاله لم يطرده من العمل، أبدى تفهما لظروف غيابه الطويل وسمح له بالعودة فورا للعمل، ووعده أن يدفع له كل مستحقاته عن الفترة التي قضاها في المعتقل، وجد سعيد ذلك عملا كريما سيعطيه دفعة قوية حين يحين الوقت لتنفيذ فكرته للسفر التي اصبحت هاجسا ملحا له منذ خروجه من المعتقل.

كان صاحب الورشة نفسه أحد ضحايا النظام لذلك تفهم كل ظروف سعيد، قبل سنوات ألقت قوات الجيش القبض على ابنه الذي كان قد بدأ للتو العمل معه في الورشة بعد إكمال دراسته، اقتادوه الى معسكر للخدمة الالزامية في منطقة العيلفون، وبعد أشهر مات الابن حين حاول عدد من المجندين في المعسكر عبور نهر النيل الذي كان المعسكر يقع عليه لقضاء العيد مع ذويهم، قامت قوات الجيش بفتح النار عليهم فمات الكثيرون غرقا وبرصاص الجيش.

كان صاحب الورشة يحقد على النظام لكنه كان يلتزم الصمت

دائما، ربما خوفا أن يوجه له النظام ضربة إنتقامية اخرى في ابنه الوحيد الذي كان صغيرا حين اغتيل شقيقه.

زار سعيد زوجة المقدم عبدالله وأولاده، حكت له إنها ذهبت للاعتصام عدة مرات أمام جهاز الأمن وانها تعرضت هي وأطفالها للطرد والمضايقات عدة مرات، كما اعتصمت عدة مرّات أمام مكتب الامم المتحدة، دون أن يظهر أية أثر للنقيب عبدالله، أوضح لها سعيد انه لم يره ايضا طوال فترة اعتقاله، لكنه سمع في معتقله أنّ هناك أعدادا اخرى كبيرة من المعتقلين السياسيين، قام جهاز الأمن بتوزيعهم في مراكز اعتقال سرية كما قاموا بترحيل البعض الى سجون في مناطق نائية في شرق وغرب البلاد، قالت لسعيد: ألم يترك عبدالله نسخة اخرى من المستندات معك؟

اوضح سعيد انهم صادروا المستندات حين القوا القبض عليه قبل اكثر من عامين، ثم سألها ماذا ستفعل ان عثرت على المستندات؟

قالت أعتقد أن المستندات ومحاضر لجنة التحقيق هي سبب اختفاء زوجها، وربما ان تسنى لها الحصول على صورة منها يمكنها مقايضة ذلك بزوجها، او على الاقل تعرف معلومات عنه.

سعيد قال لها ان ذلك امر خطير وانهم قد يسببون لها مشاكل كثيرة لمجرد الشك انها تعرف شيئا، وحكى لها انه تعرّض للسجن والتعذيب طوال تلك الفترة لمجرد الشك انه يحتفظ بصورة من تلك المستندات، فما بالك ان علموا بوجود تلك الصور مع شخص ما، وحتى يبعث فيها بعض الطمأنينة قال لها إنّ أحد زبائنه في

ورشة صيانة السيارات ضابط شرطة، سيطلب منه المساعدة في تحديد مكان ومصير النقيب عبدالله، أوضح أنّ ضابط الشرطة بحكم عمله يستطيع الحصول على معلومات من جهات كثيرة.

كان سعيد يجلس مع والدها المسن في صالة البيت حين جاء الطفلان من المدرسة، كانا قد كبرا عن آخر مرة رآهما فيها قبل سنوات، صار عثمان شابا صغيرا على وشك دخول المدرسة الثانوية، حين صافحه سعيد داعبه قائلا: مرحبا يا عم عثمان! قال عثمان أنت أكبر مني كيف أكون عمك؟ ابتسم سعيد رغم كل مظاهر الحزن في البيت وقال: والدك أسماك باسم جدك، وجدك عثمان هو شقيق والدي، فأنت إذن عمي.

هشام كان في الصف الأول في المدرسة الأساسية، حين دخل الطفلان إلى المنزل ليبدلا ملابس المدرسة، حكت له صفية أنّ الطفل الأصغر لم يعد يذكر والده كثيرا، لكن عثمان كان دائم السؤال عن والده، وكان يفهم أنّ والده اختفى بسبب ظروف لها علاقة بالحكومة، فقد شارك مع والدته وشقيقه في الاعتصام عدة مرات أمام جهاز الأمن، وشاهد رجال الأمن يعتدون بالضرب على والدته وعلي نساء مُسنات جئن أيضا يبحثن عن أولادهن المفقودين.

وعدها سعيد ببذل كل ما في جهده، في الخارج خطرت له فكرة لمحاولة إنقاذ ابن عمه النقيب عبد الله أو على الأقل محاولة استجلاء مصيره، فكرة لو كان يعلم بالكوارث التي ستجرها إليه، لما أقدم حتى على مجرد التفكير فيها.

25

بعـد أيـام قليلـة مـن بـدء صـدور الصحيفـة، جـاء عاصـم الحـاج رئيـس تحريـر صحيفـة الزمـان لزيـارة صحيفتهـم، اعتقـدت هاجـر أنـه جـاء بغـرض التهنئـة لأنّ مؤسـس الصحيفـة وعـدد مـن محرريهـا كانـوا مـن زملائـه، لاحظـت هاجـر أنـه بعـد أن تحـادث قليـلا مـع رئيـس التحريـر جـاء ليقـف بجانبهـا، لم يجلـس عـلى المقعـد المخصـص للزائـر بجانـب مكتبهـا، بـل وقـف بجانبهـا، انحنـى قليـلا ودون أن يلاحـظ أي مـن زملائهـا شـيئا، وضـع مظروفـا صغـيرا أخرجـه مـن جيبـه بسرعـة، داخـل درج مكتبهـا المفتـوح وقـال هامسـا، حافظـي عليـه جيـدا فيـه كنـز مـن المعلومـات!

عـاد ليجلـس قليـلا مـع رئيـس التحريـر ثـم اسـتأذن خارجـا، تحسسـت هاجـر المظـروف دون أن تخرجـه مـن الـدرج ووجـدت فيـه ذاكـرة فـلاش فاسـتطاعت أن تخمّـن مـا تحويـه الذاكـرة، كان أول مـا فكـرت فيـه أن تقـوم بعمـل نسـخة احتياطيـة منهـا حتـى قبـل أن تعـرف مـا تحتويـه، بحثـت مـع زملائهـا عـن ذاكـرة فـلاش غـير مسـتخدمة، بزعـم أنهـا تريـد حفـظ بعـض ملفاتهـا الخاصـة بـه قبـل تنظيـف جهـاز الكمبيوتـر، قامـت بنسـخ البيانـات كاملـة ثـم أخفـت ذاكـرة الفـلاش الأصليـة في بعـض الأوراق في درج مكتبهـا وحملـت النسـخة الاحتياطيـة في نهايـة اليـوم ووضعتهـا في مظـروف مـع بعـض الأوراق ثـم قامـت بزيـارة صديقـة تعمـل في أحـد البنـوك التجاريـة، طلبـت منهـا أن تقـوم بحفـظ المظـروف مـع أوراقهـا الخاصـة، شـعرت

الصديقـة أن المظـروف يحتـوي مسـتندات مهمـة فاقترحـت أن تقـوم بحفظـه في خزانـة مكتبهـا في البنـك، تـرددت هاجـر قليـلا وقالـت: ربمـا أفضـل في البيـت، حكـت لهـا الصديقـة أن بيتهـم يتعـرض للسرقـة أحيانـا، وأنّ خزانـة مكتبهـا في البنـك محميـة جـدا ويسـتحيل الوصـول إليهـا، قـرّرت هاجـر أن تقـوم في اليـوم التـالي بعمـل نسـخة احتياطيـة ثانيـة تحفظهـا أيضـا في مـكان آمـن.

في اليـوم التـالي كانـت هاجـر منهمكـة في عملهـا، كانـت تـود الفـراغ مـن المـواد التـي تعمـل عليهـا لعـدد اليـوم التالي، قبـل أن تقـوم بفحص ذاكـرة الفـلاش وعمـل نسـخة احتياطيـة إضافيـة حـين فاجأهـا رئيـس التحريـر بالخـبر الصاعـق: تـوفي عاصـم الحـاج رئيـس تحريـر الزمـان! شـعرت هاجـر بالصدمـة: كيـف حـدث ذلـك؟ كان بصحـة جيـدة حـين زارنـا بالأمـس!

صدمتــه ســيارة مسرعــة وهــو يهــم بعبــور الشــارع إلى مبنــى الصحيفــة!

بقيـت هاجـر عـدة أيـام تحـت تأثـير الصدمـة، قامـت بزيـارة أسرتـه مـع أسرة صحيفتهـا، كانـت تشـعر بعلاقـة غامضـة بـين مقتـل الرجـل وذاكـرة الفـلاش التـي أحضرهـا لهـا، لابـد أنـه كان يشـعر بأنهـم يدبّـرون شـيئا ضـده لذلـك قـام بتسـليمها ذاكـرة الفـلاش، تذكـرت كيـف كان حـذرا جـدا وهـو يسـلّمها الفـلاش حتـى لا يلاحـظ أي مـن زملائهـا ذلـك.

عرفـت مـن أحـد زملائهـا أنّ صحيفـة الزمـان تعرّضـت في اليـوم التـالي لوفـاة رئيـس التحريـر، إلى هجـوم ليـلي لرجـال مجهولـون قامـوا

بتفتيش المكان تفتيشا دقيقا واستولوا على كميات كبيرة من المستندات وكل فلاشات الذاكرة والأقراص الصلبة المتحركة التي عثروا عليها، بل أنهم حملوا معهم كل أجهزة الكمبيوتر التي عثروا عليها في مبنى الصحيفة.

عرفت هاجر من محمد نور الدين، أنّ مدير التحرير في صحيفة الزمان تولى عمل بلاغ لدى الشرطة التي أخبرته أنهم يعتقدون أنّ جهة سيادية، هي التي قامت بمصادرة الأجهزة وأنهم سيعيدونها فور فحصها لأنّ لديهم شكوك بوجود معلومات تمس الأمن الوطني في تلك الأجهزة!

قالت هاجر: إذن هم يعترفون أنهم هم من قتلوه!

لم يقل رئيس التحرير شيئا، لكن بريق عينيه الحائر كان كأنه يقول: ذلك أمر بديهي، من سيصدق أنّ حادث حركة يودي بحياة الرجل، وفي اليوم الثاني تُهاجم صحيفته وتُصادر كل مستنداتها وأجهزتها.

في مساء اليوم نفسه، فوجئ محمد نور الدين بزيارة هاجر في بيته دون حتى أن تتصل تليفونيا، وتتأكد إن كان موجودا في البيت، فقد كان على وشك الخروج مع أسرته لزيارة والديه، اعتذرت هاجر وقالت هامسة: لم أشأ أن أتصل قبل حضوري، فحسب معلوماتي التليفونات مراقبة وربما توجد أجهزة تنصت في صحيفتنا نفسها.

مدت يدها بفلاش الذاكرة وقالت: لهذا السبب قُتل عاصم الحاج، أوضحت: أحضره الرجل قبل وفاته ووضعه دون أن يلاحظ

أحد في درج مكتبي ونبهني لأهميته، يبدو أنه كان يشعر أنّ جهة ما تطارده وربما توقع أن يتخلصوا منه، لم أحاول فتحه لأنني لا أملك كمبيوتر شخصي، وكمبيوتر الصحيفة لا توجد به برامج تمنع سرقة مافيه من ملفات، كما أنني أتوقع أنهم يملكون حسب ما سمعت، برامج يستطيعون عن طريقها معرفة الملفات التي فتحت على أية جهاز، حتى لو لم تكن تلك الملفات محفوظة في الجهاز.

فكّر رئيس التحرير قليلا وهو يزن ذاكرة الفلاش الصغيرة في يده وكأنه يزن قيمة ما تحويه من معلومات وبالتالي من مخاطر، ثم قال: لحظة، عندي جهاز كمبيوتر شخصي، أهداه لي أخي المهاجر قبل فترة ولم استخدمه بعد، يمكننا استخدامه لفحص الفلاش، وحفظ نسخة من المستندات فيه، لكن يجب أن أحاول حفظه في مكان آمن بعيدا عن البيت، جلست هاجر في صالة البيت في الانتظار ، كان أطفال محمد نورالدين الثلاثة في كامل ملابسهم تبدو عليهم العجلة للخروج، أحضرت زوجته الشاي، وجلست قليلا بجانبهم قبل أن تعود لتكمل استعدادها للخروج.

أوصل رئيس التحرير جهاز اللابتوب بالكهرباء، لأن البطارية كانت فارغة، كانت المرة الثانية التي يستخدم فيها الجهاز، قام فقط قبل أشهر بتجربته ثم حفظه في خزانة الملابس.

بعد تشغيل الجهاز قام بتثبيت ذاكرة الفلاش عليه، كان هناك ملف واحد يحوي مجموعة من الصور، كل صورة محفوظة برقم متسلسل حتى الرقم 30، بدأ بالنقر على الصور بدءا من الصورة رقم 1، كانت الصورة لقرار من الجمارك يفيد بوصول شحنة كبيرة

مـن المـواد الغذائيـة، قامـت باسـتيرادها إحـدى المنظـمات التابعـة لأحـد رمـوز التنظيـم الحاكـم، يفيـد خطـاب الجـمارك أنّ الشـحنة تـم فحصهـا وصـدر قـرار بإتلافهـا بسـبب انتهـاء صلاحيتهـا منـذ عـدة شـهور، الصـورة الثانيـة خطـاب يشـير إلى تخليـص شـحنة غذائيـة مـن الجـمارك، والشـحنة تحمـل نفـس رقـم الشـحنة الأولى التـي يفـترض أنهـا أُتلفـت بسـبب انتهـاء صلاحيتهـا. ومسـتندات أخـرى حـول بيـع مؤسسـات حكوميـة خـاسرة إلى أعضـاء في التنظيـم الحاكـم، ومعلومـات حـول شركات تتبـع لنافذيـن في التنظيـم الحاكـم تعمـل مجـرد واجهـات لعمليـات غسـيل أمـوال، وكشـف حسـابات بنـوك سريـة في الخـارج وأرقـام ومعلومـات حسـابات بنـوك في ماليزيـا.

أغلـق رئيـس التحريـر الملـف قبـل أن يكمـل مطالعـة كل صـور المسـتندات، قـال بصـوت خائـف مرتبـك: تـسرّب معلومـة واحـدة مـن هـذه الذاكـرة مخاطـرة كبـيرة!

قالـت هاجـر: هـذا كنـز وقـع بـين أيدينـا، يجـب أن نقـوم بعمـل مـا، لا نسـتطيع بعـد الان أن نقـول إننـا لم نـر شـيئا، أعطانـا الرجـل أمانـة! ودفـع حياتـه ثمنـا!

كان محمـد نـور الديـن غارقـا في التفكـير، تحـدث هامسـا، جريدتنـا لا تـزال تحبـو، اسـتنفذنا تقريبـا كل مـا نملـك وبـدأت الميزانيـة في التراجـع بسرعـة، ونسـعى للاسـتمرار لأطـول فـترة، وهـم يتربصـون بنـا منـذ أول لحظـة، سـيغلقونها وسـيطاردوننا، يجـب أن نفكـر بحـذر شـديد كيـف نتعامـل مـع هـذه المسـتندات، لا داعـي للعجلـة، سـأقوم الآن بنسـخها عـلى الجهـاز وحفـظ الجهـاز بعيـدا ونحتفـظ بذاكـرة الفـلاش في مـكان آخـر، يمكننـا أن نحتفـظ بـه في الصحيفـة في مـكان لا

يخطر على بال أحد، حتى نجده بسهولة حين نتفق على طريقة التعامل مع هذه المعلومات وكيفية توصيل ولو جزء من الحقائق الموجودة فيها للقارئ، بالطبع ستكون هناك احتياطات في التعامل مع ذاكرة الفلاش لتأمينها، وعلى كل حال لا خوف من الاحتفاظ بها في الصحيفة أولا لأن أحدا لن يتصور أننا نحتفظ بمستندات بمثل هذه الخطورة في الصحيفة، وثانيا لدينا نسخة احتياطية في كل الأحوال.

26

سعيد بعد أن شعر أنّ الأحوال هدأت من حوله قام بإخراج المستندات بعد أن اتفق مع صديق لديه خبرة في التعامل مع أجهزة الكمبيوتر، لمساعدته في عمل نسخة من المستندات وحفظها في ذاكرة فلاش حتى يسهل عليه حملها، قام صديقه باستخدام الماسح الضوئي لنسخ صور دقيقة للمستندات وحفظها في جهاز الكمبيوتر، استغرق ذلك عدة ساعات بسبب العدد الكبير لكل محاضر اجتماعات لجنة التحقيق إضافة للمستندات المرفقة. كان سعيد قد أحضر معه ذاكرة فلاش، لكن الصديق وجد أن حجمها صغير لا تتسع لتخزين كل صور المستندات، قرّر سعيد أن يذهب لإحضار ذاكرة بحجم أكبر، لكنه تردد قليلا بعد أن استعد للخروج، قال: أخشى أن يشعر أحدهم أنني أبحث عن ذاكرة فلاش سعيدويعتقدون أنني أنوي تخزين معلومات فيها! لم ألاحظ أية تحركات مريبة لكن ربما لا أزال تحت المراقبة!

فكّر صديقه وطلب من سعيد أن ينتظر قليلا ربما يستطيع العثور على واحدة، عاد بعد قليل بذاكرة فلاش كبيرة الحجم، قام بمسح بعض الملفات القديمة التي كان يحتفظ بها في الذاكرة، قبل أن يشرح لسعيد فكرته لتأمين المعلومات: سأحتفظ لك بنسخة المستندات في جهازي لبعض الوقت، رغم أنني أخشى أن تتسبب لي في مشاكل، لكن باعتبار أنني بعيد عن الشبهات لا أتوقع اية مشكلة، وفي كل الأحوال أرجو أن تبلغني حين تشعر أنك لا تحتاج

لنسخة احتياطية حتى أقوم بمسح الملفات من جهاز الكمبيوتر، أو يمكنني أيضا أن أقوم بنسخها في ذاكرة فلاش وحفظها وإتلاف ملفات الكمبيوتر، وافقه سعيد على ذلك وشكره على مساعدته القيمة.

بعد ذلك قام بإعادة المستندات إلى نفس مكانها القديم، حتى لا يلفت الانتباه قام سعيد بمواصلة العمل كالعادة، أعطاه صاحب الورشة كل مستحقاته خلال فترة اعتقاله ومعها مبلغ إضافي واعتذر له بسبب ركود السوق في الفترة الأخيرة، وأنّ الأعمال ليست مزدهرة كما في السابق، كان يجني أرباحا جيدة من بيع قطع الغيار لزبائنه بجانب صيانة العربات، لكن بسبب تدهور الأحوال الاقتصادية لمعظم الناس، أصبح معظم الزبائن يفضلون شراء قطع غيار مستعملة بسبب رخص ثمنها، اشترى منه صاحب الورشة أيضا عربته القديمة، التي لم يستطع سعيد عرضها في السوق حتى لا يشعر أحدهم بأنه يبيع ممتلكاته، حتى أنّ السيارة ستظل مسجلة باسم سعيد حتى بعد سفره.

كانت خطة سعيد أن يعبر الحدود الغربية إلى ليبيا، ثم يحاول الوصول إلى أحد القوارب التي تقوم بنقل المهاجرين إلى أوربا.

حتى لا يلفت الأنظار إلى سفره إن كانت هناك بعض الجهات لا تزال تراقبه، قرّر سعيد أن يسافر أثناء عطلة عيد الأضحى، فلن يلاحظ أحد على الأقل خلال أيام العيد أنّ هناك شيء غير طبيعي، فقد كان معتادا منذ سنوات على قضاء عطلة عيد الأضحى مع أسرته في مدينة النهود، استقلّ البص إلى مدينة النهود، قضى هناك ثلاثة أيام ، أخبر أسرته أنه لن يبق معهم أسبوعين أو أكثر

كالمعتاد، سيسافر ليتسلم عملا جديدا. شعرت والدته بخيبة أمل، كانت تتوقع منه أن يكمل زواجه على ابنة خالته كما وعد في آخر رسائله، وافق إرضاء لأمه على أن يقوم بعمل احتفال صغير لإعلان خطوبته، وعد والدته: خلال عامين على الأكثر سنتزوج.

ورغم أن الأسرة كانت حريصة على احتفال صغير احتراما لمشاعر أسرة العم عثمان والد النقيب عبد الله، لكن كمال شقيقه الأصغر وبعض أصدقاء وزملاء طفولة سعيد، فاجئوه بإحضار فرقة موسيقية مع مغن شاب، فتحولت المناسبة الصغيرة إلى حفل امتد لساعات الصباح، حذّرهم والد سعيد من مشكلة محتملة مع الشرطة بسبب قانون يُحدد موعد انتهاء الحفلات قبل منتصف الليل، لكن زملاء سعيد طمأنوه أنّ الشرطة تغض الطرف غالبا عن الحفلات في فترة الأعياد.

بدت سيدة خطيبته في غاية الجمال في ثوبها الأحمر، ذهب سعيد في يوم العيد للسلام على عمه عثمان، والد النقيب عبد الله، اكتشف أن الأسرة عرفت فقط قبل أسابيع بخبر اختفاء ابنهم، حاول سعيد أن يخفّف من قلقهم على عبد الله، كانت الام جزعة جدا واستغرقت في البكاء حين رأت سعيد أمامها، العم عثمان كان متماسكا رغم الحزن البادي في وجهه، أوضح لهم سعيد أنه تحدث مع ضابط في الشرطة تربطه به صداقة، وقد وعد أن يسعى بطرقه الخاصة لمعرفة المكان الذي يحتجز فيه النقيب عبد الله، ويحاول مقابلته ويرى أن كانت هناك إمكانية لتقوم أسرته بزيارته.

لم يكن هناك حديث للناس أيام العيد وحتى أثناء حفل الخطوبة

سوى الأحوال الاقتصادية السيئة والفشل والفساد الحكومي، كان البعض يتحدثون بحسرة حول عدد من المشاريع الزراعية التي بيعت للأجانب، المدرسون الذين لم يتسلموا مرتباتهم طوال أشهر عديدة حتى اضطر بعضهم لركوب درب الهجرة الصعب إلى أوربا عبر ليبيا، خفق قلب سعيد وهو يستمع إلى عدد من المآسي التي تحدث كل يوم بسبب إقدام الشباب اليائس، على الهجرة، عدد كبير يموتون أثناء عبور الصحراء القاحلة، ويتعرض الكثيرون لابتزاز من قوات الحدود التي يقولون إن بعض الدول الأوربية تدفع لهم، لمكافحة سيول الهجرة غير الشرعية التي تيمم كلها من كل بلدان القارة شطر ليبيا، التي تسودها حالة من الفوضى بعد سقوط نظام معمر القذافي، كما يقع الكثيرون في براثن عصابات تتاجر بالأعضاء البشرية أو تستغل المهاجرين، وسمع عن مهاجرين بيعوا كرقيق لبعض ملّاك المصانع أو المشاريع الزراعية في ليبيا، ومن كان حظه أفضل استطاع الوصول إلى البحر وركوب مراكب متهالكة ينتهي أكثر من نصفها بكل ما تحمل في قاع البحر.

باح سعيد بالسر فقط لكمال شقيقه ولسيدة، حين ذهب لوداعها، قال بحذر، المستقبل في هذا البلد بات مجهولا ربما أحاول السفر بحثا عن فرصة خارج الوطن!

قالت سيدة: هل ستحاول السفر إلى السعودية؟

قال سعيد: كلا، أريد أن أجرّب حظي في الهجرة لأوروبا

تغير وجه سيدة، وقالت: لا تفعل، ستتحسن الأحوال في هذه البلاد، لا تتعجل، يمكنك أن تبقى هنا وتبدأ عملا خاصا، ورشة

صغـيرة لصيانــة السـيارات، سـمعت أنّ بعـض النـاس بسـبب عـدم وجـود خدمـات صيانـة جيـدة هنـا للعربـات، يضطـرون لنقـل عرباتهـم إلى الخرطـوم لصيانتهـا هنـاك!

لم يشـأ سـعيد أن يوضـح لهـا أكـثر، قـال فقـط إنـه يأمـل أن يتمكـن قريبـا مـن حسـم كل أمـوره. أوضـح لهـا: لـن تطـول الغربـة، فقـط مـا يكفـي لتتحسـن الأحـوال قليـلا لأبـدأ مشروعـا خاصـا.

ودّعتـه سـيدة حتـى بـاب البيـت، رأتـه يضيـع في عتمـة الشـارع الغـارق في المغيـب، بـدا لهـا كأن العـالم كلـه، السـحب التـي كانـت تتجمـع ببـطء، كرنفـال المغيـب، الظلمـة الزاحفـة، كلهـا كانـت تتجمـع مثـل حواجـز مـن الذكـرى، مثـل سـحب خريـف لا يمـت بصلـة لهـذا العـالم، فقـط لتحجـب صورتـه، قبـل أن تتخلـل العتمـة صورتـه، ليبـق لهـا فقـط لبرهـة قصـيرة نبـض خطواتـه الزاحفـة إلى المجهـول، دون أن تنتبـه إلى دقّـات قلبهـا التـي كانـت تشـير إلى نذيـر شـؤم تـلاشي تلـك الصـورة، قبـل أن تبتلعهـا عتمـة المغيـب إلى الأبـد.

كان سـعيد قـد قـام بوضـع ذاكـرة الفـلاش التـي تحـوي المسـتندات في قطعـة بلاسـتيك، وربطهـا جيـدا تحسـبا لاحتـمال عبـوره البحـر، وقام بخياطتهـا في قميـص الجينـز السـميك الـذي سـيرتديه أثنـاء الرحلـة.

رافقـه كـمال شـقيقه حتـى موقـف الحافـلات، اسـتقل حافلـة صغيرة تسـع عـشرة ركاب مسـاء إلى مدينـة الفـاشر، لم يتوقـف كثـيرا في الفـاشر بـل اسـتقل سـيارة أخـرى إلى مليّـط، وصـل مليـط مـع مشـارف الصبـاح، اتصـل مـن محطـة البـص بالشـخص الـذي ينظّـم الرحلـة إلى ليبيـا، طلـب منـه الانتظـار في مكانـه، حـضر بعـد قليـل ورافقـه إلى بيـت في أطـراف

المدينة سيقضي فيه النهار مع زملائه في الرحلة التي ستنطلق ليلا، مساء جاء الخبير بمسالك الصحراء الذي سيصحبهم في الرحلة عبر الصحراء، أوضح لهم أنه كان يفضل أن تكون الرحلة بالسيارات لكن زملائه يفضلون الإبل، آخر رحلة بالسيارات قبل أشهر انتهت نهاية مأساوية حين أغارت طائرات حربية على القافلة، الدواعش ينشطون في المنطقة الحدودية ويحتجزون بعض المسافرين رهائن يساومون أسرهم لدفع فدية قبل إطلاق سراحهم، وأحيانا يقومون بقتل الأسرى الذين لا يستطيعون الوصول إلى أسرهم لطلب الفدية، السيارات يسهل رصدها واستهدافها أما الجمال فتسلك مسالك وعرة بعيدا عن العيون.

تأكد أنّ كميات الماء التي طلب إعدادها جاهزة كلها إضافة إلى الخبز المجفف والشاي والسكر والدقيق والبصل، ثم قاموا بتحميل الأشياء كلها على الجمال وربطها جيدا، أوضح لهم ضرورة الاقتصاد في شراب الماء وأنّ الكوارث التي حدثت في الصحراء لعدد من المهاجرين سببها استهلاكهم كميات الماء خلال أيام قليلة، وأنهم بحاجة لحوالي 5 أسابيع قبل الوصول إلى مصراتة على ساحل البحر، وأوضح أن الرحلة قد تستغرق وقتا أطول قليلا لأنّهم قد يضطرون في أحيان كثيرة للتوقف أثناء النهار حتى لا يلفتون أنظار قوات الحدود التي أرسلتها الحكومة لتجوب الصحاري، لمكافحة الهجرة غير الشرعية بالتنسيق مع بعض الحكومات الأوربية، لمنعهم من الوصول إلى الحدود الليبية، تساءل أحد رفاق الرحلة عما قد يحدث إن عثرت عليهم قوّات الحدود؟ قال الخبير: لم يحدث لي أن التقيت بهم في رحلاتي، لكنني سمعت أنهم يبتزون

المهاجريـن ويطلبـون مبالـغ مـن المـال حتـى يسـمحوا للقافلـة أن تواصـل المسـير إلى الحـدود الليبيـة.

ثـم أوضـح لهـم أنّ شـخصا آخـرا سـيتولى تنظيـم رحلتهـم إلى أوروبـا مـن هنـاك، عليهـم التفـاوض معـه بعـد الوصـول، سـأله أحـد الشـباب المسـافرين: كـم يومـا سـننتظر قبـل أن نسـتقل القـارب إلى أوروبـا؟ فكّـر الرجـل قليـلا ثـم قـال: سـيشرح لكـم منسـق الرحلـة في مصراتـة كل شيء، ربمـا تنتظـرون بضعـة أيـام، تبـدأ الرحلـة دائمـا حـين يكـون البحـر هادئـا، كـما سـتجدون في الغالـب أشـخاصا آخريـن في الانتظـار وصلـوا أولا، سيسـافرون هـم في البدايـة، قبـل أن يـأتي دوركـم.

تسـلّم الخبـير ثلاثـة ملايـين جنيـه مـن كل مسـافر، كان عددهـم ثمانيـة أشـخاص، فيهـم أربعـة شـبّان مـن أريتريـا، وأسرة صغـيرة مـن أثيوبيـا مكونـة مـن رجـل وامـرأة وطفـل عمـره سـبعة أعـوام.

27

يـوم عيـد الأضحـى كان السـيد الرئيـس يتلقـى التهـاني مـن ضبـاط الجيـش والـوزراء، حـين توقـف فجـأة وسـأل الرجـل الـذي بـادره بالتحيـة العسـكرية ثـم صافحـه بحـرارة: أيـن كنـت طـوال سـنوات يـا جـنرال الأيـام الصعبـة! كان السـيد الرئيـس يطلـق عليـه جـنرال الأيـام الصعبـة، لأنـه لم يكـن يرتـدي البـزة العسـكرية إلا نـادرا، وحـين يرتديهـا وتلمـع النجـوم الأربعـة الذهبيـة في كتفـه، يعـرف السـيد الرئيـس أن هنـاك مشـكلة مـا تهـدد وجـود النظـام نفسـه، كان آخـر مـرة يـراه فيهـا مرتديـا البـزة العسـكرية يـوم انشـقاق الحركـة الإسـلامية.

نعمل في صمت سيدي الرئيس في خدمتكم!

اسـتبقاه السـيد الرئيـس بجانبـه بعـد أن انـصرف ضبـاط الجيـش والـوزراء.

لم أرك منـذ أداء القسـم، سـألت عليـك كثـيرا، كانـوا يقولـون لي دائمـا إنـك مسـافر! كيـف تسـافر دون أن تخـبرني؟

لابـد أنـك نسـيت سـيدي الرئيـس، ألا تذكـر آخـر اجتـماع لنـا قبـل حـوالي العـام؟ لقـد طلبـت منـي أن أقـوم بإنشـاء قـوة جديـدة اتفقنـا أن نسـميها الحـرس الجمهـوري!

الفريـق عـوض سـليمان مستشـار السـيد الرئيـس للشـئون الأمنيـة ورئيـس جهـاز الأمـن السـابق، في المـرة الأخـيرة التـي رآه فيهـا السـيد الرئيـس كان لا يـزال في رتبـة اللـواء، كان البعـض يضحكـون سرا قائلـين

إنـه أنعـم عـلى نفسـه بهـذه الرتبـة حـين تـم تعيينـه بعـد نجـاح الانقـلاب رئيسـا لجهـاز الأمـن، كان هـو المنسـق العـام لجهـاز الأمـن التابـع للتنظيـم الإخـواني، أحـد الأذرع الرئيسـية التـي دبّـرت الانقـلاب، وكان مسـئولا أيضـا عـن تهيئـة الشـارع للانقـلاب، حـين قـرر السـيد الرئيـس إعادتـه لجهـاز الأمـن، تجاهـل همـس بعـض مسـاعديه: جنرالـك الـذي عينتـه مديـرا لجهـاز الأمـن سـيدي الرئيـس لم يدخـل الكليـة الحربيـة أبـدا، ولا حتـى لمجـرد زيـارة شـخص مـا، لكـن مـن يـرى أرطـال الأوسـمة التـي يحملهـا فـوق صـدره، يعتقـد أنـه هـو مـن قـام بتأسـيس الكليـة الحربيـة!

يـبـدو في نظاراتـه الطبيـة وجسـمه الضئيـل وشـعره الأشـيب وابتسـامته الوقـورة، أشـبه بباحـث أكاديمـي، أوضـح بهـدوء: سـافرت كثـيرا في أنحـاء الوطـن سـيدي الرئيـس، راجعـت كل شيء، وجمعـت الرجـال الأوفيـاء الذيـن يمكننـا الاعتـماد عليهـم وأعـددت العُـدة لـكل شيء!

غسـل يديـه ببسـاطة مـن كل جرائـم تنظيمـه، غسـل يديـه مـن جرائـم التعذيـب، مـن بيـوت الأشـباح التـي كانـت مـن بنـات أفـكاره، مـن الإخفـاء القسـري للمعارضـين في عهـده الأول، اعـترف بهـدوء : الحركـة الإسـلامية فشـلت في إدارة الوطـن، انفصـل الجنـوب بسـبب مـن سياسـاتهم، والحـرب لا تـزال تـدور في دارفـور وجبـال النوبـة والنيـل الأزرق، نصـف أراضي الوطـن بيعـت لـشركات أجنبيـة، والمؤسسـات والمشـاريع الوطنيـة الكبـيرة بِيعـت أو نُهبـت، أمـوال الذهـب والبـترول تحولـت إلى أرصـدة في الخـارج أو قصـور وفلـل في تركيـا وماليزيـا، رغـم ذلـك لا يمكـن التخلـص مـن التنظيـم كلـه، أصبـح

التنظيـم الإسـلامي مثـل شـجرة مسـكيت، مـدّد عروقـه في كل مـكان، يمتـص المـاء مـن التربـة بـدون رحمـة ويفسـدها فـلا تصبـح صالحـة لزراعـة أيـة شيء عليهـا ولا حتـى أشـجار العُـشر! تقتلعـه مـن مـكان فيظهـر في مـكان آخـر، إبعادهـم سـيكون مغامـرة خطـيرة، يملكـون كل شيء، سـيقاومون حتـى المـوت محاولـة إبعادهـم. يتغلغلـون في كل شيء حتـى في جهـاز الأمـن الـذي قمـت بتنظيفهـم منـه بعـد الانشـقاق! إبعادهـم سـيجعل مسـئولية الفشـل التاريخيـة مـن نصيبـك لوحـدك! أفضّـل فقـط أن نبعدهـم مـن الواجهـة، ذلـك سـيعطينا فرصـة لتحسـين علاقاتنـا مـع الكثـير مـن الـدول والمؤسسـات الماليـة الدوليـة، سـيعطينا فرصـة لنلتقـط أنفاسـنا ونحـاول إصـلاح التنظيـم مـن الداخـل وتجديـد دمائـه، أو نعيـد تنظيمـه باسـم وشـكل جديـد! مثلـما ظللنـا نفعـل منـذ تأسـيس التنظيـم قبـل عقـود، لـكل مرحلـة شـكل واسـم جديـد للتنظيـم!

أنـت تقـول إنهـم يملكـون كل شيء، لديهـم ميليشـيات تابعـة للتنظيـم ولديهـم سـلاح، كيـف ستسـتطيع إبعادهـم مـن الواجهـة؟

قـوّات السـلام والتنميـة سـيدي الرئيـس، أنشـأناها مـن بقايـا قـوات الجنجويـد، هـل تذكرهـا سـيدي الرئيـس؟ بعـد دخـول قـوات الأمـم المتحـدة إلى دارفـور لم يعـد لديهـم عمـل، عـادوا للنهـب والسـلب، حاولنـا اسـتيعابهم في مشـاريع الزراعـة المطريـة، دربناهـم عـلى مكافحـة الكـوارث لنضمهـم للدفـاع المـدني، لم ينجحـوا في ذلـك، مؤهلين أكـثر لصناعـة الكـوارث وليـس مكافحتهـا. لا يجيـدون سـوى الحـرب، إذا طلبـت منهـم تنظيـف منطقـة مـا مـن التمـرد، يحيلونهـا إلى رمـاد في بضـع سـاعات، إن طلبـت منهـم شـق جـدول في مـشروع زراعـي،

يشـقه في العـادة ثلاثـة مزارعـين في سـاعة واحـدة، يسـتغرق منهـم هـذا العمـل عـدة أيـام وفي النهايـة لا يصلـح الجـدول لنقـل المـاء، يحفرونـه تمامـا مثـل خنـدق لا ينقصـه سـوى بعـض الاسـتحكامات ليصبـح جاهـزا للحـرب!

قمنـا بتدريبهـم عـلى أحـدث الأسـلحة، وبسـبب ضعـف الجيـش عهدنـا لهـم بمهمـة محاربـة التمـرد الجديـد الـذي ظهـر بعـد انفصـال الجنـوب، كـما عهدنـا لهـم حراسـة الحـدود بعـد أن وقّعنـا اتفاقـا مـع الاتحـاد الأوربي لمحاربـة الهجـرة غـير الشرعيـة، بسـبب الفـوضى في ليبيـا بعـد سـقوط حكـم العقيـد الراحـل معمـر القـذافي، أصبحـت بلادنـا معـبرا للهجـرة غـير الشرعيـة القادمـة مـن أواسـط وشرق القـارة، الشـباب في كل مـكان يتجهـون صـوب البحـر، لا توجـد حيـاة في نظرهـم إلا فيـما وراء البحـار، يعرفـون أنّ الوصـول إلى الجانـب الآخـر مـن البحـر دونـه المـوت، لكنهـم يحثـون الخطـى تجاهـه ليـلا ونهـارا، ولأنّ مصائـب قـوم عنـد قـوم فوائـد، أبلغنـا هـؤلاء الأوربيـين، نحـن وحدنـا مـن يسـتطيع إيقـاف سـيل الهجـرة، نحـن متخصصـون في صـد السـيول، سـيول المـاء التـي تهبـط علينـا في الخريـف مـن قمـم الجبـال، وسـيول البـشر التـي تهبـط علينـا مـن مجاهـل القـارة. ورغـم أننـا أيضـا كنـا نصـدّر المهاجريـن إلى مـا وراء البحـر، لكـن الأوربيـون صدّقونـا ووقعـوا معنـا اتفاقـا، ودفعـوا لنـا تكلفـة إيقـاف السـيول البشريـة.

تقصد أنّ قوات الحدود هذه ستقوم بحماية التغيير الأخير

نعم، ألم تر الملك أركماني قبل أيام أثناء نومك!

كيف عرفت؟ هل تتجسسون حتى على أحلامي؟

نحن لا نتجسس على فخامتك، نحن نقوم بواجبنا لحمايتك!

عـرف بعـد تفكـير عميـق أن الأمـر يخلـو مـن أيـة خـوارق تسـمح لهـم بالنفـاذ إلى عقلـه النائـم، وأنّ الأمـر لا يعـدو اسـتخدامهم الهمجـي لمعجـزات الثـورة التكنولوجيـة، فقـد تذكّـر أنـه يبحـث دائمـا في قوقـل عـن تفسـير لأحلامـه.

وماذا تعني لك رؤية الملك أركاماني!

الملـك أركامـاني لم يسـتجب لأمـر الكهنـة بالانتحـار، بـدلا مـن أن ينتحـر قـام بنحرهـم وتـولى الحكـم مـدى الحيـاة! قبـل أركامـاني كانـت سـلطة الإلـه هـي الأقـوى!

أي إله تقصد؟

آمون!

ومن هم الذين ستقوم قوات الحدود بنحرهم؟

ابتسم الفريق عوض بمكر هادئ وقال: الكهنة!

لقد قلت إنك ستكتفي بإبعادهم من الواجهة!

يجـب أن نحتجـز بعـض قيـادات الحركـة الإسـلامية حتـى نعيـد ترتيـب الأوضـاع، سـيكون الغطـاء هو محاربة الفسـاد الذي اسـتشرى في الدولـة، كلهـم غارقـون في الفسـاد، تسـتطيع تحديـد حجـم الفسـاد مـن حجـم اللحـى، ومقـدار الخشـوع! الذيـن يبكـون أثنـاء خطبـة الجمعـة، حتـى تتبلـل لحاهـم وتتبلـل الأرض تحـت أقدامهـم، هـم مـن يملكـون الفلـل في تركيـا والأرصـدة في ماليزيـا، هـم مـن يهرّبـون الذهـب عـبر المطـار، ويسـتخدمون الحقائـب الدبلوماسـية لتهريب الأحجـار الثمينة!

ومتى سيتم التنفيذ!

ننتظر توقيعك على أمر التحرُّك! اسم العملية سيكون أركاماني الثاني! هذه أول عملية نستلهم اسمها من أحلام صاحب الفخامة!

قال بوقار وطني تشوبه مسحة دينية كأنه يستعير صفة الإله آمون بدلا من أن يحاربه: لتبدءوا على بركة الله! أوضح مبتسما: هذا أمر وليس خشوعا فاسدا!

رأى نفسه في جهاز التلفزيون يقرأ بيانا ينسب فيه تردي الأوضاع الاقتصادية بسبب الفساد الذي استشرى في كل المرافق، ولم تنفع من أجل مكافحته كل السبل، وأنه كان السبب الرئيسي في فشل كل الخطط التي وضعت لإنقاذ الاقتصاد المنهار، ولم يعد من مجال لعلاج سرطان الفساد سوى بالجراحة.

كانت قوات السلام والتنمية منتشرة في المدينة صباح اليوم التالي، تحرس المؤسسات الحكومية ومقار بعض الأحزاب السياسية، أصبح اللواء عوض سليمان نائبا للرئيس، إضافة لمنصبه القديم مديرا لجهاز الأمن والمخابرات، اقترح السيد الرئيس أن تتبع قوّات السلام والتنمية لرئاسة الجمهورية، له شخصيا، قال: سيخفف ذلك من أعبائك ويعطي هذه القوات المهمة مظهرا قوميا.

28

قبل بدء الرحلة مباشرة من مليط، قام الخبير بسقي الجمال التي تعمدوا تركها عطشى طوال أيام حتى تشرب في اللحظة الأخيرة أكبر قدر من المياه، فلا تشعر بالعطش مرة أخرى قبل وصولهم إلى واحة النخيلة التي تقع في منتصف طريق الرحلة.

الجو كان لا يزال لطيفا عقب موسم الأمطار حين بدءوا رحلتهم، لكن حرارة الجو بدأت في الارتفاع كلما اتجهوا شمالا، يُفضّل قائد الرحلة مواصلة السفر ليلا، رغم حاجة المسافرين للراحة، لأنه يستطيع تحديد اتجاه الرحلة بسهولة بواسطة النجوم، سعيد كان منظر النجوم المتراصة مثل الجواهر في قبة السماء يعيد إليه ذكريات طفولة سعيدة، رأى نفسه مع شقيقه كمال ومع عدد من زملاء المدرسة يذهبون إلى الفولة، التي امتلأت ذلك العام بماء المطر وفاضت المياه وأغرقت أجزاء من المدينة، لحسن الحظ لم يتأثر بيتهم كثيرا لأن البيت يقع في منطقة عالية قليلا، في موسم الجفاف كانت المدرسة تُنظم رحلة سنوية للتلاميذ إلى جبل حيدوب الذي تقع المدينة على سفوحه، وسط مزارع الفول السوداني الواسعة، والده كان يملك مزرعة صغيرة، يزرع الفول السوداني والكركدي. لم يكن إنتاج المزرعة كبيرا لكنه كان كافيا لأسرتهم الصغيرة.

كانت الرحلة شاقة جدا وحرارة الشمس تكاد تذيب أجسادهم، في البداية كان الجو محتملا حين كانوا لا يزالون في

نطاق الحزام الواقع في حدود المطر، لكنهم كلما اتجهوا شمالا كانت درجة الحرارة تصبح لا تطاق، عبروا وادي هور وتزودوا بالمياه قبل الانطلاق في الرحلة النهائية إلى الحدود الليبية، مرض الطفل الأثيوبي وأمه وأشرفا على الهلاك، قريبا من الحدود الليبية نفد الماء، قاموا بذبح أحد الجمال لكن الماء الذي عثروا عليه في بطن الجمل كان قليلا جدا، ولم يستطع الجميع شربه، ظهرت عليهم أعراض الجفاف الشديد، كان سعيد يشعر كأن العالم كله يدور من حوله، يشعر بآلام جسده تتسرب الى قاع روحه، أصابته حالة من الذهول لم يعد يعي معها شيئا مما يدور حوله، حتى أنه لم يعرف كيف استطاع أن ينيخ الجمل ويستلقي أرضا فوق الرمال الحارقة، رأى ما يشبه شبحا يلبس ثوبا أحمر يقترب منه، كانت سيدة يراها تقترب منه وفجأة تبدو كأنها تطير بعيدا في الفضاء.

فجأة بدأ ينتبه على ما يشبه صوت سيارة، رفع رأسه فرأى أشباحا معلقة في نهر السراب من حوله، سمع صوتا يقول: لا تعطوهم ماء، اسقوهم قليلا من الشاي، شعر بشخص يبلل له رأسه ويمد له كوبا به سائل أحمر، شرب منه وهو لا يزال نصف مستلق على الأرض الساخنة، توفي اثنان من أفراد القافلة، الطفل الأثيوبي ومهاجر أريتري، انتبه سعيد على صوت والدة الطفل تبكي فوق جسده المتيبس، حين حلّ المساء، شرب سعيد مزيدا من الشاي وشعر ببعض الانتعاش، كانوا أكثر حظا لم تكن المجموعة التي أنقذتهم تتبع لقوات السلام والتنمية، بل لإحدى الجماعات المتمردة في إقليم دارفور، أعطوهم ماء ومزيدا من المواد الغذائية

وساعدوهم في دفن الموتى، قبل أن يغادروا في اتجاه المجهول، أعلن الخبير: لم يبق لنا سوى مسيرة يوم واحد لنصل إلى العوينات.

في العوينات تزودوا بالماء، وبعض المواد الغذائية، كان عدد الجمال قد نقص بسبب ذبح جملين للحصول على الماء، اقترح الخبير أن يواصلوا الرحلة بالسيارة إلى مصراتة، قال إنّ عدد الجمال قد نقص وهي تبدو مجهدة جدا كما أنهم أيضا تعرضوا للإجهاد الشديد، سأله سعيد كيف سنحصل على سيارة؟ وهل سيكون الطريق آمنا في ظل الانفلات الأمني؟ هل يحتمل أن تتعرض لهم قوّات رسمية أو مجموعات مسلحة قد تعوقهم؟

قال سعيد: سمعنا أنّ الكثير من الأجانب تعرضوا لهجمات تنظيم داعش وتنظيمات متطرفة أخرى، وهل يجب أن ندفع تكلفة إضافية رغم أننا دفعنا تكلفة الرحلة حتى مصراتة؟

قال الخبير إنهم ربما سيدفعون مبلغا إضافيا قليلا، وأنهم سيتولون إحضار سيارة تنقلهم بقية الرحلة، أوضح أنّ طريق السيارة آمن، أنّ معظم المهاجرين يفضلون قوافل الجمال في الجزء الأول من الرحلة بسبب انتشار قوات السلام والتنمية لكن داخل حدود ليبيا، تتساوى تقريبا حظوظ قوافل الجمال والعربات، بعض التنظيمات المتطرفة نشطة في بعض المناطق، لذلك تقوم الجهات التي تنظم رحلات القوارب على حماية قواربها حتى تغادر المياه الإقليمية، كما أن رحلة السيارة تستغرق يوما واحدا وليس عدة أيام مثل الرحلة بالإبل مما يقلل فرص التعرض لأخطار الطريق.

كانت المجموعة منهكة جدا، استغرقوا جميعا في النوم، في

الصباح شربوا الشاي وأعد لهم الخبير وجبة من اللحم المجفف والبصل والطماطم المجفف، أبلغهم أنّه قام بالاتصال مع المجموعة التي يعمل معها وستصل سيارة تنقلهم إلى مصراتة وأنّ على كل واحد فيهم دفع خمسمائة جنية إضافية، تحفّظ بعضهم على المبلغ الإضافي، كانوا يخشون أن تكون تكلفة السفر عبر البحر أكبر من توقعاتهم.

أوضح لهم الخبير أنّ السيارة التي ستنقلهم تابعة للمجموعة التي ستتولى ترحيلهم إلى أوروبا.

استغرقت الرحلة وقتا أطول لأن السائق الخبير كان يسلك أحيانا طرقا بعيدة غير معبدة ليتفادى نقاط التفتيش، توقفوا مرة واحدة طوال يوم كامل ليقضوا حاجتهم بسرعة ويواصلوا الرحلة، حين اقتربت السيارة من المدينة بدأت تهدئ سرعتها لحين حلول الليل، توقف السائق أخيرا في شارع جانبي وتقدم المجموعة إلى شقة في بيت قديم، كانت الشقة كبيرة لكنها مزدحمة بالناس، أخبرهم السائق أنّ الرجل الذي سيتولى تنسيق الرحلة سيحضر صباحا ليتفق معهم، كانت غرف البيت كلها مشغولة بعدد من الأُسر، وعدد كبير من الأطفال، وضعت المجموعة أشيائها القليلة في صالة البيت واستلقوا أرضا، سمعوا بعد قليل حركة دخول شخص ما إلى البيت، ثم اكتشفوا صباحا أن كلّ نزلاء البيت غادروه مساء في رحلتهم عبر البحر، كان البيت في غاية القذارة بسبب استخدامه من طرف عدد كبير من الناس يوميا، حفاضات أطفال ملقاة أرضا، وغبار يغطي كل شيء، وأواني الاكل وأكواب الشاي ملقاة في أي مكان، اقترح أحد أفراد المجموعة أن يقوموا بتنظيف البيت،

لكن أحدهم اعترض: هل نحتاج إلى ذلك، ربما نسافر اليوم، أثناء ذلك جاء الرجل المسئول عن تنسيق الرحلة، قال أنّ الرحلة سيتم ترتيبها خلال سبعة أيام، أخبرهم أنه سيحضر أو سيرسل شخصا سيعطيهم اسمه كل يوم لإحضار احتياجاتهم من الغذاء والماء، وعليهم الاتصال به أن احتاجوا لأية شيء، وأن عليهم عدم الخروج من البيت مطلقا لأنّهم قد يتعرضون للاختطاف من بعض العصابات التي تتبع لبعض الجماعات المتطرفة، ونبههم إلى إغلاق باب البيت جيدا وعدم فتح الباب إلا بعد التأكد من شخصية الطارق، شرح لهم باختصار بعض ترتيبات الرحلة عبر البحر والمخاطر المحتملة، هناك قارب صغير به بعض المسلحين سيقوم بمرافقتهم حتى حدود المياه الدولية، لحمايتهم من خطر العصابات والجماعات المتطرفة التي تنشط في البحر، ثم طلب من كل واحد منهم دفع مبلغ ثمانمائة دولار، لم يتبق مع سعيد بعد دفع المبلغ سوى مائة دولار لم يكن متأكدا إن كانت كافية لمقابلة منصرفات الجزء الأخير من الرحلة قبل الوصول إلى الوجهة النهائية.

قضوا يومهم في نظافة البيت وإعداد الطعام، لحسن حظهم لم يحضر مهاجرون جدد، فبقي البيت هادئا نسبيا مقارنة بيوم وصولهم، مساء أخلدوا للنوم مبكرا على أمل أن يوقظهم منسق الرحلة، ليستأنفوا رحلة الهروب عبر البحر تلك الليلة، لم يدر بخلدهم أبدا أنّ عددا من الدواعش هم من سيقومون بإيقاظهم من النوم!

29

سيدي الرئيس نحتاج بصورة عاجلة لشراء مواد بترولية وقمح، شركات البترول ترفض تزويدنا بالمواد البترولية ما لم ندفع مقدما!

هذا كل ما وجدناه في خزينة الوطن سيدي الرئيس، مائة دولار وعشرة جنيهات إسترليني وألف ليرة تركية ومائة ين ياباني!

كم تساوي مائة ين ياباني بالدولار؟

دولار واحد سيدي الرئيس!

هل انهارت عملة اليابان أيضا!؟ إنها تكاد تصبح مثل عملتنا! رغم أننا لا نصنع لا سيارات ولا أجهزة تلفزيون، نحن تقريبا لا نصنع الآن شيئا سوى المريسة! وحتى المريسة لم نعد نجيد صناعتها، ويضيف لها الباعة الكثير من الماء! معظم السكارى في ضواحي العاصمة النائية، يشربون خمرا مغشوشة بالماء! لكن بسبب سوء التغذية، يكفي شراب أية شئ لافقادهم الوعي! في الزمن الماضي كان شرب كوب واحد يكفي لتفقد الوعي، أما الان تشرب برميلا كاملا وتظل في كامل وعيك!

لا نصنع شيئا رغم أننا استولينا على السلطة بذريعة تحقيق التنمية الشاملة والاكتفاء الذاتي، وكان أهم شعارات الثورة أننا سنصبح خلال خمس سنوات تايوان أفريقيا، مضت ثلاثة عقود ونحن على وشك فقط أن نصبح ميديلين أفريقيا!

يقال سيدي الرئيس أنّ جهاز الأمن والمخابرات هو الذي يدخل

كل هـذه المخـدرات إلى البـلاد لشـغل الشـباب عـن التظاهـر ضـد النظـام!

قـال أحـد مسـاعديه: لا تصـدق هـذه الترهـات سـيدي الرئيـس، لقـد حققنـا الاكتفـاء الـذاتي! نسـتورد فقـط القمـح والـدواء، حققنـا الاكتفـاء الـذاتي مـن القنابـل المسـيلة للدمـوع! نقـوم بإنتاجهـا في مصنـع الأسـلحة والذخـيرة الوطنـي! يقـال إنـه بنـاء عـلى تعليـمات جهـاز الأمـن والمخابـرات الوطنـي يقومـون في مصنـع الأسـلحة بحشـو القنابـل المسيلة للدمـوع بالمخـدرات، ذلـك هـو السبب الـذي يجعـل المظاهـرات ضـد السـلطة الشرعيـة المنتخبـة، تتحـول إلى مظاهـرات غنـاء وطـرب صاخـب! بـل إنهـم يهتفـون بحياتـك سـيدي الرئيـس، ويرفعـون لافتـة مرتجلـة مكتـوب عليهـا: تسـقط الحكومـة ويحيـا سـاكن القـصر، صانـع البهجـة والحبـور، صانـع المطـر!

لم يهتـم السـيد الرئيـس بالأمجـاد الثوريـة التـي يسـبغها عليـه (المسـاطيل)، قـال بغضـب:

وهـل هـذا كل مـا وجدتمـوه في بنـك الوطـن؟ وأيـن عائـدات البترول والذهـب؟ أيـن ذهبـت عائـدات بيـع مشـاريع الوطـن ومؤسسـاته الكـبرى؟

قـال أحـد مساعديه: يقـال إنهـا تحولـت إلى اسـتثمارات في ماليزيـا، فلـل في تركيـا وأمـوال سـائلة في بنـوك سـويسرا! وبعضهـا ذهـب هبـات للتنظيـم الـدولي للإخـوان المسـلمين!

هـذا هـو كل مـا حصلنـا عليـه سـيدي الرئيـس، اضافـة لكشـف حسـاب منصرفـات السـنة الماليـة المنصرمـة، الأمـوال معظمهـا ذهـب

لـشراء السـلاح للحـرب وبعضهـا لـشراء السـلام!

ألم تقولـوا قبـل قليـل أننـا نملـك مصنعـا للأسـلحة؟ لمـاذا نشـتري السـلاح مـن الخـارج إذا؟

المصنـع سـيدي الرئيـس يقـوم بتصنيـع بعـض الأسـلحة الخفيفـة، والمدافـع الرشاشـة والقنابـل المسيلة للدمـوع، لكننـا نحتـاج لطائـرات، ومدافـع مضـادة للـدروع، وعربـات مدرعـة، لا تـزال هنـاك بعـض جيـوب التمـرد في الوطـن سـيدي الرئيـس!

فهمـت أننـا يجـب أن ندفـع المـال لـشراء السـلاح الـذي لا يسـتطيع مصنـع الأسـلحة إنتاجـه، مفهـوم أن ندفـع المـال للحـرب، لمـاذا يجـب أن ندفـع المـال أيضـا للسـلام؟

هنـاك نقـود تدفـع للوسـطاء الذيـن يقنعـون أطـراف الحـرب بالتوقيـع عـلى اتفاقيـة السـلام، هنـاك نقـود دُفعـت حسـب هـذا الكشـف لأحـد الفصائـل المتمـردة ليوقـع عـلى اتفـاق السـلام، وحـين عـاد الفصيـل للتمـرد مـرة أخـرى، دفعـوا لأحـد القـادة الميدانيـين ليقوم بالتمـرد عـلى قيادتـه السياسـية فأصبحـت الحركـة حركتـين، ثـم دفعنـا نقـود لقـادة آخريـن فأصبـح لدينـا بـدلا مـن حركتـين أربـع حـركات، ثـم دفعنـا ليصبـح العـدد الإجـمالي ثمانيـة حـركات، ثـم دفعنـا للثمانيـة حـركات مـرة أخـرى لتُوقـع عـلى اتفاقيـة سـلام جديـدة، أمـام عدسـات وكالات الأنبـاء العالميـة، ثـم دفعنـا لقـادة ميدانيـين آخريـن لشـق الحـركات مـرة أخـرى! لذلـك تتضاعـف تكلفـة السـلام، تكلفـة الحـرب تصبـح أقـلّ مـن تكلفـة السـلام! حـين يكـون هنـاك سـلام يمـرض النـاس كثـيرا، يحتاجـون للـدواء، يحتـاج الأطفـال لمدرسـة، ويحتـاج النـاس

لشوارع ومستشفيات، ومخابز، ونقاط للشرطة. حين يلعلع الرصاص لا يتذكر أحد حتى المرضى حبة الدواء أو قلم الرصاص، الجميع يهربون بجلودهم، لا يبق من واجب على الحكومة سوى توفير الرصاص!

ألقى بالورق جانبا، أحضروا لي أفضل عبقري في الوطن، ساحر، شيطان، أريد من يوفر لي مالا في هذه الخزينة الفارغة!

نفّذ رجال أمنه تعليماته حرفيا، أحضروا له في اليوم الثاني رجلا ضئيل الحجم يكاد جسده الخفيف تحمله الريح حين يمشي في الشارع.

ألقينا القبض عليه بعد بلاغ من إحدى السيدات سيدي الرئيس، كان قد اتفق معها على جلسات لعلاج العقم ثم حاول اغتصابها، وضعناه في الزنزانة لحين عرضه على القاضي في اليوم التالي، لكننا وجدناه بعد قليل في الخارج، اعتقدنا أنه خبير في فتح الأبواب فوضعناه في زنزانة محكمة مخصصة للمحكومين بالإعدام، لكننا وجدناه بعد قليل في الخارج، وضعنا حوله عشرة حرّاس في الزنزانة، هبت ريح قوية داخل الزنزانة وجدناه بعد قليل جالسا في الخارج يشرب كوبا من الشاي، وفي الداخل وجدنا الحرّاس جميعا نائمون! يقال إن لديه سلطة على الجن والشياطين سيدي الرئيس!

لم تبد عليه أية مظاهر سلطة ولا حتى على نفسه، كان يبدو زائغ البصر، يده اليمنى التي يرفعها كل ثوان لتثبيت النظارة على وجهه النحيل المليء بالتجاعيد، كانت ترتعش بصورة واضحة.

كان واضحا أن كل سلطاته في اختراق الجدران تتضاءل وتختفي في حضرة سلطة حقيقية لا تعتمد على الوهم، أمره السيد الرئيس ليجلس بجانبه، وسأله إن كان يرغب في شراب شيء ما، طلب كوبا من الشاي بالحليب قال إنه معتاد على شراب الشاي طوال اليوم.

قال السيد الرئيس مبتسما بخبث: كنت أظن أن الشيطان لا يحب الحليب!

استعاد الرجل بعض زمام سلطته وقال: الشاي لي وليس للشيطان!

ضحك السيد الرئيس وقال: معجزة الخروج من السجن تصلح فقط للص! من يحتاج لمثل هذه المعجزة!

كان الرجل لا يزال يبدو خائفا بصورة ما، كأنه يخشى فشله في إثبات قدرته أمام رجل لا يرحم، تمالك نفسه وقال: المعجزة الحقيقية إن تبق على قيد الحياة في هذا الزمان العصيب!

هل تقصد أن مجرد بقاءك حيا في دولتنا هو معجزة؟

تنبه الشيخ لفداحة تعليقه، قال: لا أقصد عهد سعادتكم، أقصد الأرض كلها، حروب وأوبئة ومجاعات ومشاكل لا تنتهي! لقد خلق الله الإنسان لعبادته وتعمير الأرض وإشاعة السلام، لكن كل ما يفعله هو القتل والتخريب، تعطي أحدهم قلما أو معولا ليتعلم شيئا أو يزرع الأرض، يلقي بهما أرضا دون اهتمام، تعطيه بندقية يكاد يطير من الفرح!

تجاهل السيد الرئيس اهتمامات الشيخ برفاهية الكوكب كله، وسأله

ما اسمك يا حضرة الشيخ؟

اسمي عبد الرسول يا صاحب الفخامة

بدأ يستعيد نفسه مع رشفات الشاي الرئاسي.

أريد أن أرى إحدى أعمالك الخارقة!

أنا مجرد رجل فقير، أنا مجرد إنسان على باب الله!

كرّر السيد الرئيس السؤال: دعنا نرى إحدى أعمالك الخارقة!، كان قد سمع أن السيد الرئيس لا يحب تكرار طلبه.

قال: هل تفكر فخامتك في شيء تحب رؤيته الآن.؟

كان أول ما خطر في بال السيد الرئيس، جهاز راديو قديم كان يحب قبل سنوات طويلة أن يخلد للنوم ليلا أثناء الاستماع له، لكنه فقده منذ تخرج من الكلية الحربية، في غمار تنقله من بيت إلى بيت من مدينة إلى أخرى من حرب إلى انقلابات عسكرية.

قال له شيخ عبد الرسول: هل تتكرم فخامتك وتغمض عينيك للحظة !

فتح صاحب الفخامة عينيه على منظر الراديو القديم أمامه على المنضدة.

يا للكارثة قال ضاحكا ليتني تذكرت سبيكة ذهب!

تملك وطنا يا صاحب الفخامة ماذا تريد بسبيكة ذهب؟

ضحك السيد الرئيس وقال: أستطيع بيع سبيكة الذهب، لا أستطيع بيع الوطن!

الآن دورك لتغمض عينيك!

فتح شيخ عبد الرسول عينيه على منظر حقيبته الجلدية القديمة وحذائه المصنوع من جلد البقر، لا تزال تفوح منه رائحة القرض الذي يستخدم محليا في دباغة الجلود، وبعض أشيائه القليلة التي تركها في الغرفة الملحقة بمسجد صغير، يقيم فيها في ضواحي العاصمة قريبا من مدخل الطريق الصحراوي المتجه شمالا.

قال السيد الرئيس: رجال أمننا ليسوا أقل كفاءة من الجن، أمرتهم عند وصولك بإحضار أمتعتك، ثم أصدر قرارا جمهوريا: ستقيم معي هنا، طاف معه في جولة قصيرة داخل القصر: لدينا الكثير من النساء هنا، قال السيد الرئيس ضاحكا: إذا حاولت اغتصاب إحداهن سأحبسك في قمقم لن يعرف إليه الجن طريقا!

تساءل السيد الرئيس: لماذا لم تتزوج حتى الآن؟ سمعت أن بعض الناس الذين يصادقون الجن يأمرونهم بعدم الزواج، ذلك ليس مهما، يمكنك تدبير حياتك دون زوجة، الحياة أقصر من أن نضيعها في الشجار والمحاكم، يمكنك أن تذهب سرا إلى بيوت العاهرات، أو يمكنك إحضار إحداهن إلى جناحك هنا سرا، بشرط أن يكون ذلك بعد السادسة مساء، سيكون مزعجا قليلا أن حضرت لك امرأة اثناء النهار، وحين لا تعثر عليك في استقبال القصر الجمهوري، تستوقف سفيرا جاء لتقديم أوراق اعتماده، تقول له هل يمكنك أن تصف لي كيف أجد شيخ عبد الرسول في هذا البيت الذي يشبه بيت جحا، يتوه فيه حتى من قام ببنائه، أنه يعمل هنا مستشارا للرئيس!

إن كان السـفير رجـل يحـب مسـاعدة النسـاء فسـوف ينـسى موعـد تقديـم أوراق الاعتـماد، ويجـول مـع العاهـرة في أجنحـة القـصر بحثـا عـن المستشـار الرئـاسي!

أصـدر السـيد الرئيـس أمـرا: نحتـاج لـشراء مـواد بترولية بصـورة عاجلـة قبـل أن ينفجـر الشـارع.

طلـب أن يختـلي في غرفتـه لمدة ثلاثـة أيـام مـع كميـة مـن الزئبـق الأحمـر، أحـضر رجـال أمنـه الزئبـق الأحمـر: حصلنـا عليـه بشـق الأنفـس يـا مولانـا! وفقـك اللـه في هـذه المهمـة الصعبـة، السـيد الرئيس سـيختبر مقدراتـك، السرعـة أيضـا سـتكون حاسـمة في تقييـم مقدراتـك، مـن الأفضـل ألا تـترك شـياطينك تخلـد إلى النـوم قبـل إنجـاز هـذه العمليـة!

بسـبب العجلـة والسـيد الرئيـس الـذي كان يطـرق البـاب كل بضـع دقائـق ليسـأل: ألم تتمكـن مـن تنزيـل ايـة شيء؟ كان صـوت الرجـل يتسـرب مـن خلـف الجـدران مشـحونا بالغبـار والحنـين، تحـول صوتـه إلى مـا يشـبه صـوت الريـح، صـوت العاصفـة، حـين تُحـوّل صباحـات موسـم الدمـيرة إلى ليـل دامـس.

يلتقـط السـيد الرئيـس كلماتـه بصعوبـة مـن فـم العاصفـة: لا شيء، لا شيء! يقـول السـيد الرئيـس بخيبـة أمـل وقـد بـدأت آمالـه حـول حـل سـحري لمصاعـب الوطـن تخبـو:

لا شيء؟ ولا حتى ما يكفي لشراء ليتر بنزين؟

في النهاية رفضت شركة النفط الأجنبية الدولارات، لأنها مزيفة!

قال السيد الرئيس: مزيفة؟ إنها من السماء؟ هل يوجد أيضا تزوير في السماء؟

قال شيخ عبد الرسول: الزئبق الأحمر لم يكن من النوع الجيد النقي، لم يكن الزئبق الأحمر الروحاني الذي طلبته، أحضر رجالك زئبق غير حقيقي، لقد اختبرته في يدي قبل أن أبدأ العمل، الزئبق الأصلي ينبض مثل القلب حين تضمه في قبضة يدك! لكنك لم تعطني فرصة لتوضيح مشكلة الزئبق المزيف، فبدأت العمل أملا في حدوث معجزة وأن يتم تمرير صفقة التنزيل في لحظة عدم تركيز في السماء!

وما العمل الان ألا تسمع أصوات المتظاهرين خارج القصر؟ الناس عادت إلى العصر الحجري يركبون الدواب في قلب العاصمة! وشركات البترول ترفض تسليمنا شحنات البنزين قبل أن يروا دولاراتنا، وشيخ عبد الرسول ينزل لنا من السماء دولارات مزيفة!

أصدر السيد الرئيس أمرا نهائيا: سيبدأ شيخ عبد الرسول خلوة التنزيل بعد صلاة العشاء. أريد زئبق أحمر نقي لا تخالطه أدنى شائبة، قبل مغيب الشمس والا فأنتم مطرودون جميعا من الخدمة! وأريد ألا أرى أحدكم صباحا في أية مكان، وسأتسلم بنفسي البيوت الحكومية التي تقيمون فيها!

جاءوا قبل المغيب بثواني قليلة يحملون شيئا في علبة بلاستيك. عثرنا عليه سيدي الرئيس، هاجمنا بيوت بعض شيوخ التنزيل فلم نجد سوى كميات قليلة، لا تكفي لتنزيل دولارات لشراء برميل بنزين واحد، وجدنا شيوخ التنزيل يعودون لعلاج الناس بالرقي

بسبب شح الزئبق وبسبب غلاء أسعار الدواء سيدي الرئيس! ثم هاجمنا مناطق التنقيب العشوائي عن الذهب، وعثرنا على عدد من المنقبين لديهم كميات قليلة يستخدمونها لتنقية الذهب، حاول بعضهم الاعتراض، فصادرنا كميات الذهب التي عثروا عليها بدون ترخيص سيدي الرئيس! وضعوا الزئبق والذهب بجانبه! يا لليوم السعيد!

وضع شيخ عبد الرسول الزئبق في يده وضمه بقوة فنبضت يده بقوة مثل قلب ثور، قال الآن يمكننا العمل دون خوف من النتائج، ثم استأذن ليبدأ عزلته المجيدة، ذكّره السيد الرئيس بوجوب السرعة لإنجاز المهمة قبل أن تصبح الأوضاع خارج السيطرة، أجاز لقوات أمنه استخدام الذخيرة الحية لتفريق المظاهرات لحين فراغ شيخ عبد الرسول من خلوته.

سلّمه شيخ عبد الرسول بعد يومين الغرفة المليئة بالدولارات، أصدر فورا قرارا جمهوريا بتعيين الدكتور: عبد الرسول سليمان الطاهر، وزيرا للمالية، ومستشارا اقتصاديا لرئيس الجمهورية.

وماذا سنفعل بوزير المالية القديم البروفسور محمد عبد الدافع؟ لقد كان أفضل من يقود المفاوضات مع صندوق النقد الدولي، أنه رجل عبقري حاصل على الدكتوراة من أوكسفورد ولديه زمالة جمعية المحاسبين البريطانيين!

أن كنت تسمي هذا اَلْمُفْلِس الذي يتفاوض منذ عشرة سنوات مع صندوق النكد الدولي دون أن نرى دولارا واحدا، أن كنت تسميه عبقريا! فماذا نسمي شيخ عبد الرسول الذي يقتلع لنا

الـدولارات مـن السـماء! ولا يحتـاج في مفاوضاتـه سـوى ثمـان وأربعـين سـاعة! وبعـض الزئبـق الأحمـر!

لكن سعادتك هو من مؤسسي الحزب ومن الإخوان الملتزمين!

ملتـزم بمـاذا؟ ألم يـسرق مـا يكفيـه! هـل نـسي أن الدولـة كانـت تدفـع لـه إقامتـه في الفنـدق طـوال فـترة عملـه! وزيـر ماليـة يقـوم برنامجـه عـلى خفـض الإنفـاق الحكومـي ويقيـم هـو نفسـه مـع أسرتـه في فنـدق الهيلتـون! والحكومـة تملـك نصـف بيـوت الوطـن! لمـاذا لا يقيـم في بيـت حكومـي؟

لكن يقال إن بيوت الحكومة كلها بيعت!

بالطبـع باعهـا لصـوص حـزب المؤتمـر الوطنـي، ثـم يـأتي مـن يتحدث عـن الإخـوان الأنقيـاء الملتزمين!

لكن يقال إن شقيقك سيدي الرئيس وهو من الإخوان الملتزمين..

إيـاك أن تتحـدث عـن أسرتي، جميـع حـزب الاخـوان لصـوص مـا عـدا إخـوتي، ربمـا خدعهـم الاخـوان لإغراقهـم في الفسـاد لابتـزازي بذلـك لكنهـم لـن ينجحـون، إخـوتي فـوق الشـبهات!

30

شعر ببعض الاستقرار بعد استقرار بعض أزمات الوطن، يقول لأقرب مساعديه: أين مشاريعنا الإنتاجية؟ ألم تكن هناك خطة لإعادة تأهيلها؟ من سيضمن استمرار هذه الرفاهية الشيطانية؟ أخشى أن تنفد كل الدولارات الموجودة في السماء، ولا يستطيع الشيخ سوى إنزال المطر!

المشكلة أنّ المطر إن هطل سيهطل في أراض لا تخصنا!

ماذا تعني بأراض لا تخصنا؟

أعني أنّ المشاريع الكبيرة التي تحدثت عنها، بيعت كلها سيدي الرئيس، أيام سطوة حزب الوطن الإخواني!

هل باعوا كل شيء؟ لم يتركوا ولا حتى فدّان واحد؟

قام المستثمرون الأجانب بزراعة حتى مقابر موتانا سيدي الرئيس بدعوى أنهم اشتروا تلك الأرض! أما مباشرة أو حصلوا عليها لقاء قروض واجبة السداد منذ سنوات!

فكّر السيد الرئيس قليلا وقال: أريد خطة عاجلة لاستصلاح الصحاري، سنعتمد على زراعة القمح!

معظم الصحاري بيعت لشركات التعدين سيدي الرئيس!

هل هي شركات أجنبية؟

بعضها شركات أجنبية وبعضها يملكها أعضاء حزب الوطن،

الإخـوان المسـلمين يسـيطرون تماما عـلى اقتصـاد بلادنـا!

مـاذا سـنفعل، مـاذا تبقـى لنـا؟ هـل نقـوم بزراعـة القمـح في حديقـة القـصر؟

ضحـك المسـاعد وقـال: القـصر وحديقتـه بيعـا سـيدي الرئيـس، الشركـة الصينيـة التـي اشـترت القـصر قامـت ببنـاء قـصر جديـد صغـير، سـنرحل إليـه خـلال أسـابيع سـيدي الرئيـس!

كيـف أتـرك قـصري؟ هـذا القـصر شـاهد عـلى تاريخنـا؟ وهـل تعنـي أنّ الشركـة الصينيـة احتسـبت تكلفـة بنـاء القـصر الجديـد مـن قيمـة القـصر القديـم؟

نعـم لكـن بقيـت بضعـة ملايـين يجـب أن نسـددها للشركـة الصينيـة!

كأنه يشعر بقدوم الكارثة الوشيكة:

مصيبـة كـبرى سـيدي الرئيـس، تـوفي الدكتـور عبـد الرسـول وزيـر الماليـة كان عـلى وشـك تنزيـل دفعـة مـن الـدولارات حـين فـارق الحيـاة فجـأة، هـذا كل مـا اسـتطاع تنزيلـه وهـو ينـازع ملـك المـوت سـيدي الرئيـس. وسـلّموه بضـع وريقـات لا تتعـدى كلهـا خمسـمائة دولار.! ، أخـرج محفظتـه بارتبـاك ووضـع المبلـغ فيهـا.

يـا للكارثـة ألم يكـن ملـك المـوت قـادرا عـلى الانتظـار بضـع سـاعات حتـى يفـرغ الرجـل مـن عملـه!

الكارثـة الحقيقيـة سـيدي الرئيـس أننـا نسـينا في غمـرة انشـغالنا بإحصـاء الـدولارات السـماوية، أن نطلـب مـن الرجـل إعـداد مـن

يستطيع خلافته، وتدريبه وإعطائه أسرار المهنة!

أصدر تعليماته بإقامة جنازة وطنية للراحل الذي وصفته رئاسة الجمهورية بأنه كان وطنيا مخلصا بذل الغالي والنفيس من أجل وطننا، وأنه وبفضل خططه وخبرته العظيمة استطاع أن ينعش اقتصاد بلادنا ويضعه في الطريق الصحيح.

مسح دموعه وهو يرى جثة الرجل الوحيد الذي كان يثق فيه، تختفي تحت التراب. الرجل الذي كان يدفع فاتورة بقائه في السلطة: الوحيد الذي يعطيني مالا منذ وفاة أبي! الجميع يطلبون مني المال! هو الوحيد الذي يدفع لي بسخاء، فقط أشير بيدي، فأجد نفسي غارقا وسط أمواج العملة الخضراء، العملة الصعبة! لم يُسمعني أبدا الأسطوانة المشروخة التي يرددها كل وزراء المالية الذين شغلوا هذا المنصب من قبله: عفوا سيدي الرئيس، لا يوجد مال، لم تهطل الأمطار بالقدر الكافي هذا العام، فشل الموسم الزراعي، أكلت الطيور المهاجرة محصول اَلذُرَة الفترية، قضت حشرة المن على محصول السمسم! لم نستطع بيع محصول الصمغ العربي بسبب العقوبات الأمريكية، ماكينات معظم المصانع متوقفة، لا نستطيع استيراد قطع غيار بسبب العقوبات!

جلس ساهما في اجتماع مجلس الوزراء في اليوم التالي، شاعرا أنه أضاع شيئا ما لا يستطيع تحديده، يشعر باليُتم، للمرة الثانية خلال أقلّ من قرن يفقد والده! انتبه على لغط الوزراء المُفلسين بعد قليل، لا يزال مقعد السيد وزير المالية شاغرا، الغريب أنّ الوزير الراحل كان هو الوحيد الذي يجلس صامتا منذ بداية الاجتماع حتى نهايته، حين يسير في ردهات القصر تتساقط

الدولارات من ملابسه، عرف السيد الرئيس أنه كلما ارتفعت الأصوات، يتراجع الناتج القومي، كلما ارتفعت الأصوات في مجلس الوزراء ، يرتفع سعر الدولار في السوق الموازي! كلما ارتفعت الأصوات في مجلس المفلسين الذين يسمون أنفسهم وزراء، يتراجع كل شيء، يتراجع حتى الفاصل المداري، يتقدم فقط حزام الجفاف والجراد والقحط.

تركهم في صخبهم وخرج إلى مساعديه: أريد خلال ثلاثة أيام رجلا يخلف دكتور عبد الرسول!

بحثنا عن خليفة للرجل، وضعنا المعلومات في جهاز الكمبيوتر التابع للمركز الوطني للدراسات الاستراتيجية وعلوم المستقبل، استغرق تلقيم الجهاز ببيانات الشخص المطلوب وقتا طويلا، لأنّ جهاز الكمبيوتر كان يكتفي بوضع صورة وجه ضاحك على شاشته في كل مرة! لم نكن نعتقد أنّ هذا الجهاز اللعين يستطيع الاستغراق في الضحك سيدي الرئيس! في النهاية حين سئم الجهاز من تكرار نفس الطلب، وضع على شاشته صورة رجل يشبه الشيطان، وجه مستطيل وله قرنان صغيران خلف أذنيه! يبدو أنّ جهاز الكمبيوتر يريد أن يشير إلى خطة الإخوان المسلمين في بدايات الثورة، حين اقترح أحدهم استخدام الجن لإحراز تنمية بشرية متقدمة، تضعنا في مصاف الدول الكبرى، حيث يقوم الجن بأعمال خارقة مثل بناء المفاعلات النووية، وإنشاء السدود، إنجازات خارقة كان يقتصر إنجازها في ذلك الزمان على الشركات الأمريكية!

لكن الكمبيوتر في النهاية أرشدنا إلى الرجل المناسب، تتبعنا خطواته في خرائط قوقل، عبر الأقمار الصناعية، كان يطوف أماكن

التعدين العشوائي على امتداد الصحاري على عربة كارو يجرها حمار، يشتري من الناس الذهب، يقول لهم: أنا ممثل السلطة! تخيّل سيدي الرئيس: ممثل السلطة على ظهر عربة يجرها حمار! يمضي مثل مؤامرة لتمريغ هيبة السلطة في الوحل! هيبة السلطة التي استعدناها على يديك سيدي الرئيس، بعد فوضى التجربة الحزبية التي كان فيها ساسة الوطن في البرلمان يتحدثون كلهم في وقت واحد مثل أطفال الخلوة، لا أحد يستمع إلى الآخرين، قبل أن يتحوّل الصراخ إلى عراك بالأيدي والكراسي، حتى إننا حين استلمنا السلطة، وجدنا مقاعد البرلمان كلها محطمة سيدي الرئيس! حتى اصائص الورد الإنجليزي والصبّار استخدموها في الشجار، وفي آخر جلسة قبل الانقلاب، أحضر أحد النوّاب معه بندقية! هل تصدق ذلك سيدي الرئيس؟ بندقية داخل البرلمان! حتى أنّ أحد النوّاب علّق على ذلك قائلا: ماذا تركنا للمتمردين في الغابة! إن كنا سنستخدم البنادق في حسم الخلافات داخل البرلمان!

وجدناه ينادي على بضاعته مستخدما ألحان بعض أغاني الحقيبة القديمة، ومستخدما طنبورا كان يعزف عليه بإهمال، بحيث يمضي اللحن في طريق وتمضي الأغنية القديمة في طريق آخر، رغم ذلك كان يبدو مبتهجا، وزبائنه يبدون أكثر ابتهاجا وهم يسلّمونه ثمار شقائهم طوال سنوات في الصحاري، والعمل دون توقف في ظروف جوية قاسية، يكابدون الحر والعطش وعقارب الصحاري، والثعابين.

أعطوني الذهب أعطيكم دولارا لا يصدأ ولا ينخفض سعره أبدا!، إذا انتظرتم السماسرة يأخذون ذهبكم ويعطونكم جوالات من

نقود لا تساوي قيمة الورق الذي طُبعت عليه! وحين تعودون إلى دياركم تكتشفون أن عمركم ضاع هباء، من أجل أوراق تحتاج إلى جوال منها لشراء قطعة خبز واحدة، لكنني أعطيكم دولارا لا يصدأ ولا تنخفض قيمته أبدا، يمضي في رحلته اليومية لتمجيد الدولار، والاستخفاف بالعملة الوطنية! التي طُبعت عليها صورتكم سيدي الرئيس!

دولاراته لم تكن مُنزلة، كان يقوم برسمها بنفسه! إنه عبقري سيدي الرئيس، تعطيه أية شيء فيسلمك نسخة طبق الأصل منه خلال ساعة واحدة! يستخدم ألوانا وأحبارا لم نر مثلها قط، يقول الناس إنه يملك عددا من الجان الموهوب المتطوع لخدمته، يقومون بالتزوير، يُحضر لهم الورق والأحبار ويقومون بالعمل كله، وفي بعض الأحيان شاهده الناس مستغرقا في النوم فيما يواصل سائق غير مرئي قيادة العربة الكارو التي يجرها حمار، يقال إن الحمار نفسه من الجان، لم يشاهده الناس قط يأكل العلف أو يرد الماء!

لكنه يبدّد الذهب الذي يحصل عليه كله في النساء، يعشق النساء الجميلات، ما أن يسمع بفتاة جميلة في إحدى القرى، حتى يذهب فورا لخطبتها، حين يذهب لخطبة الفتاة، لا يضيع الوقت في التفاوض أو توضيح نسب أسرته وممتلكاته، إلى آخر تلك الشروط الكلاسيكية للزوج السعيد، يضع فقط سبيكة ذهب أمامه مهرا للفتاة، ويتم عقد الزواج فورا، يقضي عدة أيام مع عروسه الجديدة، قبل أن يعاوده من جديد الحنين للتجوال في الصحاري وشراء الذهب.

حين يعود لمناطق التعدين ولا يجد ذهبا، يستمع إلى شكاوى المعدنين كأنه بالفعل ممثل السلطة ويعدهم بتذليل المشاكل، يشتكون له من نقص الخدمات وصعوبة الحصول على المياه الصالحة للشرب، يقول لهم مندهشا: أنتم تستخرجون الذهب، ألا تستطيعون استخراج الماء؟

يشتكون له من انهيار الآبار وموت الشباب وعدم وجود أية وسائل سلامة أو إسعاف، يشكون له من عدم وجود مصل لسموم العقارب والثعابين، من ضعف شبكات التليفون، ومن أنّ أجهزة استكشاف الذهب في باطن الأرض التي يستخدمونها كلها قديمة ولا تعمل بكفاءة، إلا بعد أن نستخرج الذهب ونضعها فوقه! فتبدأ في إطلاق صفيرها كأنها اكتشفت شيئا!، كان يتركهم يتحدثون جميعا في الوقت نفسه، ويذرع المكان بقدميه، ثم يصدر أمره: احفروا هنا! ينتظرهم وهم يتعاركون مع الأرض القوية بمعاولهم، فيما شمس الغسق تنظر بفضول حزين إلى العالم، وفجأة يصرخ أحدهم: عثرنا على سبيكة ذهب! يعطيهم دولاراته المزيفة ويأخذ السبيكة، يعطيهم تمائم تحميهم من لدغات العقارب والثعابين، ويأخذ الذهب، يوجد لديه عدة أنواع من التمائم، أقلها أهمية يحمي من العين الشريرة ومن لدغات العقارب، أغلاها ثمنا يحمي من طلقات الرصاص، ثم يمضي في طريقه بحثا عن عروس جديدة، رغم أنّ المُعدّنين يترجونه ليبق معهم، سنعطيك نصف ما نحصل عليه، اذا ارشدتنا الى مكان الذهب! كان يقول أنا لا اعرف شيئا لقد كانت مجرد ضربة حظ، وحين يلّحون عليه ليبقى، كان يعدهم انه سيعود بعد قضاء بعض حوائجه، يقول لهم: أين سأذهب ؟

الصحـراء هـي بيتـي، سـأعود لكـم قريبـا، ويمـضي في طريقـه!

قـال السـيد الرئيـس: يقـال إنـك تشـم رائحـة الذهـب مـن عـلى بعـد عـدة كيلومـترات!

ابتسـم وقـال: يوجـد ذهـب هنـا! أشـار الى أرضيـة غرفـة الاسـتقبال الضخمـة التـي كان السـير روبـرت هـاو يقيـم فيهـا حفـلات اسـتقبال القناصـل وزعـماء القبائـل، أمـر السـيد الرئيـس بإحضـار آلـة حفـر، أحـضروا واحـدة مـن النـوع المسـتخدم في حفـر الشـوارع، أزاحـوا السـجاد الفـارسي الثمـين حتـى لا يتلـف، وأزاحـوا قطـع الاثـاث قبـل ان يبـدأ الحفـر، امتـلأ المـكان بالغبـار، ولم يظهـر شيء، فجـأة أصـدرت ألـة الحفـر صريـرا معدنيـا، أمـر السـيد الرئيـس بإيقـاف آلـة الحفـر، أزاح أحـد مسـاعديه الـتراب بيـده وباسـتخدام معـول انتـزع صندوقـا حديديـا صغـيرا مـن الأرض، كان الصنـدوق اشـبه بخزانـه صغـيرة، لم يتأثـر سـوى ببعـض الصـدأ، بعـد عـدة ضربـات باسـتخدام المعـول انفتـح الصنـدوق وتدفـق كنـز صغـير مـن قطـع الذهـب والمشـغولات الذهبيـة.

أصـدر السـيد الرئيـس قـرار جمهوريـا: تعيـين الدكتـور عبـد الـرازق عبـد الرحيـم وزيـرا للبـترول والـثروة المعدنيـة!

سـيدي الرئيـس: السـيد الوزيـر يعمـل بهمـة، يبـدو أن شـياطينه تجيـد التعامـل أيضـا مـع الثـورة المعلوماتيـة، يبـدأ العمـل مبكـرا، يقـوم سـكرتيره بفتـح خرائـط قوقـل عـلى شـبكة الانترنـت، ويقـوم هـو بوضـع علامـات عـلى المناطـق التـي يجـب البحـث فيهـا عـن الذهـب والمعـادن الأخـرى!

هـذا رائـع، ربمـا يجـب تنظيـم دورة دراسـية لـه في تشـغيل الكمبيوتـر!

سـيكون ذلـك عمـلا جيـدا، لكـن ربمـا يجـب إخضاعـه في البدايـة لـدورة محـو الأميـة!

ابتسـم السـيد الرئيـس وقـال: لـن يحتـاج لـشيء، إنـه موهـوب، مـن يسـتطيع عمـل دولار اصـلي بـدون طابعـة لـن يحتـاج لـدورة محـو الأميـة! نحـن نحتـاج لذلـك، لا نسـتطيع عمـل ولا حتـى جنيـه مـن عملتنـا الوطنيـة!

لديـه مشـكلة واحـدة سـدي الرئيـس! لا يـزال يحتفـظ بالحـمار وعربـة الـكارو في بيتـه الحكومـي، حاولنـا إقناعـه بالتخلـص منهـما، لكنـه يـرد ضاحـكا أنـه يخـشى أن يخـرج في أول تعديـل وزاري ولـن يسـتطيع تدبـير عيشـه بـدون الحـمار والعربـة! لكننـا عرفنـا انـه يخلـع البذلـة الرسـمية في نهايـة الأسـبوع ويتخلـص مـن الحراسـة الملازمـة لـه بدعـوى أنـه ذاهـب لزيـارة أمـه المصابـة برهـاب السُـلطة! ويرتـدي جلبابـه القديـم وعمامتـه الممزقـة ويعـود للتجـوال في الصحـاري لـشراء الذهـب بدولاراتـه المزيفـة!

31

عـاد الكهنـة سـيدي الرئيـس وكأن شـيئا لم يحـدث، حلقـوا لحاهـم وأنشـئوا حزبـا جديـدا، أسـموه حـزب العدالـة والتنميـة، لا يخفـون إعجابهـم بالتجربـة التركيـة، احتلـوا نفـس مقـر حزبهـم القديم، سـحبوا يافطـة الحـزب القديمـة ووضعـوا اليافطـة الجديـدة في مكانهـا، ومـن حسـن حظهـم تصـادف رفـع اللافتـة الجديـدة للحـزب مـع انتخابـات برلمانيـة جديـدة، سـمحنا لهـم بالفـوز بنصـف المقاعـد، كانـوا يطمعـون في إحـراز أغلبيـة عـن طريـق التزويـر، لديهـم خـبرة طويلـة في التزويـر، يتحـول صنـدوق الانتخابـات بقـدرة قـادر إلى صنـدوق ملـئ بأصـوات تُحسـب لهـم، حتـى المرشـحون المنافسـون لهـم في نفـس الدوائـر الانتخابيـة لا يعـثرون عـلى بطاقـات التصويـت التـي قامـوا فيهـا بالتصويـت لأنفسـهم، يقولـون : تلـك معجـزة! العنايـة الإلهيـة معنـا! الحقيقـة أنّ إبليـس معهـم، إبليـس الـذي بـات يتعلـم منهـم، يقومـون برشـوة الحـرّاس، يفرغـون الصناديـق مـن الأصـوات المعاديـة ويعيـدون حشـوها بأصـوات صالحـة كلهـا، كلهـا في صالحهـم! لكنهـم عـادوا أكـثر أدبـا توقفـت كل محاولاتهـم للوصـول إلى الكُـرسي، كـرسي فخامتـك، عـادوا بنهـم مضاعـف للنهـب، حتـى رمـال الصحـراء عرضوهـا للبيـع، أنشـأ أحدهـم شركـة في جـزر الأنتيـل، قامـت ببيـع وشراء كل شيء يخـص وطننـا في الخـارج، بيـت السـودان في لنـدن، والأرض التـي كان يجـب أن تشـيّد عليهـا سـفارة وطننـا في جنـوب أفريقيـا، الأرض التـي أهداهـا لوطننـا المناضـل العظيـم نيلسـون مانديـلا، باعـوا حتـى أوقـاف بلادنـا في الأراضي المقدسـة! يسرقـون وعينهـم في الكعبـة سـيدي

الرئيس! لم يوجد في التاريخ نهم جنوني للسرقة والتزوير مثل نهم هؤلاء الكيزان لولا عناية الله والحراسة المشددة في المناطق المقدسة لسرقوا الحجر الأسود نفسه!

الحمد لله أنّ أسرتي بعيدة عن فسادهم!

يردد نفس العبارة حتى بعد أن خرج جنرال الأيام الصعبة، يرافق الجنرال حتى غرفة الاستقبال، يجد العقيد سعد فضل الله في انتظار الإذن بمقابلته، كان يسميه الناجي الوحيد، كان هو بالفعل الناجي الوحيد من الخلية التي أسسها صديقه الراحل الجنرال عوف (أسكنه الله فسيح جناته) يداعبه قائلا: أشعر في وجودك بالأمان، قطعوا أذنيك وعلّقوك من رجليك طوال الليل، ولا زلت حيا!

يقول آليا في حضرة الناجي الوحيد: الحمد لله أن أسرتي بعيدة عن فسادهم!

لا تنس أنك أعطيتني الأمان في آخر مقابلة لي معك سيدي الرئيس، يقولون أنّ الشركة المسجلة في جزر الأنتيل مسجلة باسم عدد من أخوان حزبك، وأحد أشقائك شريك معهم!

تلك إشاعة إخوانية للتغطية على فسادهم والإيحاء بأنّ الرئيس نفسه يشارك في فسادهم!

يقول: تعلموا على حساب الدولة سيدي الرئيس، بعضهم كان يقيم حتى في المرحلة الابتدائية في مدارس داخلية، تطعمهم الدولة وتعلمهم مجانا، وحين وصلوا إلى السلطة كان أول ما فعلوه أنهم ألغوا مجانية التعليم، فضاعت أجيال كاملة من أبناء شعبنا

الفقـراء سـيدي الرئيـس.

يقـول السـيد الرئيـس: يريـدون تلويـث سـيرة إخـوتي معهـم، تربينـا في أسرة محافظـة، كان والـدي غنيـا يملـك مشروعـا زراعيـا، ينتـج السمسـم والـذرة الفتريتـة كان لدينـا معـصرة أمـام البيـت، نحـن لا نحتـاج لنـسرق، كان لدينـا معـصرة، في البدايـة كان يجرهـا ثـور، ثـم قام والـدي بتحديثهـا، أصبحـت تعمـل بواسـطة موتـور يعمـل بالديـزل.

كاد الناجـي الوحيـد مـن خليـة الجـنرال عـوف أن يقـول: يقولـون في مواقـع التواصـل أنّ والـدك كان فقـيرا، وأنـه كان مجـرد عامـل في تلـك المعـصرة التـي تقـول إن والـدك كان يملكهـا! يمسـك الناجـي الوحيـد فمـه بقـوة، يقولـون أيضـا إنـه لـولا مجانيـة التعليـم لمـا اسـتطعت أنت أو أشـقائك مـن إكـمال الدراسـة! مجانيـة التعليـم التـي ألغاهـا نظامـك بجـرة قلـم، فضاعـت عـلى وطننـا عقـول هـي ثروتـه الحقيقيـة!

يـردد آليـا أسـطوانة الـبراءة مـن فسـاد أخـوان السـلطة: والـدي كان مـن أكـبر المنتجـين للفتريتـة في السـودان!

يضـع الناجـي الوحيـد يـده عـلى فمـه حتـى لا تفلـت كلمـة واحدة، يتكبـد مشـاق الحضـور إلى القـصر رغـم أنـه يـرى في كل مـرة الـكلاب الذيـن قامـوا بتعذيبـه، باغتصابـه وقطـع أذنيـه، وخطـف شـقيقه، يراهـم يجوبـون ردهـات القـصر، رغـم أن السـيد الرئيـس يقـول: أعدناهـم إلى الصفـوف الخلفيـة، لا مـكان للكهنـة بعـد اليـوم، حتـى الإلـه آمـون رع، المتواطـئ مـع الكهنـة أحلنـاه للتقاعـد، هـل رأيـت تمثـال الإلـه أبادمـاك في مدخـل القـصر؟ هـل سـمعت برئيـس أحـال إلهـا للتقاعـد مثلـما فعلـت أنـا؟!

لا يجـرؤ الناجـي الوحيـد عـلى القـول إن الوحيـد الـذي أحيـل للتقاعـد منـذ لحظـة الانقـلاب الأولى، هـو أنـت يـا صاحـب الفخامـة! كيـف تحيـل إلهـا للتقاعـد وأنـت سـلطاتك لا تتجـاوز بـاب القـصر الـذي تقيـم فيـه! تسـتبدل في كل مـرة كاهنـا بكاهـن!

يعيـد نفـي تهمـة الفسـاد عـن أسرتـه: كان أبي أكـبر مُصـدّر للـذرة الفتريتـة

يمسـك الناجـي الوحيـد فمـه بيـده حتـى لا يخطـئ ويقـول: يقـال إن مالـك المشروع طـرد والـدك لأنـه اكتشـف أن والـدك كان يقـوم بصناعـة المريسـة مـن الـذرة الفتريتـة كان مدمنـا عـلى مريسـة الـذرة، كان يـسرق الـذرة ليصنـع المريسـة، يحقـق الاكتفـاء الـذاتي منهـا ويبيـع الباقـي لعـمال الحصـاد الاثيوبيـين!

يحـاول الناجـي الوحيـد ان يطـرد أفـكار مواقـع التواصـل مـن ذاكرتـه، كان السـيد الرئيـس قـد حـكى لـه أنـه يسـتطيع قـراءة أفـكار وأحـلام زوجتـه اثنـاء ممارسـة الحـب، يـا للكارثـة مـن يعلـم هـل تتوقـف مواهبـه الخارقـة فقـط في حـدود الخلـوة الشرعيـة، أم أنـه يطـوّر مقدراتـه ويسـتطيع قـراءة أفـكار الاخريـن دون حاجـة للحـب!

رغـم أنّ السـيد الرئيـس يمنحـه الأمـان، ليـس فقـط وفـاء لذكـرى صديقـه الجـنرال العظيـم، الجـنرال عـوف، لكـن لـيرى مـن خلالـه نبـض الشـارع، ليقـرأ مـا يحـدث وراء جـدران القـصر، ليزيـل مـن أذنيـه بعض صـدأ أكاذيـب مستشـاريه، أنّ الموسـم الصيفـي ناجـح سـيدي الرئيـس لدرجـة اننـا لم نجـد مكانـا نُخـزّن فيـه محصـول الـذرة، بعـد ان امتـلأت كل الصوامـع وكل البواخـر التـي تنقلـه خـارج الوطـن، فتركنـاه نهبـا

للطيـور، نفـس الطيـور المهاجـرة التـي بـدلا مـن أن يطعمهـا المسـتر أوبامـا، يفـرض علينـا مزيـدا مـن العقوبـات، يفـرض العقوبـات ويرسـل لنـا طيورهـم الجائعـة تقـضي عـلى محاصيلنـا الصيفيـة!

الناجـي الوحيـد كان يحـضر إلى القـصر يوميـا أمـلا في أن يسـاعده السـيد الرئيـس في العثـور عـلى شـقيقه المفقـود منـذ سـنوات، ماتـت والدتـه بالحـسرة عليـه، وهـو يشـعر دائمـا بالذنـب، فلـم يكـن لشـقيقه أيـة نشـاط سـياسي، لكنهـم اعتقلـوه لإجبـاره هـو عـلى تسـليم نفسـه، وهـو نفسـه كان قـد هـرب خـارج الوطـن، وكان يُفكـر بالعـودة ليفتـدي شـقيقه، لكـن والدتـه توسّـلت إليـه بصـوت مخنـوق بالدمـوع ألا يحـضر، قالـت لـه، ابـق هنـاك، لا أريـد أن أفقـد أبنـائي الاثنـين!

يقـول السـيد الرئيـس: أخـبرت الجـنرال عـوض سـليمان، إن كان لا يـزال عـلى قيـد الحيـاة فـإن الجـنرال عـوض هـو الوحيـد القـادر عـلى إحضـاره!

يلاحـظ الناجـي الوحيـد: كان الجـنرال عـوض مديـرا لجهـاز الأمـن حـين اُعتقـل أخـي!

يقـول السـيد الرئيـس، كان رئيسـا لجهـاز الأمـن، لكـن التنظيـم الإخـواني كانـت لـه أجهـزة أمـن متعـددة، كل واحـد مـن النافذيـن في التنظيـم كان لديـه جهـاز أمـن، يطلـق كلابـه عـلى مـن يشـاء مـن معارضيـه! حتـى لـو كان هـؤلاء المعارضـين مـن داخـل التنظيـم الإخـواني نفسـه! معظـم المفقوديـن اختفـوا في تلـك الفـترة، ومعظمهـم اختطفهـم أمـن التنظيـم، الأمـن الشـعبي!

32

بعـد عـام واحـد خـارج الوطـن، عـادت ثريـا، لم يصارحهـا شـقيقاها بحالـة والدتهـم الحاجـة نـور، وان حالتهـا كانـت تسـير مـن سيء إلى أسـوأ منـذ سـفرها، لم يرغـب شـقيقاها في جعلهـا تـترك زوجهـا وبيتهـا، ورغـم أن أمهـا كانـت تتحامـل حـين تتصـل بهـا ثريـا تليفونيـا عـلى نفسـها، وتدّعـي أنهـا في أفضـل حـال، حتـى لا تكشـف مقـدار تعاسـتها بسـبب غيـاب ثريـا الـذي نـكأ جـراح غيـاب عبـد الرحيـم.

تحسـنت حـال الأم بعـد عـودة ثريـا، قـررت ثريـا أن تبحـث عـن عمـل في مـكان قريـب مـن البيـت، لم يعـد ممكنـا أن تبـق لفـترات طويلـة بعيـدا عـن أمهـا، لذلـك لم تفكـر في البحـث عـن عمـل يبعدهـا كثـيرا عـن البيـت، كانـت هنـاك مدرسـة خاصـة قريبـة جـدا مـن البيـت، فكـرت أنهـا لـو وجـدت عمـلا معهـم، يمكنهـا كلـما وجـدت بعـض الوقـت أن تحـضر بسرعـة إلى البيـت لتطمـئن عـلى أمهـا.

أخبرهـا بـدر شـقيقها أنّ أحـد زملائـه في الجامعـة تربطـه علاقـة أسريـة مـع مديـر المدرسـة، ويمكنـه أن يسـاعد في الوصـول إلى المديـر، لكـن ثريـا آثـرت أن تذهـب بنفسـها، تركـت والدتهـا في رعايـة جارتهـم فاطمـة التـي حـضرت لزيارتهـم، وحملـت شـهاداتها وذهبـت إلى المدرسـة، لحسـن الحـظ أن المديـر لم يكـن مشـغولا، أبلغتـه برغبتهـا بالعمـل معهـم، نظـر المديـر إلى شـهاداتها، وأبـدى إعجابـه بمسـتواها التعليمـي، قـال لهـا: تخرجـت مـن مدرسـة الرياضيـات بمسـتوى رفيـع، يمكنـك العثـور عـلى وظيفـة أفضـل بدخـل كبـير، أو يمكنـك

حتى مواصلة دراستك والعمل في الجامعة نفسها، شرحت له ثريا ظروف والدتها وأنها كانت تقيم أصلا خارج الوطن، لكنها فضّلت العودة لتكون بجانب أمها، رحّب الرجل بها وأوضح أنهم بالفعل في حاجة لمدرس في مادة الحساب، طلب منها أن تترك له رقم هاتفها وسوف يتصل بها خلال أيام بعد الحصول على موافقة مجلس إدارة المدرسة.

لم يتأخر كثيرا، بعد ثلاثة أيام اتصل بها وأبلغها أنها يمكن أن تبدأ العمل من الغد أن رغبت في ذلك، وافقت فورا، طلب منها إحضار بطاقتها الشخصية معها لتوقيع العقد.

وجدت ثريا في العمل بالتدريس متعة عظيمة، لم يكن ذلك العمل من ضمن خططها في فترة الدراسة، كما أنّ وجود مكان العمل بالقرب من البيت، أعطاها الوقت الكافي لرعاية والدتها وللحضور للبيت بسرعة في أية لحظة تحتاج أمها إليها.

عملت فقط لثلاثة أشهر قبل أن تبدأ عطلة الصيف، اقترحت عليها والدتها أن تقضي العطلة مع زوجها، رضخت أمام إلحاح أمها، لحسن الحظ كان إذن الإقامة ساريا ولا تحتاج للاتصال بزوجها ليرسل لها دعوة تحصل بموجبها على فيزا للزيارة.

أرسل لها زوجها تذكرة السفر، ورغم إصرار أمها عليها أن تقضي العطلة كلها مع زوجها لكنها آثرت أن تعود بعد ثلاثة أسابيع أو شهر على الأكثر.

قالت لها الحاجة نور أنا بخير، تحسنت صحتي كثيرا وأستطيع أن أقوم بنفسي بكل شيء، وسيرتب بدر وسمير ساعات عملهما

ليبق أحدهما معي ، كما أن جارتنا فاطمة تزورني يوميا وهي دائما مستعدة للحضور والمساعدة في أي شيء، في الطبخ وتنظيف البيت، لكن بمجرد سفر ثريا، عاودتها نوبات الحزن الشديد والشعور بالوحدة.

فاطمة جارتهم كانت تحضر يوميا، تعد لهم الأكل، رغم أن بدر وسمير كأنا يبذلان أيضا جهدا لتنظيف البيت وإعداد الاكل، أقنعتهما فاطمة أن يتركا لها مهمة اعداد الأكل لوالدتهم، تقول لهما: الأكل الذي تعدانه لذيذ، لكنه لا يصلح لمريض بارتفاع ضغط الدم! أوضحت حين لاحظت أنهما لا يفهمان الفرق: والدتي كانت مصابة بارتفاع الضغط وزوجي أيضا لديه نفس المشكلة، لذلك أنا معتادة على طبخ الاكل بملح قليل وبقليل من لحم الدجاج، أو أعد لهما السمك، وتقول باسمة: اللحم الأحمر هذا يصلح للشباب مثلكما، تمارسان الرياضة، حتى إن لم تلعبا الكرة، مطاردة المواصلات العامة أيضا رياضة، كل من يقيم في هذه المدينة المزدحمة يمارس الرياضة إجباريا، حكت لهما أنها ذهبت مرة لزيارة أقاربها في أحد الأحياء الواقعة في طرف المدينة، وأنها نجت من الموت، حين اضطرت للجري وهي تطارد الحافلة أملا في الحصول على مقعد تجلس عليه، لكنها سقطت أرضا ولولا أن احدهم دفعها بعيدا في اللحظة الأخيرة لسقطت أسفل إطارات الحافلة.

لاحظت فاطمة أنّ الحاجة نور لا تأكل إلا قليلا، وانّ مسحة الحزن في وجهها تزداد مع مرور الأيام، سمعت الحاجة نور تقول يوما: لو أستطيع مقابلته سأُقبل قدميه وأطلب منه أن يأمر بإطلاق سراح ولدي!

سألتها فاطمة: من تقصدين يا خالة؟

قالت الحاجة نور: أقصد رئيس الدولة!

فكـرت فاطمـة وقالـت: مـن يسـتطيع مقابلتـه، يقـال إنـه يسـافر كثيرا، يعيـش في الجـو أكـثر مـن بقائـه عـلى الأرض، ثـم فكـرت وقالـت، هـل تذكريـن صديقتـي شريفـة؟ جـاءت معـي هنـا لزيارتـك قبـل سـنة أو أكـثر.

لم يبد على الحاجة نور أنها تذكرت.

أوضحـت فاطمـة: تحـضر لزيـارتي مـن وقـت لآخـر، كنـت أسـكن في جوارهـم قبـل سـنوات، قبـل أن ننتقـل إلى بيتنـا هـذا، لكـن علاقتنـا لم تنقطـع، زوجهـا يعمـل مـع حـرس الرئيـس حسـب مـا فهمـت منهـا قبـل سـنوات، اعتقـد أنـه كان ضابطـا في الجيـش أو الشرطـة لا اذكـر، سـأطلب منهـا أن تسـأل زوجهـا أن كانـت مقابلـة الرئيـس ممكنـة وإن كان يسـتطيع المسـاعدة في ذلـك.

انفرجـت أسـارير الحاجـة نـور للمـرة الأولى منـذ أكـثر مـن عـشر سـنوات، سرت عـدوى الفـرح في البيـت، حتـى فاطمـة أصيبـت بعـدوى الفـرح رغـم أنهـا لم تكـن متأكـدة حتـى تلـك اللحظـة إن كانـت محاولة مقابلـة الرئيـس سـتنجح أم لا، لكنهـا حاولـت أن ترفـع مـن معنويـات العجـوز إلى أقـصى حـد ممكـن، قالـت: أتمنـى أن نتمكـن مـن مقابلتـه وأن يسـتطيع عمـل شيء لمسـاعدتنا، سـمعت أنـه قـام بطـرد بعـض قـادة الإخـوان المسـلمين مـن حكومتـه، يقـول النـاس إنهـم سـبب الفسـاد والحـروب واعتقـال النـاس بـدون سـبب ومطـاردة الشـباب المسـاكين في الشـوارع والأسـواق، وإرسـالهم إلى الحـرب، مـات عـدد

كبير من الشباب الأبرياء في حرب لا يعرف أحد متى ستنتهي.

ساعدت فاطمة الحاجة نور لتتوضأ لصلاة المغرب، استغرقت الحاجة نور في الدعاء بعد الصلاة، دعت الله أن تتمكن من مقابلة الرئيس وأن يساعدها في العثور على ابنها، شعرت فاطمة بالخوف كانت دموع الحاجة نور تنزل غزيرة على وجهها وهي تدعو الله أن يتيح لها لقاء ابنها قبل موتها، خشيت فاطمة ألا تتمكن صديقتها من المساعدة ويضيع كل الجهد الذي بذلته لرفع معنويات العجوز، التي أرهقها الحزن الطويل.

حاولت حتى يصل أبناء الحاجة نور إلى البيت أن تحكي لها بعض القصص والمواقف الطريفة، التي تحدث لها كلما ذهبت لشراء مستلزمات البيت من سوق الخضروات القريب، قالت بسبب إنها تقضي وقتا طويلا مع الباعة، تجادلهم في الأسعار كلما ذهبت لشراء الخضروات، أصبحت تعرف معظم الباعة، حكى لها أحد الباعة حين ناقشته في سبب ارتفاع أسعار الخضروات كل يوم رغم أن معظمها يُنتج في مزارع حول العاصمة، ولا تكلفهم كثيرا في ترحيلها، حكى لها أن الحياة أصبحت تكلف كثيرا، وتلفت حواليه قبل أن يقول بحذر، قبل وصول هذه الحكومة للسلطة لم يتعب آبائنا كثيرا، كان التعليم مجانا، وكان العلاج في المستشفيات الحكومية مجانا، الآن حين يمرض أحد أطفالي اضطر للاستدانة لدفع تكاليف العلاج، لا يعطون الطفل حبة دواء إن لم أدفع ثمنها أولا، ألم تسمعي قصة الطفل الذي توفي في إحدى المستشفيات الغالية أثناء عملية جراحية، ورفضت المستشفى تسليم الأب جثة ابنه ليقوم بدفنها قبل أن يدفع للمستشفى بقية تكلفة العملية الجراحية! كما أنه

بسبب تطور الحياة أصبحت هناك منصرفات كثيرة، حتى الأطفال يريدون نقود إضافية لشراء رصيد لجهاز الموبايل، زوجتي أيضا أصبحت حياتها كلها في داخل هذا الجهاز العجيب الشبيه بمنشار يستهلك كل ما نحصل عليه من دخل. ثم ضحك وحكى لي قصة بائع زميل اشترى جهاز موبايل قبل فترة، بعد أن ظل طوال سنوات يرفض اقتناء الجهاز، مبررا ذلك بأن من صنع هذا الجهاز يريد التجسس على الناس! وكان زملائه وأصدقائه يسخرون منه! ماذا ستريد أجهزة المخابرات من بائع خيار وجرجير! في النهاية اقتنع بأنه يجب أن يشتري جهاز موبايل، وبسبب أنه لا علاقات كثيرة له، بقي الموبايل بجانبه صامتا طوال الوقت، تحولت أسئلة الناس من حوله إلى: لماذا يبق جهازك طوال الوقت صامتا، ألا تخشى زوجتك أن تتعرف إلى امرأة أخرى وأنت تعود إلى البيت كل يوم متأخرا؟ يجب أن تتصل بك من وقت لآخر حتى تتأكد أنك مشغول في عملك، وليس مع النساء!

كان يرد بسرعة وحسم: لست متزوجا!

لماذا لا تتزوج! تريد أن تجمع المال طوال حياتك؟ افرض أن سيارة صدمتك أو سقطت صاعقة في الخريف فوق رأسك، من سيرث كل هذا المال الذي تجمعه ليلا ونهارا!

وحتى يجد حلا لمشكلة عدم الاتصال به، طلب من أحد زملائه في السوق سرا أن يتصل به، اعتذر الزميل أن تليفونه خال من الرصيد ولن يستطيع الاتصال به، أعطى زميله ثمن الرصيد ولبث في الانتظار بعد أن أبلغ جميع جيرانه في السوق أنه في انتظار محادثة تليفونية مهمة اليوم! لكن الاتصال لم يتم، يبدو أن

صديقـه كان جائعـا ومحتاجـا للـمال وبـدلا مـن شراء رصيـد للموبايـل، ذهـب إلى مطعـم قريـب مـن السـوق واشـترى وجبـة سـمك مقـلي، والمصيبـة أنـه قـام بإبـلاغ الجميـع بالقصـة، وفي حـين كان زميلهـم البائـع يعلـن أنـه في انتظـار محادثـة مهمـة، كان الجميـع يسـتغرقون في الضحـك لأنهـم يعرفـون أن النقـود التـي دفعـت للاتصـال التليفـوني ذهبـت الى مطعـم السـمك!

ابتسـمت الحاجـة نـور قليـلا، ولحسـن الحـظ وصـل أبنائهـا في تلـك اللحظـة، فودعتهـم فاطمـة لتعـود الى بيتهـا.

33

مضت أيام طويلة، كان الأمل يرتفع أحيانا في قلب الحاجة نور، قبل أن يخبو فجأة حين تمر أيام دون أن تسمع شيئا جديدا يحقن الحياة في شرايين الأمل، أخبرتها فاطمة بعد أيام أنها تحادثت مع صديقتها، وقد وعدت الصديقة بان تتحدث مع زوجها في الأمر، أعطى احتمال حدوث شيء قريب دفعة قوية لآمال الحاجة نور في قرب رؤيتها لابنها، مضت أيام دون أن تسمع فاطمة شيئا من صديقتها، لكنها كانت تواصل محاولة بث الأمل في قلب الحاجة نور، أخيرا اتصلت الصديقة، زوجها يعمل الآن في حراسة الزوجة الثانية للجنرال، تحدث مع زوجة الجنرال، وقد وعدته رغم مشاغلها بترتيب اللقاء مع الجنرال.

تحادث بدر الدين مع فاطمة، أوقف فاطمة أمام باب البيت وهي تهم بالمغادرة حتى لا تسمع أمه بكلامه مع جارتهم، أوضح لها أنه يخشى لو استطاعت والدته لقاء الرئيس، أن يعطيها ذلك اللقاء الأمل في أنّ عبد الرحيم سيعود قريبا، لكنه سمع أنّ أشخاصا كثيرين سعوا للقاء مسئولين حكوميين بخصوص ذويهم المفقودين، تلقوا وعودا بحل المشكلة ثم لم يحدث شيء، إنه يخشى أن تكون الصدمة على أمه كبيرة، لأنّ عدم حدوث شيء بعد مقابلة الرئيس سيعني بالنسبة لها أنّ أسوأ الاحتمالات قد وقع فعلا، لكن فاطمة كان لها رأي مختلف، قالت إنّ الحاجة نور قد أرهقها الصبر والانتظار، وأنها بحاجة لبذل محاولة للوصول إلى ابنها، تعطيها

بعض القوة لتحمل رهق الانتظار دون أمل، أوضحت: ولماذا لا نتوقع حتى لو بنسبة قليلة، أنّ لقاء الرئيس هذا قد يثمر حلا للمشكلة؟

شرح لها بدر الدين وجهة نظره: بدلا من اللقاء لو قمنا بكتابة عريضة وأرسلناها عبر نفس هؤلاء الناس إلى الرئيس، قد يكون الانتظار لنتيجة العريضة مجديا أكثر، حتى لو طال انتظار الرد، فيمكن دائما القول إن الرئيس يتلقى عرائض كثيرة، إضافة لأسفاره ومشاغله الأخرى، ويحتاج لشهور طويلة للرد عليها.

فكرت فاطمة قليلا وقالت: أعتقد أن فكرة العريضة فكرة جيدة وممكنة، لكن زوج صديقتي تحدث على كل حال مع زوجة الرئيس، ترتيب المقابلة نفسه مؤكد ليس سهلا، أن نجح ذلك فدعنا نجربه وإن لم ينجح نلجأ لفكرة العريضة، وهي طبعا سيكون إرسالها للرئيس أكثر سهولة من محاولة ترتيب لقاء.

لم يبد على بدر الدين أنه اقتنع تماما، لكنه شكرها على مجهودها وقال ليس علينا إذن سوى الانتظار.

كانت ثريا تتصل يوميا للاطمئنان على والدتها، لم تخبرها الأم بأنها قد تقابل الرئيس قريبا، خشيت أن تعترض ثريا على الفكرة، اعترضت ثريا عدة مرات على أية محاولات للوصول إلى بعض النافذين في النظام، كانت تقول إنهم جميعا يكذبون، يتبادلون الأدوار، يزعم بعضهم التعاطف مع ضحايا انتهاكات حقوق الإنسان، بينما هم جميعا جزء من هذه الانتهاكات وتتم بعلمهم.

بعد أيام اتصلت فاطمة، كان بدر الدين في مكان عمله في ذلك

الوقت، رد عليها سمير الذي بقي مع والدته ذلك النهار، أخبرته أن زوج صديقتها سيحضر بعد يومين لاصطحاب الحاجة نور ويمكن لأحدهما مرافقتها وأنها ستكون معهم.

لم يكن بدر الدين سعيدا بفكرة لقاء الرئيس، لكن لم يكن هناك بد من الذهاب معها، على الأقل حتى يشهد ما سيقوله الرئيس، كان قد سمع أن مندوبا من المفوضية السامية لحقوق الإنسان سيزور البلاد قريبا، وربما يتمكن من مقابلته، لم يكن متأكدا إن كان هو نفس المندوب الذي قدّم له قبل سنوات عريضة يشرح فيها قضية اختفاء شقيقه وفشل كل جهودهم لاستجلاء مصيره.

جاءت فاطمة مبكرا في اليوم الموعود، ساعدت الحاجة نور على الاستحمام وارتداء ملابسها، كان واضحا تفاؤل الحاجة نور بلقائها المنتظر مع رئيس الجمهورية. حتى أنها للمرة الأولى منذ سنوات وجدت الشجاعة لترتدي الثوب الذي كانت ترتديه يوم زفاف عبد الرحيم الذي لم يكتمل، ظلت تتحاشى ذلك الثوب طوال سنوات، حتى أنها وضعته أسفل كومة من الملابس في خزانة ثيابها حتى لا تقع عيناها عليه ولا بالصدفة، فتنفتح جروح تلك الليلة التي ظلت تنزف لأكثر من عشر سنوات، كان ثوبا قطنيا بلون سماوي، مصنوع في سويسرا، أحضره عبد الرحيم لها لترتديه في ليلة زفافه.

جاء الضابط زوج صديقتها في الموعد، رفض دعوة بدر الدين للدخول إلى البيت لشراب كوب من الشاي ، اعتذر بأنهم قد يتأخرون في الوصول بسبب ازدحام طرقات المدينة، كان اذان العشاء ينطلق من مساجد المدنية حين انطلقت السيارة تعبر شوارع المدينة التي خففت أنسام الليل الزاحفة، من الحرارة القاتلة التي

تكاد تذيب كل شيء أثناء النهار الطويل.

توقفت السيارة في مدخل قيادة الجيش، ورغم أن صاحب السيارة يعمل في المكان لكن السيارة تعرضت لتفتيش دقيق، وتمت مراجعة هويات ركابها وتفتيش ملابسهم قبل السماح لها بالعبور، توقفت السيارة أمام بوابة منزلة الرئيس، نزل الضابط وتحادث قليلا مع الحراس أمام البيت، عاد الضابط ليطلب من مرافقيه البقاء داخل السيارة لدواعي الأمن، أبلغهم أنه أرسل لزوجة الرئيس حسب اتفاقه معها وأنه ينتظر الإذن بالدخول، طال انتظارهم لأكثر من ساعة. شعر بدر الدين بالضيق والغضب لكنه كظم غيظه، ربما انشغل الرجل بأمور عاجلة، كان يشعر بعدم ارتياح تجاه المقابلة، والدته ليست في حاجة لصدمة أخرى، لكنه لم يشأ أن يغلق أية نافذة للأمل حتى لو كانت ضيقة لا ينفذ منها شعاع ضوء واحد.

اعتذر لهم الضابط مرة أخرى، كان ينظر في ساعته قلقا، قال ربما هناك اجتماع طارئ أو محادثة تليفونية مهمة، أفضل أن ننتظر قليلا بدلا من محاولة عمل موعد جديد قد يستغرق أشهرا.

فجأة انفتحت بوابة البيت، ظهرت زوجة الرئيس، كان معها ثلاثة مرافقين، نادت على الضابط، وتحدثت معه بسرعة، ثم استقلت إحدى السيارات الواقفة وغادرت المكان.

عاد الرجل، كان واضحا أنه يشعر بالحرج، قال بعد تردد: أنا في غاية الأسف السيدة أوضحت لي أنّ السيد الرئيس غادر قبل

فـترة بسـبب اجتـماع عاجـل لم يكـن في جـدول أعمالـه.

صمـت الجميـع تحـت تأثـير الصدمـة، كان بـدر الديـن ينظـر إلى أمـه بخـوف، رأى والدتـه متماسـكة رغـم خيبـة الأمـل، شـعر الضابـط أنهـم تفهمـوا الأمـر فاسـتأذن منهـم لدقيقـة واحـدة، فقـد رأى أحـد زملائـه في طاقـم الحراسـة وصـل في تلـك اللحظـة، ويريـد أن يسـأله مـن شيء مـا قبـل أن ينطلقـوا عائديـن، طالبـا منهـم ألا يقلقـوا وأنـه سـيبذل جهـدا مضاعفـا لعمـل موعـد جديـد في أقـرب فرصـة ممكنـة.

شـاهدوا الضابـط يقـف جانبـا مـع زميلـه الـذي وصـل قبـل قليـل، يتحادثـان بعيـدا قليـلا عـن طاقـم الحراسـة أمـام بيـت الرئيـس، فجـأة انفتـح البـاب مـرة أخـرى. لمعـت نجـوم البذلـة العسـكرية، شـاهدوا الجـنرال وسـط رجالـه يخـرج مـن البيـت.

قبـل أن يتـدارك بـدر الديـن أو فاطمـة صدمـة ظهـور الرجـل رغـم قـول زوجتـه إنـه غـادر المـكان مبكـرا، قامـت الحاجـة نـور بسرعـة بفتـح بـاب السـيارة، ورغـم أنهـا كانـت تمـشي بصعوبـة في الفـترة الأخيرة بسـبب آلام المفاصـل وآلام الركبـة، لكنهـا سـارت بنشـاط وبخطـوات واسـعة حتـى اقتربـت مـن السـيد الرئيـس، الـذي لم يتوقـف رغـم أنّ العجـوز كانـت تتوسـل إليـه ليسـتمع إليهـا، دفعهـا الحـرس لإبعادهـا عـن السـيد الرئيـس، فسـقطت أرضـا، لم يتوقـف السـيد الرئيـس ولم يتوقـف حرّاسـه الأربعـة، اسـتقلوا السـيارة التـي انطلقـت بسرعـة.

أسرع بـدر الديـن باتجـاه أمـه، وجـاء الضابـط راكضـا يبـدو أنـه لم ينتبـه للمشـهد منـذ بدايتـه، رفعـا الحاجـة نـور مـن عـلى الأرض، كان واضحـا أنهـا لا تقـوى عـلى المـشي، حملاهـا ووضعاهـا في السـيارة،

كان صدر السيدة العجوز يعلو ويهبط بسرعة، وبدا واضحا أنها تعاني من صعوبة في التنفس، اقترح الضابط أن ينقلهم إلى أقرب مستشفى، حاول الضابط اختصار الوقت بقيادة سيارته في شوارع جانبية حتى يتفادى ازدحام الشوارع المكتظة بالسيارات رغم تأخر الوقت.

توقفت السيارة داخل المستشفى، طلب الضابط قبل أن يوقف سيارته من أحد العاملين إحضار نقالة بسرعة لنقل المريضة.

في تلك اللحظة تحديدا وبين ذراعي ولدها أسلمت الحاجة نور الهدى عبد الرحمن، الروح. كانت حركة الجسد قد همدت حين وضعوها على النقالة، فحصها الطبيب بسرعة، قبل أن يعلن وفاتها.

34

استيقظوا على مشهد البنادق في وجوههم، كان الوقت فجرا، تحت تهديد السلاح خرجت المجموعة كلها، كانت هناك حافلة في انتظارهم في الخارج، شلّت المفاجأة قدرة سعيد على التفكير، شعر أنّ كل ما بناه وخطط له خلال الفترة الماضية على وشك أن يضيع، سيكون مصيرهم مجهولا، كان قد سمع أن المهاجرين الأفارقة يتعرضون للخطف ويباعون كرقيق، لتشغيلهم في المزارع والمصانع، تحدّث منسق الرحلة عن جماعات متطرفة تحاول اختطاف قوارب المهاجرين لكنه لم يحذرهم من احتمال جماعات قد تداهم البيت الذي حسبوه آمنا وبعيدا عن الأعين.

شعر سعيد أنّ الموت الذي نجا منه في معتقلات جهاز الأمن سيتمكن منه أخيرا في هذه البلاد النائية، داخل السيارة قاموا بعصب عيونهم جميعا، حتى لا يتعرف أحدهم على المكان الذي سيأخذونهم إليه.

أخذوهم إلى مخيم خارج المدينة في منطقة جبلية على مشارف الصحراء، حين أزالوا العصابة من عينيه شاهد سعيد علم الدولة الإسلامية الأسود، كان هناك عدد من الشباب صغار السن يخضعون لتدريبات رياضية.

وضعوهم في خيمة كبيرة على يمين المعسكر، في الجانب المقابل كانت هناك خيم أخرى لمجموعات التنظيم وخيم أخرى للنساء والأطفال، تطل كلها على ساحة التدريب في الوسط، وفي الجانب

الشمالي خيمة أخرى أكبر حجما تستخدم كمسجد.

تولى أربعة من الشباب حراستهم، لم يكن مسموحا لهم الخروج من الخيمة الا لأداء الصلاة أو قضاء الحاجة، يتولى الحراس إحضار الطعام مرتين في اليوم، أشاروا للمرأة الوحيدة زوجة الشاب الأثيوبي لتذهب إلى خيمة النساء.

استيقظ سعيد صباح اليوم التالي مرهقا من النوم على الأرض، سمح له الحراس بالذهاب إلى المرحاض الواقع خلف المعسكر، شاهدهم يتدربون من على البعد، يحمل بعضهم صواريخ على الكتف يبدو أنها صواريخ مضادة للطائرات، تذكر قول الخبير الذي قاد رحلتهم عبر الصحراء، أنّ طيران بعض الدول المجاورة يقوم بغارات مستهدفا معسكرات تنظيم الدولة الإسلامية.

شاهد خيمة أخرى أكبر حجما لم يرها بالأمس، تقع خلف المسجد بين تلال صغيرة من الرمال، لا يبدو أنها تستخدم للسكن، خمّن أنها تستخدم كمخزن للمعدات وربما الأسلحة، شاهد في نفس الاتجاه بعيدا قليلا من خيمة المخزن، سيارة تكاد تكون مغطاة بالرمال، لولا انعكاس ضوء الشمس على جزء من زجاجها الأمامي غير المطمور في الرمال، لما لاحظها سعيد، لم يعرف أن كان ذلك مقصودا لتمويه السيارة، أم أن الرمال الزاحفة غطتها بسبب عدم استخدامها لفترة طويلة، لم ير العربة التي أقلتهم بعد اختطافهم ربما يحتفظون بعرباتهم داخل الخيمة الكبيرة..

المرحاض كان مجرد خيمة صغيرة بداخلها حفرة عميقة في الرمال مثبتة حوافها بأعواد وقطع من الخشب، تفوح منها رائحة

الأمونيا، استيقظت مجموعتهم، كان لا يزال الرعب مخيما على المجموعة، مجرد وقوعهم في يد داعش كان يعني أسوأ الاحتمالات، استدعوهم كل واحد منهم على حدة لمقابلة شخص اسمه أبو النعمان، أبلغهم أبو النعمان أنّ إطلاق سراحهم مشروط بدفع فدية، طلب منهم إحضار أرقام تليفونات أهلهم، أبلغه سعيد بأن أسرته فقيرة ولا تستطيع تدبير المبلغ، نصحه أبو النعمان أن يتصل بهم ليقوموا بتدبير المبلغ المطلوب، لأن البديل عن الدفع سيكون أمرا سيئا، أعطاه أبو النعمان الهاتف وطلب منه أن يتصل أمامه، شرح له سعيد وضع أسرته مرة أخرى، ثم أوضح له أنه دفع مبلغا من المال للرجل الذي سينظم سفرهم عبر البحر، ومن الأفضل أن يتصل به ليعيد له المبلغ المدفوع ويمكنه أن يدفعه لهم مقابل إطلاق سراحه، تردد الرجل قليلا، ثم سمح له بالاتصال بالرجل بشرط أن يكون حذرا، وأن يطلب منه فقط تسليم المبلغ إلى شخص سيرسلون له رقم تليفونه.

بمجرد أن أدار الرقم وعرّف نفسه، بدأ الرجل يصرخ متسائلا أين أنتم؟ كان مفروضا أن تسافروا فجر الأمس، شرح له سعيد باقتضاب أنهم بسبب ظروف طارئة لا يستطيعون السفر الآن، وأنه يريد استعادة المبلغ الذي دفعه له، لكن الرجل كان يصيح من الجانب الآخر: لا أستطيع إعادة المال لك، لقد دفعته للجهة التي تنظم الرحلة والمشكلة أنكم لم تسافروا في الرحلة المحددة، وهم يرفضون إعادة المال الذي دفعته لهم!

حاول بعض المحتجزين الاتصال بذويهم، شرح لهم الرجل الأثيوبي أن أسرته لا تملك مالا وأنه مسافر ليحاول مساعدة أسرته،

لكـن أبـو النعـمان هـدده، وأمهلـه أسـبوعا واحـدا والى فإنـه سـيدفع حياتـه ثمنـا.

قـال الشـاب الأثيـوبي بعـد عودتـه مـن مقابلـة أبـو النعـمان: أخـشى أنهـم سـيقتلوننا لأننـا لسـنا مسـلمين ولا نملـك مـالا!

قـال سـعيد : لقـد هددونـا جميعـا بالمـوت، لا أعتقـد أنهـم ينظـرون إلى الديانـة بـل إلى المـال، ونحـن جميعـا لا نملـك المـال!

قـال الشـاب الأثيـوبي: اتصلـت امامـه بأخـي، لكننـي أعـرف أنـه لا يسـتطيع عمـل شيء، لـو كنـت أملـك هـذا المـال مـا غامـرت بحيـاتي مـن أجـل الهجـرة!

مـرّت الأيـام كئيبـة، لاحظـوا أنّ الدواعـش يضيّقـون عليهـم الخنـاق، ويراقبونهـم عـلى مـدار السـاعة، في اليـوم السـابع اسـتدعوهم خارجـا، أوقفوهـم في صـف وكأنهـم سـيقومون بإعدامهـم، تقـدم أحـد مقاتليهم شـاهرا مسدسـا، أطلـق منـه رصاصـة عـلى الشـاب الأثيـوبي في رأسـه أردتـه قتيـلا، كانـت زوجتـه تـصرخ حـين حملهـا اثنـان مـن الدواعـش وأعاداهـا إلى الخيمـة التـي تقيـم فيهـا النسـاء.

قـال الرجـل وهـو لا يـزال شـاهرا مسدسـه: أمامكـم ثلاثـة أيـام إمـا الدفـع أو سـتواجهون نفـس المصـير، وأشـار إلى جثـة الأثيـوبي الغارقـة في الدمـاء.

أعادوهـم إلى خيمتهـم، كان الشـعور بالصدمـة والحزن الشـديد على اغتيـال رفيـق الرحلـة الأثيـوبي امامهـم يمنعهـم حتـى من الكلام، شـعروا أنّ إعـدام الرجـل بنـك الصـورة البشـعة، يحبـط آخـر أمـل في احتـمال نجاتهـم، وأنّ نفـس المشـهد سـيتكرر خـلال سـاعات، في رؤوسـهم.

اتصل سعيد مرة أخرى بمنسق الرحلة، لم يرد الرجل إلا بعد أن كرّر الاتصال به عدة مرات، قال له الرجل نعرف أن الدواعش يحتجزونكم ولا تستطيع الكلام، الموقف صعب حاولت أن استرجع المال لكن أقصى ما حصلت عليه أنهم سينقلونكم إلى أوروبا إذا أمكن لكم الهروب من الدواعش، ودون أن ينتظر منه الرجل جوابا حاول أن يشرح له بعض الإشارات التي يمكن تتبعها في الصحراء للوصول إلى ساحل البحر.

اضطر سعيد أن يختم المحادثة لأن الرجل كان ينظر إليه بشك، قال للمنسق: أرجو أن تبذل جهدك لاستعادة مال الرحلة بسرعة وسوف نرسل لك رقم الرجل الذي سيستلم منك المال.

مرّ يومان وبقي يوم واحد على المهلة، لاحظوا أن الدواعش زادوا من الحراسة حولهم ليلا، حتى لا يفكر أحد في الهرب.

في الليلة الأخيرة ودعوا بعضهم البعض، لم تكن هناك أي نتيجة للاتصالات التليفونية بأسر المعتقلين، عرفوا أن ليلتهم تلك ستكون الأخيرة، وأنهم ربما يتم إعدامهم قبل بزوغ شمس اليوم التالي، بقي سعيد الذي لم يستطع النوم بسهولة في استعراض حياته، تذكر أنّ والده حرص على تعليمه السباحة بسبب حوادث غرق شهدتها بلدتهم لبعض الشباب في موسم المطر حين تمتلئ الفولة والبرك والخيران الموسمية، أصبحت السباحة هوايته الأثيرة، حتى أنه شارك في بعض مسابقات السباحة في الخرطوم وكان يفوز دائما بمراكز متقدمة، سخر منه أصدقائه في الخرطوم في البداية حين أعلن لهم أنه يجيد السباحة، قال له أحدهم: أين تعلمت السباحة؟ هل كنت تسبح في الرمال؟ لا توجد أنهار في غرب البلاد!

شرح لهـم أن مدينتهـم والمناطـق المحيطـة بهـا كانـت تتحـول في موسـم المطـر إلى بحـر كبـير، لكـن أحـدا لم يصدقـه، قـال أحدهـم: كيـف تسـبح في مـاء المطـر؟ ولا حـظ صديـق آخـر: منطقتكـم الأرض فيهـا رمليـة لا تبـق قطـرة مـاء عـلى سـطح الأرض بعـد دقائـق مـن هطـول المطـر! لابـد أنـك تقصـد بحـر الرمـال!

دعاهـم لزيـارة مدينتـه في الخريـف، لبـى اثنـان مـن أصدقائـه الدعـوة، فوجئـوا بالأمطـار الغزيـرة والـبرك والخـيران، التـي أدت لإغـلاق الطـرق، مـا أدى لاحتجازهـم في البلـدة لحـين انتهـاء موسـم المطـر.

أثنـاء الطريـق عـبر الصحـراء كان دائمـا يشـعر بالفـرح لاسـتطاعته تعلـم السـباحة، ربمـا يسـاعده ذلـك في سـفره الطويـل، فقـد سـمع أن كثـيرا مـن النـاس يفقـدون حياتهـم بسـبب عـدم إجادتهـم للسـباحة حـين تتعطـل القـوارب التـي تقلهـم أو تغـرق بسـبب الريـاح والأمـواج العاتيـة.

كانـت الليلـة الأخـيرة في تلـك الصحـراء القاحلـة، نظـر سـعيد مـن ثقـب في الخيمـة، كان ثلاثـة حـرّاس يتمشـون جيئـة وذهابـا مثـل رجـال آليـن، فيـما قمـر سـاحر يغـرق العـالم في ضـوء الفضـة البـاردة.

35

استيقظ سعيد على صوت انفجار قوي اهتزت له الأرض، قفز من مكانه مفزوعا معتقدا أن حفلة الإعدام بدأت، نظر إلى ساعته كان الوقت الواحدة بعد منتصف الليل شاهد النيران في بعض الخيام، كان بعض رفاقه قد استيقظوا أيضا على وقع الانفجار، كان أول ما فكّر سعيد، أن المعسكر ربما يتعرض لهجوم، نظر في الخارج فلم يجد لحرّاسهم أثرا، نبه رفاقه أنهم يجب أن يبتعدوا من المكان بسرعة ربما يكون الهجوم مستمرا، خرجوا بسرعة وانطلقوا إلى التلال المحيطة، شاهدوا شبحا في ضوء القمر وأضواء نيران المعسكر يتجه نحوهم، حسبوا في البداية أنه أحد الدواعش لكنهم اكتشفوا أنها السيدة الأثيوبية زوجة الرجل الذي قتله الدواعش. قالت لهم أنّ الدواعش هربوا قبل أن تسقط القنابل في المكان، جاءوا فجأة وأيقظوا النساء والأطفال ولاذوا بالفرار، خرجت هي من خلفهم في الوقت المناسب قبل أن تبدأ الغارة شاهدت أشباح سياراتهم تبتعد وهي مطفأة الأنوار باتجاه الصحراء.

انبطحوا أرضا بين تلال الرمال بعيدا قليلا عن المعسكر، رفع سعيد رأسه لم يكن هناك اثر لطائرات في الجو، قال يبدو أن الغارة استهدفت مخازن السلاح، كانت هي الخيمة الوحيدة التي لا زالت النيران تشتعل فيها، قال مفسرا كلام السيدة الأثيوبية حول أن الدواعش هربوا قبل وقوع الغارة، لابد أنهم تلقوا تحذيرا من جهة ما.

لاحـظ أحـد المهاجريـن: غريـب أن الغـارة لم تسـتهدف الخيمـة التـي نسـكن فيهـا أو حتـى الخيمـة التـي يقيـم فيهـا الدواعـش، علّـق سـعيد: لابـد أنهـم يعلمـون بوجـود محتجزيـن مـع الدواعـش، أو أنهـم رصـدوا هـروب الدواعـش فاسـتهدفوا فقـط مخـازن السـلاح.

كان الجـو هادئـا، اقـترح سـعيد أن يقومـوا بالهـرب بعيـدا مـن المـكان، ربمـا يعـود الدواعـش مـرة أخـرى.

تساءل أحـد رفقـاء الرحلـة: إلى أيـن نذهـب نحن لا نعـرف حتى أين نحـن؟ وسـيكون انتحارا أن حاولنا التوغل في هـذه الصحراء دون معرفة!

أوضـح سـعيد أن المنسـق شرح لـه كيـف يتجـه شـمالا باتجـاه البحـر بتتبـع النجـم القبطـي، قـال: إن المسـافة كانـت حـوالي سـاعة قطعناهـا مـن مصراتـة إلى هـذه المنطقـة. قـد يعنـي ذلـك مسـيرة يـوم، فكّـر سـعيد قليـلا ثـم قـال عنـدي فكـرة، تبعتـه المجموعـة وهـو يتجـه خلـف المخـزن المحـترق حيـث رأى السـيارة المدفونـة في الرمـال، كانـت لا تـزال في مكانهـا، قـال لهـم أن نجحنـا في إخـراج السـيارة مـن الرمـال واسـتطعنا إدارة المحـرك ربمـا يمكننـا الوصـول بسرعـة إلى مصراتـة، بالطبـع لا أعلـم أن كانـت العربـة تعمـل أم لا وهـل هنـاك وقـود يكفـي للوصـول إلى وجهتنـا، لكنهـا محاولـة عـلى كل حـال أرجـو أن تنجـح.

علق أحد الشباب الإريتريين من زملاء الرحلة:

أخـشى أن يضيـع الوقـت في هـذه المحاولـة وحـين نقـرر أن نسـير عـلى أقدامنـا يكـون الدواعـش قـد رجعـوا أو تـشرق الشـمس ويختفـي النجـم القبطـي!

قال سعيد سنحاول العمل بسرعة كسبا للوقت، بدءوا فورا في العمل، جرى سعيد باتجاه المعسكر أملا في العثور على معدات تساعدهم في إزاحة الرمال بسرعة، عثر بالفعل على جاروف وقطع من الخشب، ساعدت في تجريف الرمال بسرعة من حول العربة، كانت سيارة لاندكروزر يبدو أنهم يستخدمونها لنقل السلاح والمعدات، قام سعيد بنزع الأسلاك من جهاز إدارة المحرك، وقام بتوصيل الأسلاك مع بعضها لإشعال المحرك، لكنّ الموتور الذي يشعل الماكينة أصدر صوتا متقطعا دون أن يدير الماكينة، قال سعيد لا بد من أن البطارية فارغة لم تشحن منذ وقت طويل.

فحص البطارية، كانت تبدو جديدة، قبل أن يعلن: لابد من دفع السيارة حتى نتمكن من إدارة محرّك السيارة، مكان وقوف السيارة لم يكن ملائما للدفع بسبب الرمال، اقترح سعيد أن يتكاتفوا جميعا لدفع السيارة لإخراجها من مكانها باتجاه المعسكر، حيث الأرض الثابتة نسبيا منحدرة قليلا ويمكن دفع السيارة فيها بسهولة، قال سعيد لحسن الحظ أن الماكينة تعمل بالديزل، تحتاج لوقود أقل وحتى البطارية إن لم تكن قوية بما يكفي فالمحرك لا يحتاج لها كثيرا.

اضطروا لحفر الرمال لتمهيد الطريق أسفل إطارات السيارة، لحسن الحظ كانت الإطارات في حال جيدة، كانوا يدفعون السيارة قليلا ثم يتوقفون لحفر الرمال أسفل الإطارات مرة أخرى، استغرق ذلك وقتا طويلا حتى بدأت العربة تخرج من المنطقة المنخفضة بين تلال الرمال، سعيد كان ينظر من وقت لآخر حواليه قلقا من احتمال عودة الدواعش قبل مغادرتهم للمكان، طمأنه أحد رفاق

المجموعة: المكان أصبح مكشوفا لا أعتقد أنهم سيعودون إليه مرة أخرى. قال سعيد: أخشى أن يحضروا ليجمعوا بعض الأشياء التي نجت من الحريق وربما ليصفوا حساباتهم معنا.

أصبحت السيارة الآن في وضع أفضل، في أعلى التلة الصغيرة تشرف على الميدان ووسط المعسكر، نبههم سعيد أن بذل مجهود مضاعف لدفع السيارة، سيوفر لهم الجهد والوقت ويمكنهم الانطلاق فورا في رحلتهم، طلبوا من سعيد الجلوس إلى مقود السيارة وإعداد السيارة، كانت الدفعة قوية لكن المحرك لم يستجيب، أوضح سعيد أن السيارة لم تتحرك منذ أشهر، لذلك لا يستجيب المحرك بسرعة، المحاولة الثانية كانت داخل الميدان، عدّل سعيد المقود باتجاه جانب من الميدان به أرض منخفضة قليلا، كانت الدفعة أكثر قوة هذه المرة رغم أن أرض الميدان ليست منحدرة كثيرا، لحسن حظهم دار المحرك هذه المرة، ضغط سعيد على الوقود بشدة حتى يضمن ألا يتوقف المحرك مرة أخرى، وحتى تشحن البطارية أكبر قدر من الطاقة بسرعة، ثم عاد مرة أخرى ليفحص المحرك، أسرع يبحث عن ماء في الخيام التي لم تحترق، عاد ببعض الماء، أعاد تعبئة خزان تبريد المحرك الصغير بالماء، وشرب من بقية الماء وأعطى رفاقه، في تلك اللحظة لاحظوا أنهم يشعرون بالعطش والجوع لكن الشعور بالخوف كان أكبر، عاد سعيد جاريا إلى إحدى الخيم، عثر على بعض الخبز المجفف وبعض البسكويت ومسحوق الحليب الجاف والسكر وضعه في السيارة، ركبت المجموعة بسرعة، المرأة الأثيوبية بجانب سعيد وبقية الشباب في الخلف، نظر سعيد إلى السماء، لتحديد موقع النجم القطبي، لحسن الحظ كانت

السيارة نصف مليئة بالوقود، أعلن : إذا لم نضل الطريق سيكفي الوقود لنصل إلى وجهتنا، انطلقت السيارة بسرعة، غالبا ربما يعود الدواعش صباحا لجمع بقية الأشياء التي تركوها خلفهم، وإن سارت الأمور بصورة جيدة ولم يضلوا الطريق سيكونون حتى ذلك الوقت قد وصلوا إلى وجهتهم.

36

قاد سعيد السيارة في درب غير ممهد، لاحظ أن المرأة الأثيوبية كانت تبكي بصمت، لقد فقدت في هذه الرحلة البائسة ابنها وزوجها، ولا زال مصيرها نفسه معلّقا في المجهول، حاول أن يخفف عنها قليلا، ونصحها بالنوم بعد تعب الليلة المنصرمة، كانت إشارات الفجر الوليد قد بدأت تظهر في الأفق حين بدأت أضواء متناثرة تظهر من على البعد، لحسن الحظ لم تتوقف السيارة منذ انطلاقتها، كان واضحا أن المحرّك أعيدت صيانته قبل فترة، فكّر أنّ الدواعش ربما تركوا من خلفهم مزيد من السيارات مدفونة في الرمال ولابد أنهم سيعودون لنقلها إلى مقرهم الجديد، إن لم تكن الطائرات المغيرة قد اصطادت سياراتهم في رحلة الهروب.

بسبب عدم تأكده من الطريق سار سعيد بِبَطّ حتى لا يبتعد كثيرا أن سار في اتجاه آخر، لم يكن هناك من طريق للاتصال بمنسق الرحلة، كان بعض أفراد المجموعة قد تركوا تليفوناتهم في البيت عند اختطافهم، من استطاعوا حمل تليفوناتهم استولى الدواعش عليها عند تفتيشهم لدى وصولهم للمعسكر.

سيعتمد الان على ذاكرته إن لم يستطع الوصول إلى البيت الذي كانوا يقيمون فيه، فسيصعب عليهم العثور على منسق الرحلة.

قال سعيد : أعتقد أننا على مشارف مصراته، أفضل أن نتوقف هنا قد يصبح التعرف إلى البيت أكثر سهولة حين تشرق الشمس، انتبه سعيد إلى أنه كان يكلم نفسه، كانوا جميعا نيام.

استيقظوا على وقع شمس حارقة، أشار له أحد الشباب الإريتريين على الاتجاه الصحيح، قال له إن البيت كان قريبا جدا من البحر، بدت لهم ملامح الحي القريب من البحر مألوفة، ظلوا يدورون في شوارع وأزقة الحي لوقت طويل قبل أن يصرخ أحدهم هنا! كان البيت مغلقا، طرق سعيد بيت الجيران، أخبروه أنهم لا يعلمون شيئا لكن صاحب البيت نفسه يسكن في الجوار وربما يستطيع إيصالهم بالرجل الذي يبحثون عنه، أعطاهم صاحب البيت تليفونه للاتصال بالأخ التاجي كما كان يطلق على منسق الرحلة، كان التاجي سعيدا بنجاتهم من الدواعش طلب منهم الانتظار أمام البيت وسيحضر حالا لنقلهم إلى بيت آخر لحين ترتيب الرحلة الجديدة.

طلب سعيد من صاحب البيت أن يفتحه لهم ليأخذوا بعض أمتعتهم التي تركوها في البيت لحظة اختطافهم.

بعد قليل جاء التاجي، أخذهم إلى بيت آخر في الجزء الغربي من المدينة، كان البيت أفضل من البيت القديم، أحضر لهم التاجي خبزا وبعض المواد الغذائية والشاي والقهوة ووعدهم بالعودة مساء لإبلاغهم بترتيبات الرحلة.

غسلوا أجسادهم المنهكة وأكلوا بعض الخبز وشربوا الشاي واستسلموا للنوم، لم يستيقظوا إلا على وقع ضربات على الباب، كان التاجي، قال: سترتاحون يوم غد وتستعدون للرحلة بعد غد فجرا.

حذرهم التاجي قبل ذهابه ألا يفتحوا الباب لأي طارق، قال لهم إن لم يتعرفوا على صوته لا يجب أن يفتحوا الباب.

استيقظوا صباح اليوم التالي بحال أحسن بعد نوم طويل، شربوا الشاي وأكلوا بعض الخبز، قال أحد الشباب الإريتريين: لقد نسينا موضوع السيارة، ألا يمكننا بيعها تعويضا لنا على العذاب الذي وجدناه بسبب هؤلاء الدواعش! تحمس الجميع للفكرة، فالسيارة لا صاحب لها الآن على كل حال.

خبط سعيد رأسه، معك حق، لقد نسيناها تماما، سأتصل الان بالتاجي ربما يجد لها مشتريا أو يشتريها هو نفسه، قال التاجي: كم تريدون ثمنا لها؟ أخبره سعيد أن أية مبلغ مناسب سيكون جيدا بالنسبة لهم خاصة أنهم فقدوا كل ما يملكون، ولم يتبق لهم أية مال قد يحتاجون له حتى تستقر أحوالهم بعد الوصول إلى الضفة الأخرى.

سأل التاجي: سمعت أنك قمت بإصلاح هذه السيارة؟ هل لديك خبرة في صيانة السيارات؟

أخبره سعيد أنه عمل لسنوات في صيانة السيارات وأنه درس ميكانيكا السيارات في معهد متخصص.

قال التاجي: هذا ممتاز وهل لديك خبرة في قيادة القوارب؟

ضحك سعيد وقال: مرة واحدة قدت قارب صغير بمحرك، كنا في رحلة في نهر النيل ومرض قائد القارب.

قال التاجي هذا ممتاز، لديك خبرة في صيانة محركات الديزل ولديك خبرة صغيرة في قيادة القوارب، الجهة صاحبة المركب الذي ستسافرون عليه تحتاج لواحد من المهاجرين لديه بعض الخبرة في قيادة مركب، وارى أنك أكثر شخص مناسب لأن عندك خبرة

في صيانـة المُحـركات، وان وافقـت سـيعيدون لـك نصـف المبلـغ الـذي دفعتـه.

فكّـر سـعيد قليـلا وقـال، ألا يجـب في البدايـة أن أرى القـارب وارى المحـرك ثـم أقـرر أن كنـت أسـتطيع القيـام بهـذه المهمـة؟

قـال التاجـي: صدقنـي المسـألة في غايـة السـهولة، وسـتجد قيـادة المركـب أسـهل مـن قيـادة القـارب،

وكيف أستطيع تحيد الاتجاه الذي يجب أن أقود إليه المركب؟

قـال التاجـي: سـيعطونك جهـاز جـي بي اس لتحديـد الاتجاهـات وسـيشرحون لـك طريقـة اسـتخدامه، وسـيعطونك أيضـا هاتـف يتصـل بالأقـمار الصناعيـة لتتصـل برقـم مـا في حالـة الطـوارئ.

وإن وصلنا سالمين هل يجب إعادة هذه الأجهزة؟

قـال التاجـي: لا تهتـم بذلـك أن وصلتـم سـالمين لديهـم وكيـل هنـاك سـيتصل بـك في الوقـت المناسـب ويحـدد معـك موعـدا ليتسـلم الجهاز.

وهل يجب أن أحتفظ لهم بالقارب أيضا؟

ضحـك التاجـي وقـال: أيـن سـتحتفظ بـه؟ لسـت ذاهبـا في نزهـة، هـذا قـارب يسـتخدم لتهريـب البـشر سـتصادره السـلطات عنـد وصولكـم! وسيسـتجوبونكم، مـن الـذي نظّـم الرحلـة وما هـي أوصافه؟ وكـم دفعتـم لـه، أرجـو ألا تصفـوني جيـدا لهـم! يمكنكـم القـول إننـي أضـع شـالا يخفـي نصـف ملامـح وجهـي، وأنكـم لم تشـاهدوا سـوى عيـوني فقـط!

ثـم ضحـك التاجـي وقـال: يقـال إنهـم شـيدوا متحفـا كبـيرا مـن

القوارب المصادرة ومن بقية الأشياء التي يعثرون عليها في قوارب المهاجرين الغارقة، وأنّ الكثير من السوّاح يدفعون نقودا كثيرة لزيارة هذا المتحف! وهكذا نحن نوفر لهم مورد رزق جديد!

وجد سعيد العرض جيدا على الأقل ربما يضمن سلامتهم، كان قد سمع أن الأشخاص الذين يقودون مراكب التهريب يسيئون معاملة الركاب أحيانا، وقد يتخلون عنهم إن كان هناك خطر أو تعطل المركب.

قال التاجي: سأحاول عرض السيارة للبيع اليوم أن تم البيع سأحضر لكم المال مساء، إن لم أجد مشتريا سأقوم بشرائها لكنني للأسف لا أستطيع دفع مبلغ كبير لكم.

37

قالت هاجر السناري في اجتماع التحرير الأسبوعي: ألاحظ أننا بدأنا نتحول إلى نسخة من الصحف المستقلة التي ترفع راية الاستقلال وهي تنفذ تعليمات الرقابة أفضل من الصحف المسماة حكومية!

ابتسم رئيس التحرير وقال: وعدتك أننا سنفتح ملف الفساد ضمن ملفات كثيرة ستعالجها الصحيفة، لكن نحن لا زلنا نحاول تثبيت أنفسنا في السوق وعند القارئ الراغب في صحافة حقيقية تكون عينا للمواطن، وتنبهه إلى كل مواطن الفساد وانتهاك الحقوق.

لكن كيف سنكسب ثقة القارئ أن كنا نردد مثل الببغاء نفس الأخبار التي يذيعها التلفزيون الحكومي؟

قال رئيس التحرير بصبر: وعدنا القارئ أننا سنكون في صفه، وسننفذ وعدنا حتى لو أدى ذلك لإغلاق الصحيفة!

صمتت هاجر، بعد الاجتماع ناداها رئيس التحرير، طلب منها أن تبدأ في دراسة المستندات، ودون تعجل يمكنها البدء في كتابة سلسلة مقالات، أوضح وجهة نظره: يمكن أن تستفيدي من المستندات في صياغة نقد عام، دون ذكر أسماء أو وقائع محددة، في الواقع فإن معظم قصص الفساد التي توثقها تلك المستندات معروفة لمعظم الناس، ما نريد أن نصل إليه هو تعرية النظام

وكشف فساده وانتهاكاته وعدم التزامه لا بالاتفاقيات والمواثيق الدولية ولا حتى بالاتفاقيات التي يوقعها سوى مع خصومه المحليين، أو مع جهات دولية.

نحن سنبدأ بالكتابة، والفرق أننا نملك الآن الدليل أن طالبتنا جهة ما بالدليل يمكننا أن نفرج عن جزء من هذه المستندات، لكن حين تكتبين حول قصص الفساد هذه، لن يشك أحد في الغالب أنك تملكين شيئا جديدا، فكما ذكرت معظم هذه القصص فاحت رائحتها منذ سنوات، فالفساد أصبح سياسة رسمية وهو موجود في كل مكان، في تعيين الموظفين الجدد للمؤسسات الحكومية، في أية صفقة حكومية، في المنصرفات الحكومية في إنشاء أي مبنى أو مؤسسة، باختصار في أي شيء، غير الرشاوي والعمولات، ضحكت قبل أيام حين سمعت قصة محاسب راجع حسابات الإذاعة القومية، كان شعراء الأغاني الذين لديهم حقوق قديمة لدى الإذاعة قد استلموا حقوقهم وقاموا بالتوقيع على الاستلام، من بين الشعراء الذين وُجد توقيعهم على استلام حقوقهم الشاعر سيف الدولة الحمداني!

ضحكت هاجر وقالت، عموما سأحتاج بعض الوقت للاطلاع على المستندات ثم أعود إليك بفكرتي حول معالجة هذا الأمر.

أعاد قوله: تذكري أننا في كل الأحوال لن نستطيع نشر المستندات في الوقت الحالي، وإلا فإنّ الصحيفة لن تتجاوز عتبة المطبعة، لكنها ستفيدنا كأدلة قاطعة أن جرؤ أحدهم على تقديم شكوى ضدنا، ومؤكد أنّ الوقت المناسب لنشرها كاملة سيأتي يوما ما.

لا تنسي بعض قصص الفساد في بيت الرئيس نفسه! وبعضها يمس جهاز الأمن نفسه، جهاز الأمن الذي اشترى تقريبا الدولة كلها.

حين خرجت هاجر من مكتب رئيس التحرير، جاءها يزيد موسى، عمل معها يزيد في صحيفة الزمان لفترة، ثم انتقل إلى صحيفة الفجر بعد صدورها، كان شابا لطيفا، كان يشارك أحيانا في جمع بعض المواد لبعض الملفات المتخصصة التي تصدرها الصحيفة.

قال لهاجر: أعرف كثيرا من القصص عن فسادهم، يمكنني مساعدتك!

كانت هاجر تشعر بأنه يحاول التقرب منها منذ أن عملا سويا قبل سنوات، كان أصغر منها سنا، ظلت تتعامل معه دائما كأخ أصغر، لكنها في تلك اللحظة شعرت بأنه نوع من الناس يصعب أن تقول له لا، لكنها أبقت على ترددها تجاه مشاعره الواضحة نحوها، شكرته وقالت: كلما وجدت فراغا اكتب لي أية قصة تسمع بها لكن يجب أن تعرف أننا لا نستطيع نشر قصة حتى بدون أسماء ما لم يكن لدينا مستندات.

طمأنها قائلا: لدي قريب يعمل مع الهيئة القضائية وقع بالصدفة على معلومات ومستندات مهمة حول فساد توزيع الأراضي السكنية، وتحويل بعض الأراضي الزراعية إلى أراض سكنية، هناك مافيا تجني الملايين من هذه التجارة.

كان رئيس التحرير قد حذّرها ألا تقوم بفتح الملفات في البيت،

شرح لهـا أن مبرمـج كمبيوتـر يـشرف عـلى تأمـين برامـج الصحيفـة سـيقوم بوضـع برنامـج حمايـة خـاص عـلى جهـاز الكمبيوتـر الـذي تسـتخدمه، كـما سـيضع شـفرة معينـة لا تسـمح لأي مسـتخدم آخـر بالدخـول إلى ملفاتهـا الشـخصية.

لم تتمكـن في ذلـك اليـوم مـن عمـل شيء بخصـوص المسـتندات، اكتفـت بوضـع بعـض الخطـوط العامـة حـول المقـالات المقترحـة التـي سـتفتح بهـا ملـف الفسـاد المسـتفحل في كل مفاصـل الدولـة. فكـرت أن تبـدأ بمناقشـة فكـرة التمكـين نفسـها التـي قامـت عليهـا معظـم خطـط النظـام في الاسـتحواذ عـلى كل مؤسسـات الدولـة، وفي إعطـاء الأولويـة لمنسـوبي الحـزب في شـغل المناصـب، وفي الاسـتفادة مـن تسـهيلات البنـوك، دون أيـة ضمانـات تفـرض فقـط عـلى عمـلاء البنـوك مـن عامـة الشـعب.

حـكى لهـا يزيـد اِنْـهَ سـمع مـن أحـد أقربائـه وكان مشـاركا في وضـع وتصحيـح الامتحـان الـذي يؤديـه المتقدمـين لوظيفـة السـكرتير الثالـث في وزارة الخارجيـة، قـال الرجـل: جميـع الطـلاب الذيـن نجحـوا قمنـا بإسـقاطهم، وطـلاب التنظيـم الذيـن سـقطوا جميعـا في الامتحـان قمنـا بمنحهـم درجـات نجـاح سـاحق!

علّـق يزيـد عـلى قصتـه قائـلا: لذلـك لا اندهـش حـين أسـمع بممثلينـا في السـفارات وهـم مشـغولون بالتجـارة بـكل شيء، بـل وبتهريـب بعـض السـلع الثمينـة مسـتغلين حصانتهـم الدبلوماسـية، وفي كل مـكان تطاردهـم اتهامـات التحـرش الجنـسي، والإسـاءة لمواطنـي بلدهـم الذيـن يـزورون السـفارات طلبـا للخدمـات التـي تقدمهـا الـدول لمواطنيهـا، وتسـهم في إيجـاد الحلـول لـكل مشـاكلهم في بـلاد

الغربـة، اما هـؤلاء فمهمتهـم هـي تعقيـد مشـاكل المواطـن المهاجـر عـن بلـده.

حـضر المبرمـج في نهايـة اليـوم، قـام بمراجعـة وتنظيـف الكمبيوتـر، وتنصيـب برنامـج للحمايـة، ثـم شرح لهـا كيفيـة الدخـول إلى ملفاتهـا التـي أصبحـت محميـة الان بأرقـام سريـة.

كان الوقـت قـد تأخـر، قـرّرت هاجـر أن تبـدأ في فتـح ملفـات المسـتندات في اليـوم التـالي، دون أن تشـعر أنهـا إنمـا كانـت تفتـح عـلى نفسـها بابـا مـن أبـواب الجحيـم.

38

في المساء حضر التاجي للتأكد من أنّ المجموعة مستعدة للسفر وليجيب على تساؤلاتهم بخصوص الرحلة وما بعد الوصول إلى الضفة الأخرى، كان قد نجح في بيع السيارة، قال ضاحكا وهو يمد يده بالنقود إلى سعيد: أنتم الوحيدون الذين نجحوا في سرقة داعش!

ابتسم سعيد وقال: لقد سرقوا منا وقتا ثمينا، ودمروا أعصابنا في انتظار أيام طويلة كنا نتوقع فيها الموت في كل لحظة، قتلوا أحد رفاقنا أمام أعيننا وأمام زوجته. قسّم سعيد المبلغ على أفراد المجموعة، كانوا قد أصبحوا ستة أفراد بعد اغتيال الشاب الأثيوبي على يد داعش، لكن سعيد اقترح أن يقسموا المبلغ على سبعة، ويعطي نصيب الشاب المغدور إلى زوجته، حصل كمل واحد منهم على خمسمائة دولار، كان ذلك مبلغا جيدا سيؤمن لهم منصرفات فترة من الوقت قبل عثورهم على عمل، وحصل سعيد على نصف المبلغ الذي دفعه للسفر، أصبح وضعه المادي أفضل كثيرا، قال لهم التاجي: هل تعرفون ماذا تفعلون حين تصلون إلى إيطاليا؟

قال أحد الشباب الأريتريين: لدينا شقيقنا في إيطاليا سيتولى مساعدتنا.

قالت السيدة الأثيوبية: لدي أيضا شقيق هناك.

سعيد وبقية الشباب لم يكن لديهم فكرة واضحة، قال: ربما

يجب حسب ما سمعنا أن نطلب حق اللجوء السياسي.

أوضح التاجي: ستخضعون لتحقيق في إيطاليا وسيعطونكم إقامة مؤقتة لمدة 6 أشهر يجب خلال هذه الفترة أما أن تجدوا عملا يؤمن لكم إقامة، أو تقوموا بطلب حق اللجوء السياسي، كثيرمن المهاجرين يفضلون مواصلة الطريق إلى داخل أوروبا، معظم من ساعدت في سفرهم، ذهبوا إلى فرنسا أو ألمانيا، يمكنكم أخذ القطار إلى أقرب نقطة لحدود فرنسا ومن هناك تعبرون الحدود بأقدامكم، أن حالفكم الحظ ستتمكنون من الدخول بدون أن يراكم رجال الشرطة، أن رأوكم سيعيدونكم مرة أخرى إلى إيطاليا، يقولون إن الإجراءات تستغرق وقتا أطول في إيطاليا، لذلك يفضل معظم المهاجرون السفر إلى فرنسا أو ألمانيا، لكن سمعت أنه بسبب تدفق اللاجئين بسبب الحرب في سوريا أصبحت فرص الحصول على لجوء أقل من الماضي.

انتحى التاجي قبل أن يغادر بسعيد، جعله يشاهد صورا للمركب في تليفونه المحمول، وصورا للمحرك، ثم شرح له كيفية استخدام جهاز تحديد المواقع وتليفون الثريا، القارب يبدو من المطاط أو البلاستيك، ولديه محرك ضخم في المقدمة، تساءل سعيد: هل هذا القارب آمن؟ وكم عدد من سيسافرون؟ هل هناك معدات لإصلاح المُحرّك أن حدث عطل ما؟ شرح له التاجي أن القارب آمن، وأنه لا يغرق، قد ينقلب في الماء بسبب الرياح القوية أو الحمولة الزائدة لكنه لا يغرق، كان لسعيد أسئلة أخرى حول المحرك وكمية الوقود التي يستهلكها، شرح له التاجي كل شيء، هناك وقود في أوعية بلاستيكية، يجب عليه الحذر لإبقاء

تـوازن القـارب دائمـا في الوضـع الصحيـح، بتوزيـع الـركاب بصـورة جيـدة عـلى جانبـي القـارب لتجنـب ميـلان القـارب وانقلابـه، أوضـح التاجـي أنّ مُحـرّك القـارب جديـد حسـب علمـه، ولـن يتعطـل مـن رحلـة واحـدة، لكـن للاحتيـاط سـيتأكد مـن وجـود معـدات، يمكـن اسـتخدامها في حالـة حـدوث عطـل طـارئ، شرح لهـم التاجـي أن هنـاك احتياطـي مـن المـاء العـذب في القـارب لكنـه أحـضر لهـم بعـض المـاء والخبـز وبعـض الحلـوى لتعطيهـم طاقـة أثنـاء السـفر، أوضـح أنهـم لا يسـمحون للـركاب بمتـاع سـوى القليـل مـن الـزاد، الرحلـة تسـتغرق حـوالي سـتة عـشر سـاعة، أن سـارت الأمـور بصـورة جيـدة سـتكونون مسـاء قـد وصلتـم إلى وجهتكـم.

غـادر التاجـي البيـت عـلى أن يعـود فجـرا لنقلهـم إلى المركـب، سـعيد قـام بحفـظ النقـود في قطعـة بلاسـتيك مـع الفـلاش الـذي يحـوي المعلومـات والمسـتندات.

تناولـوا عشـاء خفيفـا مـن الخبـز واللـبن الزبـادي، طلـب منهـم سـعيد محاولـة النـوم بسرعـة لأنّ الغـد سـيكون يومـا طويـلا وشـاقا، هـو نفسـه لم يسـتطع النـوم إلا بصعوبـة شـديدة، وقبـل وصـول التاجي كان هـو قـد اسـتيقظ وحـزم أشـيائه القليلـة.

أوقـف التاجـي السـيارة عـلى مبعـدة مـن البحـر واقتادهـم عـبر طريـق يمـر وسـط حاويـات وسـيارات شـحن، عـبروا أسـفل خطـوط أسـلاك شـائكة، قبـل أن يجـدوا أنفسـهم أمـام القـارب، كان هنـاك مسـافرون آخـرون، امتـلأ القـارب وتراصـت الأجسـاد داخلـه، قـام الرجـل الـذي أشرف عـلى دخولهـم إلى القـارب بـشرح كل شيء لسـعيد مـرة أخـرى، سـاعده في إدارة المحـرك عـن طريـق سـحب الحبـل بقـوة،

ثـم سـلمه جهاز الجـي بي اس والتليفـون، وشرح لـه مـرة أخـرى كيفيـة تتبـع الاتجـاه الصحيـح عـلى جهـاز الجـي بي اس، أعطـاه أيضـا بطاريـة احتياطيـة في حالـة نفـاد بطاريـة جهـاز الجـي بي اس أو التليفون، وشرح لـه كيفيـة اسـتخدام البطاريـة الاحتياطيـة في شـحن الجهازيـن كـما سـلّمه أيضـا مصبـاح يـدوي صغـير لاسـتخدامه يـف حـال الطـوارئ.

دار القـارب دورة صغـيرة ثـم انطلـق في طريقـه، وقـف التاجـي يلـوح لهـم قليـلا قبـل أن يختفـي،

لاحـظ سـعيد بسرعـة أن القـارب كان يميـل إلى اتجـاه اليمـين، طلـب مـن أحـد الـركاب بالجلـوس يسـارا فأصبـح القـارب أكـثر اتزانـا، لحسـن الحـظ كان البحـر هادئـا، انطلـق القـارب مثـل السـهم فوقـه، سـعيد كان يمسـك بجهـاز الجـي بي اس في يـده اليـسرى، ويمسـك بمقـود القـارب بيـده اليمنـى.

سـعيد لاحـظ الإرهـاق الشـديد في وجـوه المهاجريـن، وهنـاك أطفـال صغـار كانـوا يبكـون طـوال الوقـت، كانـوا قـد قطعـوا مسـافة كبـيرة حـين أشرقـت الشـمس، وجـد سـعيد أنهـم إن سـاروا بنفـس السرعـة دون مشـاكل، فقـد يصلـون خـلال 12 سـاعة إلى سـواحل إيطاليـا، لاحـظ أن مـؤشر الوقـود قـد انخفـض كثـيرا، أسـفل المقعـد الـذي يجلـس عليـه كانـت أوعيـة البلاسـتيك المليئـة بالوقـد سـحب سـعيد وعـاء واحـدا قـام بتخفيـض سرعـة المحـرك، وفتـح غطـاء خـزان الوقـود وأعـاد تعبئـة الخـزان، لاحـظ أن مـؤشر الوقـود توقـف عنـد المنتصـف، فشـعر ببعـض القلـق، خـشي ألا تكـون كميـة الوقـود كافيـة للوصـول إلى وجهتهـم، رغـم تأكيـد التاجـي والرجـل الآخـر أن الكميـة سـتكفي وسـيتبقى بعـض الوقـود عنـد وصولهـم.

استسلم بعض الركاب إلى النوم، يبدو أنّ أحد الأطفال استغرق للنوم في حجر أمه التي لم تستطع مقاومة النوم، فجأة وإثر موجة عالية لم يتوقعها سعيد سقط الطفل في الماء، صرخت والدة الطفل، أسرع سعيد عائدا وأوقف المركب وسقط فورا في الماء محاولا البحث عن الطفل، صرخ فيه بعض الركاب وطالبوه بالعودة وإلا فإن القارب قد يغرق، كان الرجل الذي سلّمه القارب قد أوصاه في اذنه ألا يتوقف إن سقط أحد الركاب في الماء، ونبهه إلى مخاطر كثيرة، هناك جهات تتربص بالمهاجرين مثل المجموعة التي قامت باختطافهم، وهناك سفن تتبع للاتحاد الأوربي قد تعيدهم إلى ليبيا، بذل سعيد جهدا خارقا للعثور على الطفل لكن كان واضحا أنه سقط في المياه العميقة، عاد سعيد، كانت والدة الطفل تصرخ وهناك سيدة تحاول تهدئتها دون جدوى، لبث سعيد محتارا لفترة وكانت الدموع والشعور بالحرج تغطي وجهه، حثه بعض الركاب على مواصلة الرحلة، قال أحدهم لا فائدة من الانتظار، ذلك قدره، ليلطف الله به وبنا.

استأنف سعيد قيادة القارب، فقد حماسه للمضي قدما، وكان بكاء الأم يمزق قلبه، لكنه انصاع لرجاء الركاب الآخرين أن لا فائدة ترجى من التوقف، وأنّ الجميع قد يتعرضون للمصير نفسه إن لم يستأنف السير، بعد حوالي ثلاث ساعات أعاد تعبئة خزان الوقود، قام هذه المرة بتعبئة الخزان بكمية أكبر، حتى لا يضطر لإعادة تعبئته بسرعة، كان الصمت يخيم على الجميع، كأنّ الرعب من مصير الطفل الغارق ألجم الجميع، تحوّل بكاء أم الطفل رويدا رويدا إلى بكاء صامت، كانت الدموع تغطي وجهها فيما تغطي

عينيها بكفها الأيسر.

قرابة المساء، أفرغ سعيد آخر ما تبقى من الوقود، حسب إشارات الجي بي اس يفترض أنهم خلال 4 ساعات سيكونون على مشارف الساحل الإيطالي، خمّن أن الوقود سيكفي بالكاد للوصول إلى هناك، فجأة بدأ المحرك يصدر صوتا غريبا، قبل أن يتوقف فجأة، جذب سعيد الحبل بقوة محاولا إشعال المحرك مرة أخرى، لكن المحرك لم يستجب لمحاولاته، حسب خبرته فأنّ الصوت الذي أصدره المحرك قبل توقفه قد يكون إشارة لوجود رمل أو أوساخ في الوقود، لم تكن حركة الموج تُبشر بخير، كأنّ عاصفة تقترب منهم، هطلت أمطار مفاجئة، توقف سعيد عن محاولات إشعال المحرك، قام بإزالة غطاء المحرك وبحث عن المعدات التي أكد له الرجل أنها موجودة في القارب، عثر أسفل المحرك على حقيبة بلاستيكية بها بعض المفاتيح، قام بفك الجهاز الصغير الذي يضخ الوقود إلى داخل المحرك، سحب الوقود من المضخة بفمه بقوة فامتلأ فمه بخليط من الوقود والطين، أعاد توصيل المضخة، وإغلاق غطاء المحرك ثم سحب الحبل بقوة، لحسن الحظ دار المحرك، اتجه سعيد بقوة في الاتجاه الذي حدده الجي بي اس، توقف المطر لكن الموج بدأ يصبح أكثر ارتفاعا وبدا القارب مثل ريشة، تتلاعب به الأمواج والرياح، لم تمض سوى حوالي ساعة حين توقف المحرك مرة أخرى، بعد أن أصدر صوتا مثل المرة الأولى.

أعاد سعيد نفس ما قام به في المرة الأولى، كانت المهمة أصعب هذه المرة بسبب دوران القارب باستمرار بسبب الرياح والأمواج، عرف أن عملية تنظيف مضخة الوقود كل مرة تهدر جزءا من

الوقـود، لكـن لم يكـن هنـاك مـن حـل آخـر، حـاول الا يسـحب كثـيرا مـن الوقـود بفمـه، قبـل ان يعيـد المضخـة الى مكانهـا.

واصلـوا السـير لسـاعة أخـرى، حـين توقـف المحـرك هـذه المـرة كان المـوج قـد اصبـح عاليـا جـدا واصبـح القـارب في رحمـة المـوج، سـحب سـعيد جهـاز التليفـون وبـدأ يحـاول اسـتخدامه وهـو يحـاول تنظيـف المضخـة في نفـس الوقـت، انقلـب القـارب في تلـك اللحظـة الحرجـة، وسـقط جهـاز التليفـون والجـي بي اس في المـاء، نـادى سـعيد عـلى الرجـال لمسـاعدته لإعـادة القـارب لوضعـه الطبيعـي ونـادى عـلى السـيدات ليتشـبثن مـع اطفالهـن في الرجـال او في جسـم القـارب.

اسـتطاعوا بصعوبـة إعـادة القـارب الى الوضـع الطبيعـي، طلـب سـعيد ان تصعـد النسـاء أولا وان يجلسـوا متقابلـين للحفـاظ عـلى تـوازن القـارب، لحسـن الحـظ كان عـدد الـركاب كامـلا، المشـكلة ان خـزان الوقـود كان مفتوحـا حـين انقلـب القـارب، خـشي سـعيد ان يكـون الوقـود قـد تـسرب مـن الخـزان، سـقط غطـاء المحـرك في المـاء مـع جهـاز الجـي بي اس والتليفـون.

لم يكـن هنـاك وقـت للأسـف عـلى مـا ضـاع، حـاول سـعيد عـدة مـرات إدارة المحـرك، لحسـن الحـظ دار في النهايـة رغـم ان صوتـه كان متقطعـا قليـلا، عـرف سـعيد ان المـاء ربمـا تـسرب الى خـزان الوقـود، قـاد القـارب بسرعـة اقـل لمحاولـة تفـادي قـوة الأمـواج، بحـث عـن النجـم القبطـي لكـن كان واضحـا ان السـماء كانـت ملبـدة بالغيـوم، عـرف انـه لم يتبـق لـه سـوى الاهتـداء بحاسـته السادسـة، داهمـه في تلـك اللحظـة شـعور غريـب، شـعر كأنـه يسـير فـوق قـبره! إن هـذه الأمـواج التـي تتلاطـم مثـل جبـال صغـيرة مـن حولـه سـتكون

هـي قـبره! في تلـك اللحظـة بـدأ محـرك القـارب يصـدر مـرة أخـرى نفـس الصـوت الـذي ينبـئ عـن وجـود مشـكلة في انسـياب الوقـود، قبـل أن يتوقـف مـرة أخـرى، جاهـد لمحاولـة تنظيـف المضخـة مـرة أخـرى، لكنـه أحـس حـين حـاول تنظيـف المضخـة بفمـه أنّ الوقـود كان مختلطـا بالمـاء، حـاول عـدة مـرات دون جـدوى إشـعال المحـرك، لكـن المحـرك بقـي مثـل قطعـة حجـر هامـدة، دهمتهـم موجـة عاتيـة أخـرى كاد القـارب ينقلـب عـلى اثرهـا قـرّر سـعيد أنـه مـن الأوفـق أن يتوقـف عـن محاولـة إشـعال المحـرك مـرة أخـرى، ويركّـز جهـده مـع رفاقـه عـلى محاولـة حفـظ تـوازن القـارب حتـى لا ينقلـب، قـال للرفـاق: لـو اسـتطعنا الصمـود حتـى الصبـاح مؤكـد سـتلتقطنا إحـدى السـفن، المنطقـة قريبـة مـن سـواحل أوروبـا وهـي منطقـة ملاحـة نشـطة.

تذكـر أن معـه مصبـاح كهربـائي صغـير أعطـوه لـه للاسـتخدام ليـلا في حـال الطـوارئ، قـام بإشـعاله واسـتخدم قطعـة قـماش في تثبيـت المصبـاح حـول رقبتـه، بـدأ الجـو يميـل للـبرودة، رغـم أن الوقـت كان لا يـزال في شـهر سـبتمبر، لكـن بسـبب الميـاه والرطوبـة العاليـة بـدأ الأطفـال يرتجفـون مـن الـبرد، غـرق بعـض الـركاب في نوبـة مـن القـيء، ربمـا بسـبب دوران القـارب حـول نفسـه بسرعـة بسـبب الريـاح، طلـب منهـم سـعيد أن يحاولـوا أكل مـا تبقـى لهـم مـن حلـوى، لتمنحهـم بعـض الطاقـة، شـعر سـعيد ببعـض القلـق كانـت الأمـواج تجـرف القـارب، مثـل ريشـة في مهـب الريـح، خـشي أن تجرفهـم الريـاح بعيـدا في الاتجـاه المعاكـس، دعـا اللـه أن تدفعهـم الريـاح باتجـاه الشـاطئ الإيطـالي، وربمـا بقليـل مـن الحـظ لا يحتاجـون حتـى لمـن يلتقطهـم،

مضـت السـاعات وخفـت صراخ الأطفـال بسـبب الإرهـاق الشـديد، فجـأة لمـح سـعيد ما يشـبه نقطـة ضـوء بعيـدة، اعتقـد في البدايـة أنهـا مجـرد نجـم في السـماء لكنـه تذكـر أن السـماء مغطـاة تماما بالغيـوم، صرخ في رفاقـه: انظـروا هنـاك ضـوء يـأتي مـن هـذا الاتجـاه!

39

بـدأت هاجـر السـناري في دراسـة ملفـات الفسـاد، قـرأت بحـرص شـديد، وحاولـت أن تحفـظ في ذاكرتهـا أكـبر عـدد مـن الأرقـام والمعلومـات، فرئيـس التحريـر لا يريدهـا أن تكتـب أي شيء على الورق، قضـت وقتـا طويـلا، وجـدت نفسـها تغـرق في تـلال مـن المسـتندات والمعلومـات، سرقهـا الوقـت حتـى فوجئـت بالمـكان خاليـا تمامـا، لم يكن هنـاك سـوى أحـد حـرّاس الأمـن، أثنـاء جمعهـا لأشـيائها حـضر المحـرر المنـاوب الـذي سـيقضي السـهرة تلـك الليلـة في الصحيفـة، ودعتـه هاجر وخرجـت، لحسـن الحـظ وجـدت عربـة تاكـسي بسرعـة نقلتهـا إلى البيـت.

اسـتيقظت متأخـرة قليـلا صبـاح اليـوم التـالي وجـدت أمهـا قـد أعـدت لهـا طعـام الإفطـار، وحتـى تغتسـل وترتـدي ثيابهـا وجـدت القهـوة أيضـا جاهـزة، أفطـرت مـع والدتهـا، مازحتهـا أمهـا: متـى سـنفرح قليـلا! طـال عهدنـا بالفـرح! كانـت أمهـا تشـير إلى الـزواج كعادتهـا، ضحكـت هاجـر وقالـت، لم يحـن الأوان بعـد! وعـلى كل حـال أيـن هـو سـيئ الحـظ ذلـك؟ هـل سـأذهب للبحـث عنـه بنفـسي!

قالـت الأم: سيء الحـظ! قـولي مـن هـو ذلـك المحظـوظ الـذي يجـد مثـل هـذا الجمال والأدب!

أوضحـت هاجـر ضاحكـة: الصحافـة مهنـة البحـث عـن المتاعـب، وفي هـذا البلـد هـي مهنـة المتاعـب والمصائـب نفسـها.

قالت الأم: وما الذي يجبرك على التعب ومشاق مهنة لا تجدين منها سوى الهم والغم ومضايقات صغار الناس؟ ابن خالتك في الخليج، لماذا لا تقبلين به، وتغادرين هذه البلاد ربما يكون الحظ في انتظارك!

قالت: لا أريد السفر ولا أريد ابن خالتي!

لماذا تغلقين كل باب ينفتح في وجهك؟ أنا أريد السفر، أنتظر أن ترسلي لي دعوة لأزورك وأرى شكل الدنيا في الخارج!

قالت هاجر: سيحدث ذلك يوما ما، رغم أن دنيانا الحقيقية هي هنا، في هذا البلد، لن نتركه للأوغاد واللصوص يدنسون ترابه وكل شيء جميل فيه!

قالت أمها: وماذا تستطيعين أن تفعلي وحدك، هذا عمل معارضة لديها جيوش وأسلحة تواجه بها هؤلاء الناس الذين لا تعرف الرحمة طريقا إلى قلوبهم!

قالت هاجر: يجب أن يقوم كل إنسان بدوره، أنا في حدود استطاعتي والآخرين كل لما هو ميسر له، والا إن إنتظر كل واحد منا الآخرين ليتحركوا، لن يتحرك أحد ولن يسقط الاستبداد.

نظرت هاجر إلى الساعة وقالت تأخرت كثيرا، ودعت أمها بسرعة وخرجت.

اجتمعت في البداية مع محمد نور الدين، أبلغته بالخطوط العامة لمقالاتها، سوف تشير من على البعد دون ذكر وقائع محددة، طلب منها رئيس التحرير كتابة مقالها وسوف يراجعه

قبـل إرسـاله إلى المصمـم، كان مقالهـا الأول عاما، يشـير إلى بعـض تقارير المنظـمات الدوليـة حـول ترتيـب بعـض الـدول في مـؤشر الفسـاد، وحول الـضرر الكبـير الـذي يحدثـه الفسـاد خاصـة في جانـب تنميـة الإنسـان، وأن الـدول التـي ينتـشر فيهـا الفسـاد تتخـلى تلقائيـا عـن مسـئولياتها تجـاه المواطـن الفقـير، عـن الإنسـان بصفـة عامـة وهـو الـثروة الحقيقة الـذي تهـدف كل مشروعـات التنميـة إلى الإسـهام في تعليمـه وترقيـة أدائـه.

بعـد مراجعـة رئيـس التحريـر، يحـضر الرقيـب التابـع لجهـاز الأمـن والمخابـرات ليـلا لمراجعـة المقـالات قبـل إرسـال العـدد إلى المطبعـة، في العـادة يتعامـل الرقيـب حسـب التعليـمات التـي تحـدد الخطـوط الحمـراء التـي لا يجـب تجاوزهـا والموضوعـات التـي يحظـر تناولهـا، حتـى كأخبـار، ظهـر المقـال في الصحيفـة صبـاح اليـوم التـالي.

قالـت هاجـر لرئيـس التحريـر: هـل نزيـد الجرعـة قليـلا! أم نكتفـي بقصـة أبـو فـراس الحمـداني؟

ضحـك رئيـس التحريـر، وقـال يمكننـا رفـع الجرعـة قليـلا، لا نريـد إربـاك الرقيـب، تعـود عـلى تعديـل بعـض المانشـيتات، أخـشى أنـه لا يقـرأ كثـيرا ويقـع اللـوم علينـا في النهايـة.

الجرعـة الثانيـة تـم تمريرهـا، الاسـتغناء عـن كـوادر الخدمـة المدنيـة الذيـن خـسرت الدولـة كثـيرا في سـبيل تطويـر أدائهـم وإرسـالهم إلى دورات تدريبيـة خـارج الوطـن، وإحـلال كـوادر غـير مؤهلـة بذريعـة الانتـماء السـياسي، أفقـد الخدمـة المدنيـة دورهـا كحائـط صـد وأدى لنشـوء ثغـرات تسـلل منهـا الفسـاد.

ظهـر المقـال الثـاني، ولم تتعـرض الصحيفـة لأيـة مضايقـات، بقـي رئيـس التحريـر قلقـا طـوال النهـار، مـن تجاربـه السـابقة كان صمـت جهـاز الأمـن دائمـا، مجـرد فـخ، صمـت يسـبق العواصـف، اتفـق مـع هاجـر أن تخفـف الجرعـة قليـلا، وتبـدأ في فتـح ملفـات فسـاد بعـض المؤسسـات البعيـدة عـن رمـوز السـلطة.

أشـارت هاجـر في مقالهـا الجديـد إلى حادثـة انهيـار مبنـى حكومـي، نفذتـه شركـة تتبـع لأحـد أقطـاب النظـام، لم تذكـر اسـم ايـة مسـئول، بـل أشـارت للواقعـة نفسـها مـن خـلال حديثهـا عـن الإرث العظيـم للمهندسـين السـودانيين، وحكـت واقعـة قصـة سـمعتها عـن إحـدى شركات المقـاولات التـي كانـت في المـاضي تنفـذ بعـض المبـاني الحكوميـة، تعـرّت الشركـة لامتحـان حقيقـي حـين وصـل طاقـم المهندسـين المطلـوب منهـم تسـلم المبنـي ومراجعـة شروط تنفيـذه، رفـض المهندسـون تسـلم المبنـي عـدة مـرات بسـبب وجـود مخالفـات بسـيطة لا يُتوقـع أن تسـبب أيـة مخاطـر، حتـى اضطـرت الشركـة المنفـذة في النهايـة، لإعـلان إفلاسـها، وبقـي المبنـى مهجـورا لسـنوات، ثـم ختمـت مقالهـا بالقـول: في المـاضي حـين تُكشـف قضيـة فسـاد، كان المتهـم يتـوارى عـن الحيـاة العامـة حتـى إن كان بريئـا، الآن كشـف فسـاد شـخص مـا يصبـح سُـلّما لوظائـف وترقيـات.

قـال رئيـس التحريـر: الجرعـة اليـوم زادت قليـلا لكـن لا بـأس، ننتظـر ونـرى، إن تغـاضى عنـه الرقيـب، ربمـا لا تكـون هنـاك مشـاكل أخـرى، لكـن بالطبـع يسـتحيل التنبـؤ بـرد فعلهـم.

أبلغهـا رئيـس التحريـر إنّ مبيعـات الصحيفـة ارتفعـت بصـورة ملحوظـة منـذ بـدء نـشر مقالاتهـا، صمـت قليـلا ثـم قـال: يصعـب

أيضا التأكد من أية شيء، هؤلاء أناس يحترفون الخداع، أحيانا يصادرون صحيفة أو كتاب فقط ليرفعوا من شهرة الصحيفة أو الكتاب، باعتبار أن كل ممنوع مرغوب.

تعني أنهم قد يشترون معظم أعداد جريدتنا حتى لا يقرأها أحد؟

بالضبط هذا ما قصدت، بالأمس التقيت في مناسبة اجتماعية بعدد من الأصدقاء تحدث أحدهم عن مقالك، دهشت لأنّ أكثرهم أخبرني أنه حاول الحصول على الصحيفة، لكنه وجدها قد نفدت في كل مكان سأل فيها!

قالت هاجر: عموما الشيء الإيجابي أنّ الناس باتت تستيقظ بالفعل من حالة اللامبالاة التي دفعهم إليها النظام، ويهتمون بمتابعة ما يحدث في بلادهم من مصائب بسبب ممارسات النظام.

وافق محمد نور الدين على كلامها لكنه أوضح مخاوفه: هذا شيء إيجابي على المدى البعيد، لكن أخشى أن يكون سلبيا على المدى القصير بالنسبة لنا!

في مقالها الجديد، انتقلت هاجر للحديث حول الفساد في توزيع وبيع الأراضي، تحدثت عن واقعة اغتيال موظف كبير في إحدى الإدارات الحكومية، راجت شائعات كثيرة بأنه قتل لدفن أسرار فساد تمس بعض أقطاب النظام والحزب الحاكم.

في مساء اليوم نفسه، استقلت هاجر حافلة إلى البيت، كان الوقت قد تأخر قليلا، لم تشاهد أحدا في الطريق القصير بين محطة البص والبيت، كانت ترى دائما بعض أبناء الحي يتسامرون

بجانب أعمدة الكهرباء، لابد أنّ هناك مباراة مهمة في كرة القدم جعلت الجميع يبقون في بيوتهم، كانت دائما تستمع إليهم يتشاجرون حول الفرق التي يشجعونها، بعضهم يشجع فريق برشلونة الأسباني والبعض فريق ليفربول الإنجليزي، توقفوا عن الشجار حول الفرق المحلية ربما بسبب الضعف العام الذي اعترى كل مناحي الحياة، فتدهورت الفنون والرياضة، وربما لأن استقبال القنوات الفضائية أعطى الناس الفرصة لتتعرف على فنون لعبة كرة القدم المتطورة.

شعرت هاجر بخوف غامض، فكّرت أن سبب شعورها ربما لأنها غير معتادة أن تجد نفسها وحيدة هكذا في شارع به دائما حركة دائبة، فجأة وهي على بعد خطوات من البيت توقفت بحركة مباغتة سيارة بجانبها، هبط منها شخصان بسرعة ودفعاها دفعا للركوب في العربة التي انطلقت بسرعة دون أن يرى أي إنسان ذلك المشهد.

40

كانت نقطة الضوء تقترب بسرعة وتصبح أكبر، قبل أن يظهر شبح سفينة ضخمة، ركّزت أضوائها على القارب، وبدءوا يُنزلون سلالم حبال هبط منها بعض البحارة لمساعدة الناجين، ساعدوا الجميع على الصعود إلى متن السفينة، وضعوهم جميعا في بهو السفينة، وأعطوهم مناشف لتجفيف أجسامهم ووجبات سريعة ليستعيدوا بعض الطاقة، وحليب وغذاء خاص للأطفال، أبلغهم أحد البحّارة أن الباخرة متجهة إلى جزيرة صقلية التي تبعد بحوالي ساعتين من المكان.

شعر سعيد للمرة الأولى ببعض الراحة والهدوء للمرة الأولى منذ سنوات، منذ لحظة القبض عليه بواسطة جهاز الأمن، استسلم لنوم متقطع في مقعده، تذكر سيدة ووعده لإكمال زواجه منها في أقرب وقت ممكن، تذكر النقيب عبد الله ابن عمه، هل عرفت أسرته شيئا عن مصيره أم لا، كان مقتنعا أنهم قتلوه، عرف في فترة المعتقل أن كل من عرف شيئا حتى لو بالصدفة، عن قضية محاول اغتيال الرئيس المصري، تمت تصفيته، أحدهم تمت تصفيته، وقاتله نفسه تمت تصفيته لإخفاء أية أثر للجريمة إلى الأبد.

لكنه برغم ذلك كانت لديه خطة لمحاولة استجلاء مصير النقيب عبد الله، تحسس للمرة الأولى منذ مغادرته للساحل الليبي، ذاكرة الفلاش التي يحتفظ بها مع بعض المال داخل ملابسه.

استيقظ بعد قليل على أصوات عالية، كانت الباخرة قد

رست في مكان ما، نقلتهم حافلة كبيرة كانت في الانتظار إلى مركز استقبال قريب من الميناء، حيث تم استجواب كل واحد منهم على حدة حول جنسيته ومعلوماته الشخصية، وسبب سفره بالبحر بدون أوراق ثبوتية، وبعد التحقيق يقوم كل مهاجر بتوقيع طلب للحصول على إقامة مدتها ستة أشهر.

أستغرق التحقيق مع المجموعة عدة ساعات حصلوا خلالها أثناء الانتظار على وجبة خفيفة، وبعد انتهاء التحقيق نقلوا بواسطة الحافلة إلى مركز احتجاز في مدينة نابولي، أخبرهم المحقق أن عليهم الانتظار لمدة أقصاها أربعة أسابيع قبل حصولهم على بطاقة الإقامة التي تتيح لهم التحرك بحرية خلال ستة أشهر.

كانت أيام الانتظار في مركز الاحتجاز رتيبة، لحسن الحظ كانت هناك مكتبة صغيرة ملحقة بالمركز، يمكن فيها قراءة بعض الصحف أو استعارة كتاب، سعيد كان يحب القراءة، لكن مشاغل الحياة مع العمل في العاصمة باعدت بينه وبين القراءة، لكنه كان يتابع الصحف، لديه مكتبة صغيرة يحتفظ بها في البيت، كان يعثر أحيانا على كتاب نادر، مع باعة الكتب الذين يفترشون بكتبهم الأرض جوار الجامع الكبير في الخرطوم، أو جوار مبنى البوستة في أمدرمان.

كانت هناك صحيفة عربية واحدة في المكتبة، إضافة لصحف إيطالية وإنجليزية، كان على سعيد أن يذهب بمجرد فتح المكتبة لأن هناك نسخ قليلة من الصحيفة العربية، إن لم يذهب مبكرا، سيكون عليه الانتظار طويلا، قام مرة واحدة باستعارة كتاب اختاره من مجموعة الأدب الإنجليزي في المكتبة، اختاره مجرد أن

وقعت عينه على اسم الكاتب: شارلز ديكنز، كان قد قرأ له في المدرسة المتوسطة قبل سنوات كتاب قصة مدينتين وكتاب أوليفر تويست، لكنه وجد كتاب مذكرات بيكويك الذي عثر عليه في المكتبة، بلغة معقدة جدا، لم يستطع مواصلة قراءته، كانت كتب المكتبة الإنجليزية الكلاسيكية الموجودة ضمن المناهج الدراسية في السودان، بلغة إنجليزية مبسطة جدا، يسهل على قارئ لم يدرس الإنجليزية كثيرا، أن يتمكن من قراءتها، يذكر أنه حاول مرة قراءة كتاب لشكسبير لكنه وجد لغته صعبة جدا، يذكر أنه تناقش مع أستاذ اللغة الإنجليزية، الذي أخبره أنّ لغة معظم الكتب الكلاسيكية لغة صعبة، ربما لم تعد بعض مفرداتها مستخدمة في اللغة الإنجليزية الحديثة، لكنّ الطبعات الجديدة المعدّلة من هذه الكتب، تكون دائما لغتها مواكبة للتغييرات التي طرأت على اللغة، كان أستاذ اللغة الإنجليزية دائما يقول إنّ اللغات تتطور مثل كل سلوك آخر للإنسان.

شارك في حوارات مع المجموعة التي سافرت معه، حول مستقبل أحوال المهاجرين في أوروبا، وحول برنامج كل منهم بعد الحصول على الإقامة المؤقتة، كان أكبر هم معظمهم هو الوصول إلى أوروبا، اما ما الذي يجب عليهم القيام به بعد ذلك فلم يفكر فيه أحد. قال أحد الشباب الإريتريين: أريد مواصلة دراستي، كنت قد بدأت دراسة الطب لكنني توقفت قبل أن أكمل السنة الأولى، ولا أدري هل يمكنني هنا مواصلة دراستي أم يجب أن ابحث عن عمل! أوضح الشاب الإريتري إنّ ما يجعله متخوفا أنه قرأ في بعض الصحف، إنّ السياسات الخاصة باستقبال المهاجرين والمساعدات

التي تقدم لهم، أصبحت تتغير بسرعة، فبسبب سيل اللاجئين على أوروبا من أفريقيا ومن سوريا وغيرها، أصبح هناك تخوف من إمكانية استيعاب كل هؤلاء اللاجئين، وأدى ذلك إلى ازدياد شعبية الأحزاب اليمينية التي تناهض معظمها سياسة استقبال اللاجئين.

انضم لمجموعتهم اثنان من الشباب السودانيين، لم يسافرا معهم في رحلة الصحراء إلى ليبيا أو رحلة البحر، وصلا إلى مركز الاحتجاز بعد يومين من وصول سعيد، كانا قد قدما أيضا من ليبيا، لكنهما تعرضا لمتاعب كثيرة هناك، كان سعيد يعتقد أن ما رأته مجموعته من أهوال يندر أن يمر بها شخص آخر، من احتجاز على يد داعش، وتعطل القارب في عرض البحر، إضافة للرحلة المضنية عبر الصحراء.

لكن التقائه بالشابين القادمين من ليبيا أعطاه انطباعا أنه ومجموعته كانوا أكثر حظا، من آخرين كثر عانوا ولا يزال البعض يعاني أهوالا رهيبة، حكى له الشابان أنهما بعد عذاب شديد وصلا إلى ليبيا مع خمسة شبان آخرين وبنتين من أريتريا، وأنهم جميعا اضطروا للعمل في ليبيا لأنّ المال الذي تبقى معهم بعد رحلة الصحراء، لم يكن كافيا لركوب البحر.

اختطفتهم عصابة وباعتهم كرقيق، عملوا لفترة عامين في مزارع ومصانع وكانوا يتعرضون للضرب وسوء المعاملة، ولم يكن لهم من حقوق سوى الأكل فقط، وبسبب التعذيب والمرض وسوء التغذية توفي اثنان من الشباب، وذات مرة حاول أحد الشباب الهرب، لكنهم تمكنوا من إلقاء القبض عليه وضربوه حتى الموت، لم يعرفا قط مصير بقية المجموعة ومصير الفتاتين الإريتريتين، لكنهما سمعا

أن معظـم النسـاء الـلائي يقعـن في أسر هـذه العصابـات يتـم بيعهـن واسـتغلالهن في الدعـارة.

كانـا الأكـثر حظـا حـين نقـلا للعمـل في مزرعـة بعيـدة عـن المناطـق المأهولـة، اضطـر صاحـب المزرعـة مـرة لتركهـما يعمـلان لوحدهـما، ولأنّ المنطقـة بعيـدة عـن العمـران لم يتوقـع أن يقدمـا عـلى الهـرب، اسـتطاعا الهـرب حـين توقفـت بالصدفـة سـيارة جـوار المزرعـة بسـبب عطـل فيهـا، وأثنـاء انشـغال السـائق بإصـلاح السـيارة، ترجـاه الشـابان أن يقلهـما إلى أقـرب مدينـة وسـيدفعان لـه كل مـا يملـكان مـن مـال، وافـق الرجـل عـلى أن يقلهـما مجانـا حـين سـمع قصتهـما، قضيـا وقتـا طويـلا يتسـكعان في أرصفـة الميناء وينامـان في الشـوارع، حتـى أرسـل لهـما أحـد أقربائهـما اسـتطاعا الاتصـال بـه تليفونيـا، أرسـل لهـما مبلغـا مـن المـال لتغطيـة تكاليـف الرحلـة عـبر البحـر.

سـعيد قـام بـشراء جهـاز تليفـون محمـول مـن أحـد نـزلاء المركـز، اتصـل بشـقيقه كـمال وطلـب منـه أن يطمـئن والديـه عـلى أحوالـه وأنـه بخـير وفي انتظـار الحصـول عـلى إذن بالإقامـة ليبحـث عـن عمـل، سـأل كـمال عـن أحـوال البلـد ثـم سـأله إن كان قـد سـمع شـيئا عـن النقيـب عبـد اللـه، أبلغـه كـمال أنـه لم يكـن موجـودا طـوال شـهر في البيـت، كان قـد سـافر لأداء امتحانـات نهايـة العـام في الخرطـوم. وعـده كـمال أن يسـأل والدتـه أن كانـت قـد سـمعت بأيـة أخبـار جديـدة عـن النقيـب عبـد اللـه، لكنـه لا يتوقـع أن يكـون هنـاك جديـد في تلـك القضيـة، فلـو كان النقيـب عبـد اللـه ظهـر أو عُـرف مكانـه لسـمع بذلـك بالتأكيـد.

ثـم اتصـل بسـيدة، أخبرهـا أنـه وصـل إلى وجهتـه وتبقـت بعـض

الإجـراءات قبـل أن يتحـدد وضعـه، وأيـن سيسـتقر بـه المقـام، كـرّر وعـده أنـه سـيكمل إجـراءات الـزواج مجـرد أن تسـتقر أحوالـه، كان سـعيد يتكلـم بسرعـة بسـبب غـلاء الاتصـال التليفـوني المبـاشر، وكان يخـشى أن ينفـد رصيـد التليفـون بسرعـة، سـألها أن كانـت سـمعت شيئا عـن النقيـب عبـد اللـه، أبلغتـه أنهـا ذهبـت مـع والدتهـا لزيـارة والديـه قبـل أيـام، وعرفـا منهـما أنـه ليـس هنـاك جديـد بشـأنه ومـا زالـت أسرتـه في الخرطـوم في انتظـار ظهـوره في أيـة لحظـة، ولم تثمـر اتصالاتهـم بقيـادة الحـزب أيـة معلومـات مفيـدة، وأن الجميـع ينكرون معرفـة مـكان وجـوده!

مـرّت الأيـام بطيئـة، كان الشـقيقان عـادل وعـلي قـد أقنعـاه أن يواصـل معهـم الرحلـة إلى فرنسـا، كانـت حجتهـم أن إجـراءات طلـب اللجـوء في إيطاليـا تتأخـر كثـيرا، المشـكلة أوضـح عـلي: إن الشـتاء يقـترب، وإن لم نحـاول عبـور الحـدود بسرعـة، قبـل هطـول الثلـوج، سـيتعين علينـا أن نبقـى هنـا حتـى العـام القـادم، يقـال إن اعـدادا كبـيرة مـن المهاجريـن، فقـدوا حياتهـم أثنـاء محاولـة عبـور الحـدود في فـترة الشـتاء.

بعـد حـوالي أسـبوعين مـن وصولهـم وصلـت بطاقـات بعـض الإقامـات، فـرح سـعيد جـدا لأن إقامـة المـرأة الأثيوبيـة وصلـت، أخبرتـه أنهـا سـوف تسـافر في نفـس اليـوم بعـد السـماح لهـا بمغـادرة المركـز إلى رومـا، حيـث يقيـم شـقيقها هنـاك، أعطتـه رقـم تليفـون شـقيقها وشـكرته عـلى كل مسـاعداته، ودعهـا وداعـا حـارا ووعدهـا بالاتصـال بهـا حالمـا تسـتقر أحوالـه.

مضـت الأيـام التاليـة رتيبـة جـدا، تتغـير الوجـوه في المركـز باسـتمرار،

مجموعـة تغـادر ومجموعـات أخـرى تصـل، عـلى وجوههـم رهـق السـفر عـبر البحـر، في الأسـبوع الرابـع وصلـت بطاقـة سـعيد، أقنعـه الشـقيقان عـادل وعـلي أن يبقـى معهـما في المركـز حتـى يتسـنى لهـم جميعـا الخـروج معـا، لم يكـن سـعيد متأكـدا إن كان ذلـك مسـموحا، لكنـه قـرّر المجازفـة بالبقـاء، فقـد سـعد برفقـة الشـقيقين، وعـرف أن أيـة مغامـرة قادمـة سـتكون أكـثر احتـمالا معهـما.

في اليـوم التـالي سـمع اسـمه عـبر مكـبّر الصـوت، أبلغـه المسـئول أن عليـه مغـادرة المركـز وان كل مـن يحصـل عـلى بطاقـة الإقامـة يمكنـه البحـث عـن مـكان آخـر للإقامـة، أو يمكنـه تقديـم طلـب للجـوء السـياسي، وسـتتولى جهـات أخـرى تأمـين المسـكن ومنصرفـات المعيشـة لحـين البـت في طلـب اللجـوء.

أبلـغ المسـئول أنـه فقـط بقـي حتـى يحصـل أصدقائـه عـلى بطاقـات الإقامـة لأنهـم يرغبـون في التحـرك سـويا في الفـترة القادمـة، تفهـم الرجـل وجهـة نظـره لكنـه اعتـذر مـرة أخـرى أن الأماكـن محـدودة في المركـز، وهـم يتوقعـون وصـول مزيـد مـن المهاجريـن مسـاء نفـس اليـوم، ذهـب سـعيد يبحـث عـن الشـقيقين وجدهـما في صالـة الألعـاب الرياضيـة، أبلغهـما أنـه مضطـر للخـروج اليـوم لأن إدارة المركـز اكتشـفت أنـه لا يـزال موجـودا في المـكان، أعطاهـما رقـم تليفونـه ليتصـلا بـه بمجـرد خروجهـما وحمـل متاعـه القليـل وغـادر المركـز.

41

في أحد المكاتب التابعة لجهاز الأمن والمخابرات، ظلت هاجر محتجزة لعدة ساعات، تعرضت للصفع عدة مرات، قبل أن يُلقى بها في غرفة جانبية بدون إضاءة، في النهاية حضر أحدهم لاستدعائها لمقابلة الضابط، فوجئت عند دخولها إلى المكتب أن الضابط الذي تخيلت أنه أحد ضباط جهاز الأمن، هو رئيس الجهاز نفسه، لم يسبق لها أن التقت به، لكنها رأت له بعض الصور، طلب منها الجلوس وأشار للشاب الذي أحضرها بالانصراف، سألها سؤالا واحدا: أين المستندات؟

عرفت أنهم توقعوا أنها حصلت على نسخة من مستندات رئيس تحرير الزمان قبل وفاته، ادعت عدم الفهم وقالت: أية مستندات تقصد؟

قال لها المستندات التي أحضرها لك المرحوم عاصم الحاج رئيس تحرير صحيفة الزمان! وبدون أن ينتظر منها ردا، أوضح لها: في الخامس عشر من يوليو قبل حوالي شهرين ونصف زار السيد عاصم الحاج، صحيفة الفجر، في حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر، بقي لحوالي الساعة في الصحيفة، وقبل أن يخرج، سلّمك نسخة من مستندات بها بعض قضايا الفساد المزعوم، نحن نريد هذه المستندات، أن سلمتينا المستندات سنخلي سبيلك وسنتنازل عن أية قضية ضدك، ولن تتعرضين لأية مضايقات.

هذه المستندات تهم أناس كثيرين، وقد يؤدي نشرها قبل

التثبّت من الاتهامات الخطيرة فيها، إلى حدوث مشاكل تضر بأمن هذه البلاد، إن لم تعطيني هذه الأوراق لا أعرف ما سيحدث لك ولا أستطيع حمايتك، أنا هنا بغرض المساعدة فأرجو مساعدتي حتى أتمكن من تقديم يد العون لك.

حاولت هاجر كسب الوقت، قالت لا اذكر أن المرحوم زارنا في الصحيفة في تلك الفترة، ولا اذكر أن كنت قابلته، آخر مرة قابلته فيها كان قبل الاستغناء من خدماتي من صحيفته.

قال الرجل باختصار وكأنه يريد قطع الطريق على محاولة ادعاء النسيان: كنت موجودة في الصحيفة، وقد جاء بعد أن فرغ من الطواف على أقسام الصحيفة وتحية زملائه القدامى، جاء ليقف بجانب مكتبك، لا بد أنه وضع شيء ما على مكتبك، أوراق، أو ذاكرة فلاش، أو قرص مدمج.

قالت هاجر: لم يسلمني أية شيء.

قال الرجل: ألا توجد أية ملفات بها مستندات تخص اتهامات فساد لبعض النافذين في الدولة على جهاز الكمبيوتر الذي تستخدمينه في الجريدة؟

تذكرت هاجر أنّ رئيس التحرير طمأنها أنّ برامج الحماية وتشفير الملفات، لن يتيح لأي شخص الدخول إلى ملفاتها السرية، أوضحت بهدوء أنه لا توجد لديها في جهاز الكمبيوتر أية مستندات تخص فساد أية جهة.

أطرق الرجل وقال: يبدو أنك لا ترغبين في الحصول على مساعدتنا، عموما خلال ساعات سنعرف كل شيء، هناك من

يقوم الآن بفحص جهاز الكمبيوتر الذي تستخدمينه، لدينا خبراء يستطيعون العثور على أية ملفات فُتحت على جهاز الكمبيوتر.

بقيت الأم ساهرة طوال الليل، اتصلت بالصحيفة أبلغها المحرر المناوب أنّ هاجر غادرت الصحيفة قبل ساعات، ووعدها بالاتصال فورا برئيس التحرير، استيقظ رئيس التحرير فزعا على خبر اختفاء هاجر، قال لابد إن هؤلاء الكلاب اعتقلوها، اتصل وهو يرتدي ملابسه بمحامي الصحيفة، لكن هاتفه كان مغلقا، أدار محرك السيارة، ثم بدأ يفكر ما الذي يمكن أن يقوم به في هذا الوقت المتأخر، كانت الساعة حوالي الثالثة صباحا، قرّر أن يتصل بصديق ضابط في الشرطة يسأله النصيحة، لحسن الحظ كان تليفونه مفتوحا ورد عليه بسرعة، قال له الضابط إن الصحفية في الغالب معتقلة لدى جهاز الأمن، ومن الأفضل أن يذهب إلى مباني الجهاز صباحا للسؤال عنها، أو يتصل بالمحامي ويدع له مهمة متابعة المشكلة.

توقع رئيس التحرير أن تكون والدة هاجر مستيقظة فقرر الذهاب إليها أملا في أن تطمئن قليلا، بالفعل وجد البيت مضاء، حين طرق الباب فتحت والدة هاجر الباب بسرعة معتقدة أن ابنتها عادت إلى البيت، فوجئت برئيس التحرير، شعرت بدوار من فرط الخوف أنّ الرجل ربما يحمل خبرا سيئا، لكنه قال بسرعة: ابنتك بخير، هذه ليست المرة الأولى كما تعلمين، مهنتنا مخاطرها ومضايقاتها كثيرة.

بدأت الأم تبكي: كنت دائما أترجاها أن تترك هذا العمل، وتبحث عن عمل آخر أو تسافر لكنها تحب المشاكل وتريد أن تبقينا دائما في قلق وخوف عليها.

أبلغها رئيس التحرير اِنْهَ سيذهب مع المحامي صباحا إلى مكاتب جهاز الأمن للسؤال عنها، والاطمئنان عليها ومحاولة إطلاق سراحها، طلب رئيس التحرير من والدة هاجر أن تحضر معه حتى لا تبق وحيدة بقية تلك الليلة، لكنها رفضت قالت: ربما تحضر هاجر في أية لحظة، أفضل ان ابق في انتظارها.

أمام إصرارها اضطر رئيس التحرير للعودة إلى البيت، كان يشعر بالذنب مما حدث أو قد يحدث لهاجر، رغم أنه حذرها كثيرا، بل وحاول تأجيل كتابة المقالات لكنه استسلم أمام إصرار هاجر ورغبتها في المواجهة.

استسلم لنوم مضطرب، واتصل بالمحامي بمجرد أن استيقظ من النوم، أبلغه المحامي أنه سيحضر فورا الى مبنى الصحيفة ليذهبا سويا إلى جهاز الأمن.

انتظرا في الاستقبال لوقت طويل قبل أن يلتقيهما ضابطا في الجهاز حسب طلب المحامي، أبلغهما الضابط أنه أجرى بحثا حول اسم السيدة المفقودة، ولم يجد أية معلومة تفيد باحتجازها من قبل الجهاز، حاول الضابط أن يشرح لهما أن مهام الجهاز تغيرت منذ اتفاق السلام، وأن هناك نيابة مختصة بالجهاز تقوم بفتح البلاغات ومتابعة القضايا، قاطعه المحامي قائلا إن الجميع يعلمون أنّ الجهاز لا يزال يعتقل الناس دون اذن من النيابة أو القضاء، وانّ بعض المحتجزين يظلون رهن الاعتقال لفترات طويلة دون توجيه أية اتهام لهم أو السماح لذويهم بزيارتهم.

حافظ ضابط الأمن الشاب على هدوئه وابتسامته الخفيفة، أوضح: التجاوزات تحدث في كثير من المرافق لكننا نبذل قصارى

جهدنـا لتلافيهـا ومحاسـبة كل مـن يتجـاوز صلاحياتـه.

عـرف المحامـي الا فائـدة مـن مواصلـة الحـوار، في الخـارج قـال لرئيـس التحريـر أخـشى أن الأسـتاذة هاجـر في خطـر حقيقـي مـا دامـوا ينكـرون وجودهـا معهـم!

شـعر رئيـس التحريـر بأنـه واقـع في مـأزق، صمـت قليـلا وقـال: وبمـاذا تنصحنـا، كيـف نتـصرف لنتأكـد عـلى الأقـل أنهـا بخـير؟

قـال المحامـي: سـنحاول أن نعمـل في أكـثر مـن اتجـاه، يجـب في البدايـة عمـل بـلاغ لـدى الشرطـة، يجـب في العـادة الانتظـار ثلاثـة أيـام قبـل عمـل بـلاغ فقـدان شـخص مـا، سـأرتب عمـل البـلاغ، هنـاك جهـاز الأمـن الشـعبي التابـع لتنظيـم الأخـوان، أحـد زبائـن مكتبـي كان ضابطـا سـابقا في الجهـاز ربمـا يسـتطع افادتنـا بـشيء، توقـف المحامـي أمـام مبنـى الصحيفـة، وعـد رئيـس التحريـر بالاتصـال بـه حـال عثـوره عـلى أيـة معلومـات.

بقـي محمـد نـور الديـن لدقائـق مـع المحامـي داخـل السـيارة، ثـم ودعـه وغـادر السـيارة، دهـش حـين رأي المحرريـن كلهـم يقفـون في الخـارج أمـام الصحيفـة، شـعر أن شـيئا مـا قـد حـدث، لم يكـن مـن عـادة المحرريـن مغـادرة مبنـى الصحيفـة كلهـم في مثـل هـذا الوقـت، يخـرج المحـررون لاسـتراحة أحيانـا خلـف مبنـى الصحيفـة، توجـد بائعـة شـاي تحـت شـجرة النيـم خلـف الصحيفـة، يتحـاورون ويدخنـون ويشربـون القهـوة والشـاي هنـاك.

بـادره أحـد المحرريـن: وقـع هجـوم عـلى الصحيفـة مـن جهـة مجهولـة، كانـوا يبحثـون عـن شيء مـا، اسـتولوا عـلى أجهـزة الكمبيوتـر،

وعبثوا بكل شيء وحطموا قطع الأثاث ومزقوا الأوراق، عرف أنهم قاموا بإبلاغ الشرطة بالحادثة وهم في انتظار وصول الشرطة، وإنهم آثروا البقاء في الخارج حتى لا يفسدوا أية أدلة أو بصمات قد تقوم الشرطة برفعها، سأل رئيس التحرير عن الحارس الليلي للصحيفة والمحرر المناوب، عرف أن المعتدين احتجزوهما في إحدى الغرف تحت تهديد السلاح، وبقيا محتجزين لعدة ساعات طوال الليل حتى غادر المعتدون، أوضح أحد المحررين: طلبنا منهما الذهاب إلى البيت، كانا يشعران بإرهاق بسبب الواقعة والسهر طوال الليل، سوف يعودان لاحقا ليدليا بإفادتهما للشرطة.

بدا رئيس التحرير قلقا جدا، كان يشغله مصير هاجر أكثر مما وقع للصحيفة، زاد من قلقه شعوره أن التفتيش الدقيق والاستيلاء على أجهزة الكمبيوتر، يعني أنهم عرفوا بصورة ما بخبر المستندات التي وصلت للصحيفة.

لا بد من أن مقالات هاجر أكدت شكوكهم، المشكلة أنهم حتى لو عثروا على صور المستندات المطلوبة في أجهزة الكمبيوتر التي استولوا عليها، سيضعون احتمال وجود نسخ أخرى من صور المستندات في أماكن أخرى، ما يعني أن المضايقات ستستمر وسيصعب التنبؤ أين ستنتهي.

قام بفحص تليفونه الذي ضبطه في وضع الصامت أثناء وجوده في جهاز الأمن، ونسي رفع صوت الجرس مرة أخرى، وجد أن والدة هاجر اتصلت به عدة مرات، اتصل بها وحاول أن يطمئنها رغم أنه فشل في إخفاء نبرة القلق في صوته، أوضح لها أن المحامي يبذل جهدا كبيرا وأنها ستعود إلى البيت في أقرب فرصة.

42

قـضى سـعيد ليلتـه الأولى متسـكعا في وسـط المدينـة، حـين شـعر بالجـوع، بحـث عـن مطعـم رخيـص، لا يكلفـه كثـيرا، وجـد مطعـما مكتـوب عليـه بالعربيـة: ساندوتشـات فـول وفلافـل، كان هناك شـخص واحـد في المطعـم الصغـير يقـوم بـكل شيء، يعـد الطلبـات ويسـلمها ويحاسـب عـلى الطلبـات، معظـم الزبائـن كانـوا يتسـلمون طلباتهـم ويغـادرون المحـل للجلـوس في الميـدان، الـذي يطـل عليـه المحـل، كانـت الحركـة هادئـة في الميـدان الـذي تتوسـطه نافـورة ضخمـة، عـرف سـعيد أن الرجـل صاحـب المطعـم مـن مـصر، جلـس سـعيد يـأكل عـلى أحـد المناضـد القليلـة داخـل المطعـم الصغـير، بعـد أن فـرغ مـن الأكل، سـأل صاحـب المطعـم إن كان يعـرف فندقـا رخيصـا في الجـوار، سـأله الرجـل المـصري: هـل أنـت مهاجـر؟ أخـبره سـعيد أنـه وصـل منـذ أسـابيع قليلـة عـن طريـق البحـر، قـال الرجـل: قبـل عامـين كان معـي هنـا شـاب سـوداني، جـاء أيضـا مـن ليبيـا عمـل معـي لفـترة هنـا في المطعـم لكنـه قـرر السـفر، اعتقـد أنـه الآن في بريطانيـا، كان يرغـب في إكـمال دراسـته.

أوضـح لـه الرجـل: الفنـادق في وسـط المدينـة غاليـة قليـلا، لكـن يمكنـك الذهـاب بعيـدا قليـلا مـن وسـط المدينـة، شرح لـه كيفيـة الوصـول إلى أحـد الفنـادق الرخيصـة، ثـم فكّـر صاحـب المطعـم قليـلا وقـال، لـدي عـرض لـك أن كنـت لا تمانـع، هنـاك شـاب يسـاعدني في العمـل لكنـه مريـض، إذا لم يكـن لديـك مانـع يمكنـك تنظيـف المطعـم

بعـد نهايـة العمـل، سـأدفع لـك بعـض المـال ويمكنـك قضـاء الليلـة في المطعـم، وان رغبـت يمكنـك مسـاعدتي أثنـاء النهـار وسـأدفع لـك أيضـا، وجـد سـعيد الفكـرة جيـدة وحـلا مناسـبا لـه، سـأله الرجـل: هـل حصلـت عـلى إقامـة مؤقتـة هنـا، أخـرج سـعيد بطاقـة الإقامـة، قـال الرجـل: ممتـاز، فقـط لـكي أطمـئن، لأنّ البوليـس أحيانـا يداهمنـا بحثـا عـن مهاجريـن غـير شرعيـين.

بقـي سـعيد أسـبوعا كامـلا في المطعـم، كان يقـوم بتنظيـف المطعـم وغسـل الأواني ليـلا، كان يخلـد للنـوم قرابـة الفجـر ويسـتيقظ عـصرا، يسـاعد صاحـب المطعـم في فـترة المسـاء ثـم يبـدأ عملـه الليـلي بمجـرد إغـلاق المطعـم.

بعـد أسـبوع رجـع مسـاعد الطبـاخ، اعتـذر لـه المـصري بـأن العمـل لا يحتمـل أكـثر مـن شـخص واحـد، دفـع لـه نقـوده لكنـه عـرض عليـه المبيـت في المطعـم أن رغـب في ذلـك حتـى يحـين موعـد سـفره، شـكره سـعيد وقـرر ألا يثقـل عليـه كثـيرا، قـضى ليلـة واحـدة في فنـدق صغـير في أطـراف المدينـة، في الصبـاح خـرج يتسـكع في وسـط المدينـة أمـلا في أن يجـد عمـلا مؤقتـا في مـكان مـا، لحسـن الحـظ اتصـل بـه عـلي وأخـبره أنهـما تسـلما بطاقـات الإقامـة صبـاح اليـوم، وسـوف يغـادران المركـز الآن، اقترحـا عليـه أن يسـافرا إلى الحـدود الفرنسـية فـورا، لأنّ مـن الأفضـل محاولـة عبـور الحـدود ليـلا، اتفـق سـعيد أن يتصـل بـه عـلي مـرة أخـرى، حـين يغـادر مـع شـقيقه المركـز ليلتقـي معهـما في محطـة القطـار.

كانـت السـاعة الواحـدة بعـد الظهـر حـين التقـوا أخـيرا في محطـة القطـار، وجـدوا أن أول قطـار سـينطلق بعـد حـوالي سـاعتين، قامـوا بشراء

التذاكر، قيمة التذكرة الواحدة حوالي مائة وخمس وثلاثين دولارا، تبقى مع سعيد بعض المال، ساعده العمل في المطعم المصري لمدة أسبوع في تغطية تكلفة الفندق وتذكرة القطار واحتفظ لنفسه بالمبلغ الذي وصل به من ليبيا، بقي مع الشقيقان قليل من المال، لكن سعيد طمأنهما أنه لا يزال يملك بعض المال لتغطية أي نفقات غير متوقعة في رحلتهم.

اقترح سعيد أن يذهبا لأقرب متجر خارج المحطة لشراء بعض الخبز والبسكويت والماء، فالرحلة طويلة كما عرف من موظف بيع التذاكر، كما أننا نحتاج لمعاطف، الجو لا يزال دافئا لكنه يصبح باردا مساء وسنضطر لعبور الحدود في وقت متأخر من الليل، اقترح عادل أن يبحثوا عن مكان ملابس مستعملة، عثروا على متجر قريب، اشتروا منه ما يحتاجونه للرحلة الطويلة، سأل سعيد البائع بالإنجليزية إن كان هناك متجر للملابس والأشياء المستعملة، شرح له الرجل أن هناك متجرا يبعد دقائق قليلة من المكان، أشار له على الطريق الذي يجب أن يسلكه، لحسن الحظ وجدا في المتجر ملابس مستعملة، اشتريا ثلاثة معاطف وثلاثة أحذية، أصر سعيد على دفع قيمة المشتريات رغم أن الشقيقين حاولا المساهمة، لكنه طلب منهما أن يحتفظا بالمبلغ المتبقي معهما ربما يحتاجان له في الفترة القادمة.

عادا إلى المحطة، تبقت حوالي الساعة على موعد القطار، تجولوا في محطة القطار القديمة، واشترى سعيد من متجر كتب في المحطة صحيفة الشرق الأوسط التي تصدر في لندن، انطلق القطار في تمام الساعة الثالثة والثلث، قال سعيد: حسب الجدول الذي

أعطاه لي موظف التذاكر لدينا حوالي ست ساعات حتى نصل إلى مدينة اسمها تورينو، سنبقى فيها حوالي نصف ساعة ثم نستقل قطارا آخر إلى مدينة باردونيتشيا على الحدود الفرنسية، التي سنصلها قبل منتصف الليل بدقائق.

أخلد سعيد إلى النوم بعد أن قرأ الصحيفة كلها، حتى الإعلانات والصفحات الاقتصادية قراها كلها، مازحه علي قائلا: لقد قرأت الصحيفة من أول كلمة لآخر كلمة، كأنك تريد أن تسترد كلما دفعته فيها! ضحك سعيد وناوله الصحيفة، كان المساء قد بدأ يرخي سدوله وغابت في الظلام مشاهد الريف الإيطالي الجميلة، حيث القطار يعبر أسفل مدن غارقة في غابات تبدو معلّقة في الضباب بين الفضاء وسفوح الجبال، يعبر شريط حياته وهو بين اليقظة والنوم مختلطا بالمشاهد التي يعبر القطار من فوقها، أشباح المدن، الأضواء المتناثرة، المطر الذي يطرق نافذة القطار كأنه يطلب الإذن للدخول، يعبر شريط الذكريات يرى نفسه هو وكمال شقيقه الأصغر يسبحان في مجاري المطر، يلعبان فوق شجرة التبلدي بعد توقف المطر، تذكر الراعي الطيب الذي استوقفهما مرة، أحضر ثمرة تبلدي كبيرة وشقها ثم حلب إحدى أغنامه في وعاء الثمرة، ثم أعطى الصبيين الثمرة ليشربا منها، كان خليط اللبن وثمار القونقليز لذيذا بصورة لم ير سعيد لها مثيلا، حتى إنه كان يطلب من أمه دائما أن تصنع له مثل ذلك العصير، لكن أمه تقول له: يجب أن أقوم بغلي اللبن على النار، لا يمكن أن احلب اللبن مباشرة فوق الثمرة، اللبن غير المغلي سيسبب لك الإسهال.

ينهمر شريط الذكريات كأنه يسابق القطار في الرحلة الليلية إلى

المجهول، إلى المستقبل، حتى يتوقف شريط الذكريات عند الزيارة التي قلبت حياته رأسا على عقب، زيارة النقيب عبد الله حاملا حقيبة المستندات التي ربما دفع حياته ثمنا لها، ويدفع هو أيضا عمره في ترحال في أقاصي العالم، في قطار ليلي يمضي كأنه يطارد هدفا مستحيلا، لو أن أحدهم قال له قبل سنوات، ستذهب عبر البحر إلى أوروبا، فلا شك أنه سيضحك كثيرا من تلك النبوءة التي لا مكان لها في خطط مستقبله، فلم يكن يدر بخلده قط أنه يمكن أن يفارق هذا البلد وأهله، كان طموحه أن يعود إلى النهود ويؤسس لنفسه ورشة صغيرة لصيانة السيارات، ويعيش بقية حياته مع سيدة ومع والديه.

توقف القطار في محطة تورينو، كان عليهم أن يغادروا القطار بسرعة، للحاق بالقطار الثاني الذي سيحملهم إلى المحطة الأخيرة.

في بهو المحطة بحثوا عن رقم الرصيف الذي يقف عليه القطار الثاني، وجدوا المعلومات كلها على لوحة رقمية كبيرة، أسرعوا إلى الرصيف رغم أنه كانت قد تبقت أكثر من نصف ساعة لهم، كان لا يزال في حقيبتهم بقية الخبز والأطعمة الخفيفة التي اشتروها من نابولي، لكن سعيد اقترح احتياطا أن يشتروا أشياء إضافية ربما يحتاجون لها في الرحلة بالأقدام عبر الحدود، ربما لا يجدون متجرا مفتوحا عند وصولهم منتصف الليل إلى محطتهم الأخيرة.

لاحظ عادل: المتاجر في محطات القطار تكون غالية الأسعار، هز سعيد رأسه وقال لن نشتري أشياء كثيرة، فنحن على كل حال سنسير على أقدامنا لعدة كيلومترات ولا يجب أن نحمل أشياء كثيرة على ظهورنا.

قال علي: أرجو أن يكون الحظ إلى جانبنا ولا نصادف البوليس الفرنسي، سيعيدوننا فورا إلى داخل حدود إيطاليا، عموما الرحلة لن تكون صعبة، ربما يكون المطر مزعجا قليلا لكنه أفضل كثيرا من الثلج، سمعت أن كثير من المهاجرين فقدوا حياتهم أثناء محاولة عبور الحدود في فترة الثلوج ، يقال إن المهاجرين يفضّلون تلك الفترة بسبب وجود تراخ أمني أثناء أعياد الميلاد ورأس السنة الجديدة.

أشترى سعيد من أحد المتاجر بعض زجاجات مشروب الشاي البارد، واشترى أيضا بعض مشروبات الطاقة، قال ستكون مفيدة جدا أثناء المشي، ثم تسلقوا سلالم المحطة إلى الرصيف، انطلق القطار في موعده، كانوا يشعرون ببعض الخوف، نبههم عادل أن يقوموا بإخفاء بطاقات الإقامة مجرد دخولهم إلى الحدود.

أوضح علي: لابد أن نحاول الوصول إلى مدينة أخرى أن نجحنا في اجتياز الحدود، حسب ما سمعت من بعض المهاجرين في مركز الاحتجاز أن البوليس الفرنسي يعيد أولئك الذين يطلبون حق اللجوء السياسي في المدن القريبة من الحدود الإيطالية، يعيدهم إلى إيطاليا.

استغرق سعيد في النوم، لكن علي ايقظه بعد قليل، الرحلة من تورينو تستغرق فقط حوالي الساعة والنصف، خرجوا بسرعة من المحطة، كان الجو قد اصبح مائلا للبرودة، ارتدوا معاطفهم، قال سعيد لا اعرف الى اية اتجاه يجب ان نسير يجب ان نسأل شخصا ما، وجدوا أنفسهم بجانب امرأة شابة خرجت معهم من محطة القطار، سألها سعيد ان كانت من سكان المدينة وحين

اجابت بنعم، قال لها نريد الاتجاه الى بلدة على حدود فرنسا، هل يمكنك ان تصفين لنا الطريق؟ ابتسمت السيدة لابد انها عرفت انهم من المهاجرين ويريدون عبور الحدود، أشارت لهم الى الاتجاه الصحيح، قالت لهم ان الحدود قريبة جدا، وسألتهم الى اين يتجهون: قال سعيد الى: نيفاتشه، قالت المرأة انها قريبة ربما مسيرة ساعة او أكثر قليلا، ذهبت اليها مرة بالدراجة ومرة بالسيارة، لكنني لم اجرب الذهاب مشيا على الاقدام، وصفت لهم الطريق بدقة شديدة، قالت لهم يقوم البوليس بدوريات منتظمة، ربما يكون الحظ الى جانبكم خاصة مع هذا الجو الماطر، لو دخلتم عن طريق الدراجات ربما لا ينتبه لكم أحد، هناك طريق مخصص للدراجات.

تابعوا طريقهم حسب وصف السيدة، بعد حوالي النصف ساعة وجدوا أنفسهم يسيرون بقرب مزارع خارج المدينة، ساروا بحذر جوار المزارع بعيدا قليلا عن طريق السيارات، مضت قرابة الساعتين، قبل ان تبدا بعض اللافتات المعدنية باللغة الفرنسية تظهر امامهم، فجأة وجدوا أنفسهم بجانب مقهى صغير لم يصدقوا انهم في داخل الحدود الفرنسية، اقترح سعيد ان يشربوا شيئا دافئا ويستفسرون من الطريق الى محطة القطار، قال علي: هذه مدينة صغيرة ربما لا يوجد فيها محطة قطار، لكن يمكننا أن نستقل البص الى اقرب مدينة بها محطة للقطار، لكن على كل حال يجب أن نجد شخصا ما ليدلنا على الطريق، لاحظ سعيد: غريب ان يكون هناك مقهى مفتوح في مثل هذا الوقت الساعة تقترب من الثالثة صباحا.

فجأة وهم على وشك دخول المقهى، غمرهم ضوء سيارة باهر توقفت أمامهم، هبط منها ثلاثة رجال شرطة، طلب أولهم أن يرى بطاقات هوياتهم.

43

أعادهـم البوليـس الفرنـسي إلى داخـل الحـدود الإيطاليـة، قـال لهـم رجـل الشرطـة الإيطـالي الـذي تسـلمهم أنـه يجـب عليهـم أمـا البحـث عـن عمـل، أو تقديـم طلـب للجـوء قبـل أن تنتهـي مـدة إقامتهـم المؤقتـة، ويتعرضـون للترحيـل، كانـت الشـمس قـد أشرقـت حـين خرجوا مـن مركـز الشرطـة، اقـترح سـعيد أن يبحثـوا عـن فنـدق، لأنهـم في حاجـة للراحـة بسـبب إرهـاق الليلـة المنصرمـة، أوقفـوا رجـلا لسـؤاله عـن أقـرب فنـدق يمكنهـم الذهـاب إليـه، نظـر لهـم الرجـل ويبـدو أنـه عـرف أنهـم مـن المهاجريـن، قـال لهـم يوجـد فنـدق مخصـص للشـباب بأسـعار زهيـدة، تطـوع الرجـل بـأن رافقهـم إلى المـكان، لحسـن الحـظ أعطوهـم غرفـة كبـيرة مخصصـة لشـخصين لكنهـم وضعـوا فيهـا سريـرا إضافيـا، كان سـعيد مرتاحـا لعثورهـم عـلى مأوى بسـهولة، رغـم خيبات الليلـة المنصرمـة، وقـال سـنذهب لنـأكل شـيئا ونعـود للنـوم، ويمكننـا مـا دامـت تكلفـة المـكان معقولـة أن نفكـر بهـدوء في الخطـوة القادمـة ولا نتعجـل محاولـة عبـور الحـدود مـرة أخـرى.

اسـتيقظوا عـصرا، كانـوا يشـعرون بجـوع شـديد، تناولـوا وجبـة خفيفـة مـن بعـض مـا تبقـى معهـم مـن خبـز وبسـكويت، وقـرروا أن يخرجـوا مسـاء للبحـث عـن مطعـم لتنـاول وجبـة العشـاء، اقـترح سـعيد: أرى أن نقـوم بطلـب اللجـوء هنـا في إيطاليـا.

عـادل وعـلي كانـت لديهـم معلومـات أفضـل حـول أوضـاع المهاجريـن في إيطاليـا، حسـم الطلـب يسـتغرق وقتـا طويـلا، أوضـح

عـادل، وسـيطلبون منـك إحضـار جـواز سـفر مـن بلـدك لوضـع الإقامـة عليـه، هــذا إن سـارت الإجـراءات دون تعقيـدات، وفي فـترة انتظـار الحسـم لا يقدمـون لـك مكانـا للسـكن، البعـض يقيمـون في البيـوت المهجـورة أو المبـاني قيـد الإنشـاء، أو تقـدم بعـض الكنائـس مسـكن مؤقـت للمهاجريـن، نحـن لا نملـك جـوازات سـفر وسـيكون صعبـا جـدا أن نحصـل عليهـا لأن سـفارات الحكومـة لا تتعـاون مـع طالبـي اللجـوء.

اذن قـال سـعيد: لا حـل سـوى الدراجـات، بـدا عـلى عـادل وعـلى أنهـما لم يفهـما مـا يقصـد، قـال لهـما هـل تذكـران كلام السـيدة التـي التقيناهـا أمـام محطـة القطـار؟ قالـت لنـا إذا عبرتـم الحـدود بالدراجـات لـن ينتبـه لكـم أحـد، باعتبـار أن مـن يسـتخدم الدراجـة هـو بالـضرورة يسـكن في المنطقـة.

صمـت الشـقيقان أمـلا في أن يوضـح سـعيد فكرتـه، قـال سـعيد: لمـاذا لا نجـرّب مـا دام طلـب اللجـوء هنـا مسـتبعد في الوقـت الحـالي، اقـترح أن نخـوض تجربـة عبـور الحـدود مـرة أو مرتـين، إن لم ننجـح لـن يكـون هنـاك حـل سـوى طلـب اللجـوء.

قـال عـادل: لنبحـث إذن غـدا عـن متجـر للأشـياء المسـتعملة، ربمـا يحالفنـا الحـظ ونجـد دراجـات بأسـعار معقولـة، لكنني أقـترح أن نبحث عـن عمـل، أخـشى أن مـا تبقـى معنـا مـن مـال لـن يكفـي خصوصـا إن فشـلت المحاولـة القادمـة، هنـاك مـزارع قريبـة مـن الحـدود مررنـا بهـا بالأمـس مـا رأيكـم أن نمـر عـلى بعـض المـزارع بحثـا عـن عمـل؟

كان اقتراحـا جيـدا، قـال سـعيد إذن فليكـن برنامجنـا غـدا الذهـاب إلى منطقـة المـزارع لنبحـث عـن عمـل.

صباحا عادوا للسير على نفس الطريق الذي سلكوه أثناء محاولة عبور الحدود، أول مزرعة زاروها اعتذر لهم المزارع لأنّ موسم حصاد التفاح قد انتهى، أشار لهم إلى مزرعة أخرى ربما يجدون فيها عملا، قال إن لديهم معملا لعزل الفواكه وتعبئتها، بالفعل وجدوا عملا هناك، قال صاحب المزرعة إنه يحتاج لشخصين، لكن لا مشكلة يمكنه أيضا أن يجد عملا للشخص الثالث.

عزل الفواكه التالفة يجب أن يتم بسرعة، فالماكينة التي تمر الفواكه عليها تتحرك بسرعة شديدة، بعد ساعتين حصلوا على استراحة، كان معهم عمال آخرين أفارقة وبعضهم من المغرب العربي، في السادسة مساء انتهى يوم العمل، طلب منهم صاحب المزرعة العودة في اليوم التالي مبكرا، كانوا في غاية الإرهاق حين عادوا نهاية اليوم إلى المدينة، تناولوا عشاءهم بسرعة في مطعم صغير وجدوه في طريقهم، قبل أن يعودوا إلى الفندق.

تواصل العمل لمدة أسبوعين ثم أبلغهم صاحب المزرعة أن العمل سيتوقف وربما يحتاج إليهم بعد أيام، أعطاه سعيد رقم هاتفه المحمول ثم فكّر قليلا، كان قد عرف من بعض العمال أن صاحب المزرعة يستورد أحيانا فواكه من داخل حدود فرنسا ليقوم بإعادة تعبئتها ثم بيعها.

بعد أن دفع لهم صاحب المزرعة أجرة الأيام التي عملوا فيها، استوقفه سعيد وأبلغه أنهم يريدون عبور الحدود إلى فرنسا، ويمكنهم أن يعملوا معه مجانا في شحن عربة النقل من هناك بشرط أن يتركهم داخل الحدود.

فكـر الرجـل وابتسـم قائـلا إن ذلـك قـد يدخلـه في مشـاكل مـع السـلطات الفرنسـية، ثـم سـأل سـعيد: هـل تريـدون السـفر إلى بريطانيا؟ كان قـد سـمع أن معظـم المهاجريـن الذيـن يجازفـون بعبـور الحـدود إلى فرنسـا، يتجهـون إلى مدينـة كاليـه لمحاولـة العثـور عـلى شـاحنة تقلهـم سرا إلى بريطانيـا.

أجاب سعيد: نعم نريد أن نحاول الوصول إلى بريطانيا.

قـال الرجـل الـذي يبـدو أنـه كان راغبـا رغـم تخوفـه في مسـاعدتهم، أعطنـي فرصـة وسـأتصل بكـم إن أمكـن لي ترتيـب ذلك.

في طريق العودة قال عادل: اذن لا داعي لشراء الدراجات!

ابتسـم سـعيد وقـال لننتظـر ونـرى، الرجـل يبـدو مـترددا، لكـن دعنـا نأمـل خـيرا.

قـال عـلي: أعطـاني سـؤال الرجـل فكـرة ثانيـة، لم لا نحـاول فعـلا الوصـول إلى بريطانيـا؟

لم يبـد سـعيد تعاطفـا مـع الفكـرة، أوضـح: نحـن لنـا قرابـة الشـهر لا نسـتطيع عبـور حـدود يسـتغرق عبورهـا أقـلّ مـن سـاعة، فكيـف تريدنـا عبـور البحـر إلى بريطانيـا؟ سـمعت أن بعـض المهاجريـن يفترشـون الأرض لسـنوات قبـل أن تتـاح لهـم فرصـة الدخـول إلى بريطانيـا، بالنسـبة لي أريـد فقـط أن اسـتقر في مـكان مـا، وابحـث عـن عمـل وكـما تـرون فـرص العمـل كثـيرة في هـذه البـلاد، في الأيـام القليلـة التـي قضيتهـا في انتظاركـم في نابـولي وجـدت عمـلا في مطعـم، ولـو ذهبنـا إلى مدينـة مثـل رومـا مؤكـد سـنجد فرصـا كثـيرة، هنـا في هـذه البلـدة الصغـيرة وجدنـا عمـلا لمـدة أسـبوعين، وربمـا نجـد عمـلا آخـر

إن بحثنا فنحن لم نقصد في بحثنا سوى هذه المنطقة، فلماذا نقضي عمرنا كله في محاولة عبور الحدود من بلد إلى آخر؟

قال عادل: بريطانيا فيها فرص أكثر وفيها فرص أفضل للدراسة، كما أن الإنجليزية أفضل لنا، على الأقل درسناها في مدارسنا ونستطيع أن نتقدم فيها بسرعة.

لكن سعيد لم يقتنع، قال دعونا نصل إلى فرنسا، إذا أردتم التقدم فذلك خياركم، لكن بالنسبة لي ستكون فرنسا آخر محطة.

ذهبوا في اليوم التالي إلى متجر الأشياء المستعملة، وجدوا ملابس وأواني منزلية، وجدوا دراجات أيضا، قديمة بعض الشيء لكن أسعارها رخيصة، قرروا عدم التسرع بشرائها لحين اتصال صاحب المزرعة بهم.

كانوا يتسكعون في المدينة نهارا ويتناولون وجبة واحدة في مطعم جزائري في وسط المدينة، كان هناك أيضا مركز اتصالات وإنترنت اعتادوا على قضاء بعض الوقت فيه مساء، اتصل سعيد بشقيقه كمال للاطمئنان على والديه والسؤال عن اخبار النقيب عبد الله، كما اتصل بسيدة وطمأنها على أحواله وأخبرها أنه سيتصل بها قريبا مجرد أن تستقر أحواله.

مضت عشرة أيام ولم يتصل صاحب المزرعة، بدأ سعيد يشعر بالقلق، لابد أن الرجل خائف من تحمل المسئولية أن أوقفهم البوليس، رغم أنه طمأن الرجل أن معهم بطاقات إقامة إيطالية، ويمكن أن يقول إن أوقفهم البوليس في أية نقطة داخل الحدود، أنهم يعملون معه في المزرعة وحضروا معه أيضا لشحن فواكه من

مزرعة داخل حدود فرنسا.

اتصل الرجل بعد يومين لم يتحدث كثيرا فقط قال لسعيد عندي لكم عمل، سأذهب لإحضار فواكه تعالوا غدا صباحا عند الساسة السابعة، عبروا الحدود في عربة النقل دون أية مشاكل قال لهم سنسافر حوالي ساعة إلى مزرعة قريبة من مدينة غرينوبل، هناك يمكنكم تحميل الفواكه في العربة والذهاب إلى المدينة، لركوب القطار إلى الجهة التي تقصدونها.

بعد أن قاموا بتحميل البضاعة أوصلهم الرجل قريبا من مشارف المدينة، وأصر على دفع أجرة عملهم لذلك اليوم، بل وأعطاهم مبلغا إضافيا وتمنى لهم التوفيق، وعده سعيد بأن يزوره أن جاء للمنطقة مرة أخرى ليرى إن كان عنده أية فرصة عمل له، شكروه بشدة على جهده وتحمله لمخاطر مساعدتهم في عبور الحدود، ثم اتجهوا إلى داخل المدينة.

قال سعيد لن أسافر إلى أي مكان، سنذهب إلى مركز الشرطة، حتى بالنسبة لكم، لن تخسروا شيئا إن طلبتم اللجوء، وان سنحت لكم فرصة السفر إلى بريطانيا فيمكنكم السفر، وربما لا تحتاجون إلى ذلك أن سارت الأمور بصورة جيدة هنا.

بالفعل قاموا بتسليم أنفسهم إلى مركز الشرطة، أرشدهم رجل مسن، كان يقطع الطريق مراقبا كلبه يمرح من حوله، أشار لهم إلى مركز الشرطة، قام اثنان من رجال الشرطة بالتحقيق معهم كل على حدة، ومن ثم ترحيلهم في وقت متأخر إلى مركز لاستقبال اللاجئين قريبا من مدينة باريس.

44

كان مركز استقبال اللاجئين مكتظا بأعداد هائلة من البشر، يتكوّن المعسكر من خيم ضخمة وبيوت متنقلة صغيرة الحجم أشبه بشقة صغيرة بها غرفة واحدة ومطبخ صغير وحمّام، لحسن حظهم تم وضعهم الثلاثة لوحدهم في بيت متنقل، فور شعوره ببعض الاستقرار بجانب نشاطات المركز ومتابعته لملف قضيته مع منظمة المساعدة القانونية، قام سعيد بالبحث في المنطقة القريبة من مركز الاستقبال عن مقهى للإنترنت، عثر على مقهى صغير في شارع قريب، فحص أولا ذاكرة الفلاش ووجد كل الملفات موجودة بصورة جيدة، قام بإنشاء بريد إلكتروني ورفع الملفات كلها وحفظها في البريد الإلكتروني، ثم اختار بعض صور المستندات التي عثر عليها النقيب عبد الله أثناء تحقيقه في قضية محاولة اغتيال الرئيس المصري، وقام بطباعة ثلاث صور من تلك المستندات.

استطاع الحصول على عنوان السفارة السودانية من الإنترنت، سنحت له فرصة احتفال بعد أيام قليلة من وصولهم إلى فرنسا، دعت له منظمة الجالية السودانية في باريس، احتفالا بذكرى ثورة أكتوبر، تعرّف على رجل من نفس منطقتهم سمع عنه كثيرا لكن لم تتح له الفرصة للقائه، كانت زياراته للسودان نادرة، رحّب بسعيد كثيرا وجلس يسأله عن جميع أهل مدينتهم، وحكى لسعيد جانب من ذكرياته هناك، كان والده يملك مشروعا زراعيا ومعملا لإنتاج الجبنة وأبقارا كثيرة، لكن بعد استيلاء الاخوان على

السلطة أغرقوه في الديون، واستولوا على مشروعه الزراعي ومعمل الجبنة، وتركوه يموت بالحسرة، فجأة قال الرجل: أين عبد الله عثمان؟ كان زميلي في المدرسة! أعتقد أنه قريب لوالدك؟

حكى له سعيد باختصار ما حدث للنقيب عبد الله، وانّ مصيره مجهول حتى الآن، تأسّف الرجل كثيرا قال: رغم أن عبد الله اختار الانضمام لجماعة الإخوان، لكنه كان إنسانا مهذبا ونبيلا، لم يكن يشبههم واعتقد إنّ خطأ عمره كان في الانضمام لهذه الجماعة، سأله سعيد إن كانت له علاقات مع سفارة النظام، أوضح الرجل أن العلاقة معهم في حدود استخراج التأشيرات أو المعاملات الرسمية، لكنهم لا يسمحون لهم بمشاركتهم في برامجهم الثقافية والاجتماعية، لأن معظمهم هم في الواقع ضباط في جهاز الأمن والمخابرات، قال سعيد أريد معرفة اسم واحد من المنتمين لجهاز الأمن، أود إيصال رسالة لهم، لدي محاولة لكشف مصير النقيب عبد الله، تركت والديه وزوجته وأطفاله على وعد أن اساعد في كشف مصيره واعادته لهم ان كان لا يزال حيا.

كتب له الرجل اسم القنصل في ورقة، يمكنك توجيه الرسالة لهذا الرجل وستصل في نفس اليوم إلى جهاز الأمن والمخابرات، لكن يجب أن تكون حذرا جدا في التعامل معهم، هم يحاولون اختراق الجاليات، والتجسس عليهم وإثارة الفتن العرقية، نفس الفتن العرقية التي يثيرونها داخل الوطن، يريدون نقلها أيضا في أوساط مهاجرين هم في الواقع كلهم من ضحايا النظام نفسه.

قال سعيد: سأكون حذرا وسأحاول ألا أتعامل معهم إلا عبر البريد.

في اليوم التالي وضع سعيد اسم القنصل وعنوان السفارة على مظروف، ادخل فيه رسالة قصيرة إلى القنصل مع صور المستندات التي قام بطباعتها، كان ملخص الرسالة أنه يملك كل المستندات ومحاضر لجنة التحقيق في محاولة اغتيال الرئيس المصري، وأنه يمهل جهاز الأمن والمخابرات شهرا يعود فيه النقيب عبد الله إلى أسرته أو سيقوم بالبدء في نشر هذه المستندات، وأنه قد اتفق مسبقا مع إحدى الصحف على نشر المستندات ومحاضر التحقيق.

وضع على الرسالة أيضا بريده الإلكتروني، فكّر في وضع رقم تليفونه، لكنه تذكّر كلام الرجل الذي أعطاه معلومات القنصل، وتحذيره له من الاقتراب منهم كثيرا، بعد مرور ثلاثة أيام لم يصله أية رد، رغم أنه داوم على فتح بريده الإلكتروني كل يوم صباحا ومساء.

كان علي وعادل قد انشغلا قليلا عنه، بدءا في دراسة اللغة الفرنسية، حين أفصحا لإدارة المركز عن رغبتهما في استئناف دراستهما، أرسلوهما إلى مدرسة قريبة لدراسة اللغة في دورات مكثفة، لأنّ فصل دراسة اللغة داخل المركز، كان فقط لتعليم الطالب بعض مبادئ اللغة وبعض العبارات الشائعة في الاستخدام اليومي، وليس موجها لطالب يود استئناف دراسته الجامعية.

في اليوم الرابع وجد سعيد رسالة في بريده الإلكتروني من القنصل، أبلغه فيها اهتمام جهاز الأمن بالرد عليه بسرعة، وأنه يود مقابلته بأسرع فرصة ممكنة للتباحث حول بعض الخطوات التي يجب اتباعها لحل المشكلة.

لكن سعيد رد عليه قائلا إنه يقيم في مركز للاجئين ولا يستطيع مقابلته، ويمكنه عبر البريد الإلكتروني أن يخطره بما يريد، لكن الرجل عاد ليرد على سعيد بسرعة، قال إنه يملك معلومات حول النقيب عبد الله لكنه لا يستطيع أن يرسلها عبر الإنترنت، وكرّر طلبه أن يلتقيا بأسرع فرصة، واقترح على سعيد موعدا بعد يومين ووضع له عنوان مقهى في باريس، وحدد له وقت اللقاء، سعيد لم يرد على الرسالة رغم الفضول الذي اعتراه لمعرفة أي شيء عن مصير النقيب عبد الله، لكنه قرر ألا يتعجل الاتصال المباشر بهم، شعر أنهم يخططون لشيء ما، ربما يقدمون حتى على قتله، سمع أنهم سبق لهم أن حاولوا اغتيال بعض المعارضين المقيمين في الخارج.

قرّر أن يشغل نفسه قليلا بدراسة اللغة الفرنسية والبحث عن عمل، تحادث مع شقيقه كمال ومع والديه ومع سيدة عدة مرات، طمأنهم أن أحواله تسير بصورة جيدة وأنه يتوقع الحصول على إقامة دائمة قريبا يتمكن بعدها من العمل وربما زيارتهم.

وجد عملا في عطلة نهاية الأسبوع، يقوم بغسل الأواني في مطعم، يقوم بوضع الأواني داخل ماكينة تقوم بغسلها وتجفيفها ويتولى هو إخراجها من الماكينة ووضعها في أماكنها، ومن ثم إعادة تعبئة الماكينة لغسل أوان أخرى، حين سأل مدير المطعم إن كان بإمكانه العمل أثناء الأسبوع أخبره المدير أنهم في الوقت الحالي لديهم ضغط في العمل فقط في عطلة نهاية الأسبوع، لكنهم سيتصلون به أن احتاجوا إلى مساعدة في أثناء الأسبوع.

في اليوم الذي حدده القنصل للقائه، لم يذهب سعيد، لكنه

فوجئ باتصال تليفوني في نفس توقيت الموعد، اعتقد أنه ربما أحد الذين تعرف بهم في الحفل السوداني، لكنه فوجئ بأنّ المتصل كان هو القنصل نفسه! سأله سعيد كيف حصلت على رقمي، قال الرجل ضاحكا، مع هذه الثورة الرقمية ليس من الصعب الحصول على رقم شخص ما في أي مكان في العالم ناهيك عن هذه البلاد، ثم ضحك وقال: لا تنس أن هذا عملنا أيضا.

قال لسعيد: أنا في انتظارك، أرجو ألا تضيع فرصة معرفة شيء ما عن وضع قريبك. يمكنك أن تستقل عربة تاكسي فورا وسأدفع لك أجرة التاكسي، لا أريد منك سوى نصف ساعة ويمكنك رفض لقائي مرة أخرى أن أردت، ثم اغلق التليفون وأرسل له عنوان المطعم مرة أخرى في رسالة نصية.

استقل سعيد سيارة تاكسي، مقررا أن يدفع أجرة التاكسي بنفسه، فكر سعيد أن الرجل دون شك تابع لجهاز الأمن، لكن رجال الأمن في الواقع لا يعلنون عن ذلك، لكنه شعر أن الرجل قصد أن يؤكد له علاقته بجهاز الأمن، حين أشار إلى أن معرفة رقم تليفون شخص ما هو من صميم عملهم، يبدو أنه يريد أن يعرف سعيد أنه يعالج موضوع النقيب عبد الله باعتباره ضابط في جهاز الأمن، وأنه أفضل جهة يمكن أن تكون نقطة اتصال بينه وبين الجهاز.

نظر سعيد داخل المطعم المزدحم في منطقة وسط باريس قريبة من محطة القطار الرئيسية، قبل أن يتجه إلى الشخص الوحيد الذي بدا من شكله أنه هو الشخص المقصود، صافحه وجلس بجانبه، سأله الرجل إن كان يريد شراب شيء قبل أن يحضر

الطعام، لكن سعيد شكره وأوضح له أنه تناول عشاءه في البيت قبل خروجه، قال الرجل لا تستحي يا أخي، نحن إخوة في هذه البلاد، يمكنك طلب أي مشروب تريده حلال أم حرام لا فرق!!

ابتسم سعيد وفكّر: يمنعون شراب الخمر داخل الوطن، بدعوى أنه حرام وخارج الوطن يشربون كل شيء ويدعون الناس لشرابه! تذكّر أنه في الأيام التي عمل فيها في مطعم الرجل المصري في نابولي، كان يشرب قليلا من الخمر بعد أن يفرغا من العمل وكان المصري يعطيه بعض الساندوتشات للعشاء، ولأنه يعلم أن المصري كان يقدم لحم الخنزير لبعض زبائنه، كان يسأل المصري حين يقدم له الساندوتشات وهو مخمور: هل هذه حلال أم حرام؟

وكان المصري يضحك ويقول له: أنت سكران وتسأل عن الحلال والحرام! حكى له صاحب المطعم المصري أنه حين جاء إلى إيطاليا قبل سنوات عمل في البداية في روما في مطعم يملكه مصري من المسيحيين، وأنه جادل صاحب المطعم في الأيام الأولى حول تقديم لحم الخنزير وكان رد صاحب المطعم: وما ذنب الخنزير؟ استيقظ صباحا ووجد نفسه محرّما! وفي النهاية أصبح لي مطعم وأصبحت أيضا أقدم لحم الخنزير للزبائن، مطعمي في منطقة سياحية معظم زوارها من الأمريكيين، ونادرا ما يزور مسلمين مطعمي.!

قال القنصل: بذلت خلال الثلاثة أيام جهدا مضنيا، اتصلت بعدة جهات لمعرفة شيء عن مصير النقيب عبد الله، كما تعلم أن فترة ما قبل الخلاف وانشقاق الحركة الإسلامية شهدت سيطرة تنظيم الحركة الإسلامية على أجهزة الأمن، كانت لديهم أجهزة أمن تابعة للتنظيم من قبل الانقلاب وبعد وصولهم للسلطة أصبحت

تلك الأجهزة تتحكم في العمل الأمني ولديها نفوذ أقوى من جهاز المخابرات، تم حل بعض هذه الأجهزة بعد الانشقاق والبعض الآخر بعد اتفاقية نيفاشا، لكن المشكلة أن معظم الاعتقالات التي تمت قبل حل تلك الأجهزة الأمنية كانت تتم بصورة مخالفة للقانون ومعظم المعتقلين في تلك الفترة أصبح مصيرهم مجهولا.

استمع سعيد بصبر للرجل الذي لا يبدو أنه لديه أية أخبار عن النقيب عبد الله، بل ربما كان سعيد يعرف أكثر منه، لكن سعيد كان يعلم خبثهم وإخفائهم للحقائق، ومحاولة بعضهم الظهور بمظهر البريء الذي يدين أفعال أقرانه، ثم انتقل الرجل فجأة ودون مقدمات إلى الحديث حول المستندات، قال إن هذه المستندات مهمة وقد تُعرّض أمن ومصالح البلد كلها لمخاطر ومشاكل كثيرة، ثم قال بوضوح أكثر: لقد فُقدت هذه المستندات رغم أن اللجنة قدمت تقريرها ويفترض أن أمين الحركة الإسلامية يحتفظ بها، لكنها اختفت، شعر سعيد أن الرجل يكذب فقد فهم إن لم تخنه الذاكرة، أن النقيب عبد الله لم يقدم تقريره أبدا.

ثم قال الرجل: الجهة التي فقدت المستندات عرضت مكافأة ضخمة، لمن يعيدها أو يدلي بمعلومات حول وجودها، وأعتقد أن من حقك الحصول على هذه المكافأة بمجرد اعادتك لهذه المستندات. صمت الرجل قليلا وقال المكافأة مليون دولار!

45

سـعيد بقــي بعـد مقابلتـه للقنصـل في حالـة انتظـار قلـق، كان تحليلـه لـكلام القنصـل يشـير فقـط إلى حقيقـة أنّ النقيـب عبـد اللـه قـد تمـت تصفيتـه، مثـل كل الذيـن كانـت لهـم صلـة بمحاولـة اغتيـال الرئيـس المـصري، لكنـه برغـم ذلـك داوم عـلى الاتصـال بشـقيقه كـمال عـسى أن يسـمع شـيئا يعيـد الأمـل في احتـمال عـودة النقيـب عبـد اللـه إلى أسرتـه، عـرف أنّهـم يحاولـون إسـكاته عـن طريـق الرشـوة، ليسـت القضيـة قضيـة مسـتندات لأنهـم يعرفـون أنـه يمكـن أن يصنـع منهـا ألـف نسـخة ويوزعهـا في ألـف مـكان ضمانـا للاحتفـاظ بهـا بعيـدا عنهـم، لكنهـم يريدونـه هـو، موافقتـه عـلى العمـل معهـم هـي أفضـل ضـمان لسـكوته لحـين التخلـص منـه.

فكّـر أنـه لـو كان في السـودان لمـا تـرددوا في تصفيتـه. انشـغل في الأيـام التاليـة بدراسـة اللغـة الفرنسـية نهـارا، كان يذهـب إلى مدرسـة اللغـة داخـل المركـز مرتـين في الأسـبوع، ويعمـل في نهايـة الأسـبوع ليـلا، لكنـه كان يحـرص عـلى مراجعـة بريـده الإلكـتروني كل يومـين، بسـبب توقـف تليفونـه القديـم الـذي اشـتراه مـن مركـز الانتظـار في إيطاليـا، قـام بـشراء تليفـون جديـد، وجـد أنّ بإمكانـه إضافـة بريـده الإلكـتروني إلى التليفـون، فأصبـح بإمكانـه تلقـى اشـعار كلـما وصلـت رسـالة إلكترونيـة جديـدة في بريـده.

أصبـح أيضـا عـن طريـق تطبيـق الواتسـاب يتراسـل مـع شـقيقه يوميـا، أرسـل لـه شـقيقه صـور والدتـه ووالـده، مضـت الأيـام، شـعر

بهما وقد كبرا كثيرا في تلك الفترة، نظر في المرآة فرأى ملامحه قد تغيرت كثيرا، غزا الشعر الأبيض رأسه، وبدأ كأنه قطع في خلال عدة أشهر، عدة سنوات دون أن يشعر، ربما بسبب المصاعب والأهوال التي مرّ بها طوال سنوات منذ لحظة اعتقاله، وحتى وصوله إلى إيطاليا. كانت أربعة أشهر قد مرت منذ لقائه مع القنصل، حين فحص جهاز التليفون كعادته كلما استيقظ صباحا ليرى أن كانت هناك اية إشعار بوصول رسالة جديدة، وجد رسالة جديدة في بريده الإلكتروني، توقّع أن تكون من القنصل، لكنه فوجئ باسم مرسل الرسالة، نصر الدين الزبير، قبل أن يقرأ الرسالة بدأ يتذكر الاسم، هل يعقل أنه نفس زميله السابق قبل سنوات طويلة في المدرسة الابتدائية، كان والده مديرا للمدرسة الابتدائية وكانوا يسكنون في بيت تابع للمدرسة في نفس الحي الذي يسكن فيه سعيد مع أسرته، كان نصر الدين مشاغبا، ودائما ما تعرّض للعقاب بسبب شغبه الدائم، ولم يشفع له أن والده كان مدير المدرسة، كان سعيد يجد نفسه أحيانا متورطا في المشاكل التي يقع فيها نصر الدين، دون حتى أن يشاركه في شغبه ومعاركه اليومية.

التلميذ المسئول عن تسجيل أسماء التلاميذ الذين يحدثون فوضى في الفصل، ويقدمها لمرشد الفصل ليعاقبهم، كان دائما يضع اسم نصر الدين أولا، فجأة اختفى اسم نصر الدين من قائمة الطلاب المشاغبين، وحلّ اسم سعيد مكانه، رغم أن نصر الدين لم يتوقف عن الشغب وتدبير المقالب لزملائه، بالصدفة اكتشف سعيد سر سحب اسم نصر الدين من قائمة المشاغبين، كان يبحث عن قلم بسبب ضياع قلمه، ولأنّ نصر الدين خرج من الفصل

بحثا عن شيء ما، قام سعيد بفتح حقيبة نصر الدين بحثا عن قلم، وجد حقيبة قماش الدمور مليئة بأوراق صحف ومجلات، دهش سعيد فلم يكن نصر الدين من هواة القراءة، حين عاد نصر الدين إلى الفصل سأله سعيد عن الصحف والمجلات التي تمتلئ بها حقيبته، ضحك نصر الدين وأشار للطالب الذي يقوم بكتابة قائمة المشاغبين، وقال هامسا: أحضر له كل فترة مجموعة من الصحف والمجلات، ليتوقف عن كتابة اسمي، لحسن الحظ لدينا في البيت تلالا من هذه المجلات، بعد أن يقوم أبي بقراءتها تجمعها أمي وتضعها في المخزن، حتى كاد المخزن أن يمتلئ، تقول أمي يوما سنجد أنفسنا وقد غرقنا في تلال الورق!

ضحك سعيد حين تذكر تلك الواقعة، وفكّر أن نصر الدين ربما كان أول طفل في العالم يقوم برشوة شخص ما!، كان مندهشا إن كان هذا نصر الدين الذي أعرفه، من أين له ببريدي الإلكتروني، وقد انقطع أية تواصل لي معه منذ سنوات طويلة!

كأنّ الرجل قرا أفكاره ففي أول سطر ذكر نصر الدين انه حصل على بريده بالصدفة من شقيقه! قال انه كان يقضي عطلة في النهود لأول مرة منذ سنوات، وانه ذهب لزيارة المدرسة الابتدائية، لم يجد المدرسة القديمة التي غرقت حين اجتاحت السيول المدينة قبل سنوات، لكن اهل المدينة قاموا ببناء المدرسة من جديد، المدرسة الجديدة أكبر وأجمل كثيرا من القديمة، ولأنّ سوق المدينة تمدد واتسعت المدينة قاموا ببناء عدة مخازن ملحقة بالمدرسة، تم تأجيرها كمتاجر او مخازن للحبوب، لدعم ميزانية المدرسة.

وأثناء طوافه في المدينة التقى بالصدفة بشقيقه كمال، قال

عرفته فورا، فهو صورة طبق الأصل منك، عرفت منه أنك هاجرت إلى أوروبا، وأنك تقيم في فرنسا، ومازح سعيد قائلا: يقال إنّ الفرنسيات في غاية الجمال، هل ستتزوج من فرنسية وتنسى بلدك وأصدقاء الطفولة! ثم تمنى لسعيد التوفيق في سفره، ووعده بمراسلته من وقت لآخر، وفي ختام رسالته ذكر أنّ لديه الرغبة في السفر إلى بلجيكا في الصيف القادم، لزيارة إحدى شقيقاته التي تعيش هناك مع زوجها وأطفالها، وأنه سيحرص إذا تمت الزيارة في موعدها، أن يزور فرنسا ليلتقي به.

شعر سعيد ببعض الخوف، مرّت سنوات طويلة لماذا يتصل به نصر الدين فجأة، حاول طرد الهواجس، قال لنفسه، لابد أنني أشعر بالخوف وأصبحت سريع التشكك في كل شيء يحدث من حولي، بسبب المعركة التي وجدت نفسي فيها مع النظام، منذ أن سلّمني النقيب عبدالله تلك المستندات، ردّ على نصر الدين برسالة قصيرة، شكره على رسالته ووعده بالتواصل معه دائما، أوضح له سعادته برسالته بعد كل هذه السنوات، وإنه أيضا مشتاق للقائه واستعادة ذكريات ذلك الزمان الجميل.

أرسل بسرعة رسالة لشقيقه يسأله إن كان بالفعل قد أعطى شخصا ما بريده الإلكتروني.

ردّ كمال بسرعة قائلا: هل تقصد ضابط الأمن!

دق قلب سعيد بسرعة: هل هو ضابط أمن؟ اسمه نصر الدين!

رد كمال: نعم، التقيته بالفعل في السوق وسألني منك وطلب

رقـم تليفونـك، لكننـي قلـت لـه إن معـي البريـد الإلكـتروني، فكتبـه في ورقـة وقـال لي إنـه كان زميلـك في المدرسـة، قـال لي إنـه سـيزورنا في البيـت قبـل عودتـه إلى مـكان عملـه في الخرطـوم، كانـت تلـك أول مـرة أراه فيهـا، وكان يقـف معـي أحـد أصدقـائي والـده ضابـط شرطـة، قـال لي بعـد ذهـاب نـصر الديـن، هـل تعـرف هـذا الرجـل؟ قلـت لـه لا لكنـه كان زميـل أخـي، فابتسـم وقـال لي: يقـول النـاس هنـا أنـه ضابـط في جهـاز الأمـن والمخابـرات.

شـعر سـعيد أن شـكوكه حـول الرسـالة كانـت في محلهـا، شـعر أن لقـاء نـصر الديـن بشـقيقه لم يكـن صدفـة كـما ذكـر لـه، بـل ربمـا كانـت زيارتـه نفسـها للمدينـة لم تكـن صدفـة، فأسرتـه حسـب علمـه لم تكـن أصلا مـن النهـود، جـاء والـده منقـولا مـن منطقـة مـا، وحـين تقاعـد غـادر مـع أسرتـه المنطقـة وعـاد للعيـش في قريتـه في منطقـة النيـل الأبيـض، فـما الـذي أتى بالرجـل مـرة أخـرى إلى النهـود؟ يقـول إنـه أتى في عطلـة! لـو كنـت أعمـل موظفـا في الحكومـة وذهبـت في عطلـة اذهـب امـا إلى خـارج الوطـن، وان اخـترت الذهـاب إلى مـكان مـا داخـل الوطـن فقطعـا سـأذهب إلى حيـث تقيـم أسرتي.

حـاول سـعيد أن يبقـي بعـض الأمـل في أن الرجـل صـادق، ربمـا اشـتاق الرجـل لمهـد طفولتـه وأيـام الدراسـة الأولى، لكـن هـل يشـتاق ضبـاط الأمـن والمخابـرات أيضـا إلى مهـد طفولتهـم مثـل النـاس الآخريـن؟ ضحـك مـن فكرتـه لتصنيـف رجـال الأمـن والمخابـرات باعتبارهـم لا يمتـون للبـشر ومشـاعرهم العاديـة بصفـة، فكّـر أن النظـام بممارسـاته السـيئة هـو الـذي رسّـخ تلـك الفكـرة عنـد عمـوم النـاس، أنّ رجـال الأمـن هـم وحـوش آدميـة يمتلكـون سـلطات لتعذيـب النـاس

واعتقالهـم بـل وقتلهـم ولا تسـتطيع أيـة جهـة أن تحاسـبهم.

تذكـر أنـه كان يراهـم حـين يعـبرون في اسـتعراضات أسـبوعية للقوة في سـوق مدينـة النهـود، أكتافهـم ورؤوسـهم مرفوعـة، وأجسـامهم مدججـة بالأسـلحة، يبتعـد النـاس عـن طريقهـم خوفـا مـن جبروتهـم، يمكنهـم اختـلاق مشـكلة مـع أي شـخص فقـط لمجـرد إثبـات قوتهـم وسـلطتهم ورغبتهـم المعلنـة في إذلال النـاس وإرهابهـم.

لم يطـل انتظـار سـعيد وصلـت رسـالة أخـرى في اليـوم التـالي إلى بريـده الإلكـتروني، بـدأ رسـالته بالقـول لم تسـألني أيـن اعمـل كـما توقعـت، كنـت قـد درسـت القانـون في جامعـة القاهـرة الفـرع، وبعـد أن أكملـت دراسـتي كانـت هنـاك وظائـف في جهـاز الأمـن، قدمـت أوراقـي وجـاء القبـول بعـد فـترة، أرسـلوني إلى الكليـة الحربيـة تلقيـت فيهـا تدريبـا لعـدة أشـهر، ثـم تـم تعيينـي برتبـة المـلازم أول وترقيـت حتـى وصلـت الآن درجـة الرائـد، أعمـل الآن مـع جهـاز الأمـن الاقتصـادي.

بـدأت الأوراق تتكشـف، فكّـر سـعيد، آثـر عـدم الـرد بسرعـة حتـى يفكـر فيـما يجـب أن يكتبـه، شـعر أنّ الرائـد نـصر الديـن يحـاول اسـتدراجه في اتجـاه معـين، كتـب لـه مسـاء ردا قصـيرا، قـال لـه ممازحـا مـع شـغبك القديـم وسـعيك الدائـم لتكـون قائـدا لمجموعتنـا، لـو أنـك بقيـت في الجيـش بعـد إكـمال الكليـة الحربيـة، كنـا توقعنـا أنـك دون شـك سـتُدبر انقلابـا عسـكريا!

رد نـصر الديـن بعـد سـاعات ضاحـكا وقـال مـا كان لي أن أسـتمرّ طويـلا في الجيـش، لقـد كنـت مُجـرد متطفـل، لفـترة قصـيرة.

سـأله سـعيد في الرسـالة التاليـة، وهـل شـاركت في العمليـات العسـكرية؟

قـال نـصر الديـن في رسـالته التاليـة: نعـم شـاركت في عمليـة صيـف العبـور التـي اسـتهدفت القضـاء عـلى التمـرد في الجنـوب.

رد عليـه سـعيد: سـمعت مـن جنـدي شـارك في تلـك العمليـات أنـه تـم فيهـا ارتـكاب جرائـم رهيبـة في حـق المدنيـين، قـال لي لقـد نفذنـا أمـرا بعـد دخولنـا إحـدى المـدن، بحـرق المستشـفى بـكل مـا فيـه مـن مـرضى!

لم ينـف نـصر الديـن ذلـك، قـال الحـرب مشـكلة ولا توجـد حـرب في الدنيـا لم يتـم فيهـا ارتـكاب تجـاوزات!

لكـن تلـك التجـاوزات الرهيبـة قـال سـعيد، أدّت لانفصـال الجنوب، أدّت لتعميق المشـكلة.

رد نـصر الديـن ضاحـكا وقـال أود أن أتبـادل معـك ذكريـات الطفولـة لمـاذا تجـرني إلى الحـروب والسياسـة؟

توقفـت المراسـلات بينهـما لأيـام، تحـاشى سـعيد أن يـأتي عـلى ذكـر النقيـب عبـد اللـه لم يكـن متأكـدا إن كان نـصر الديـن يذكـره، كان متقدمـا عليهـما بدفعـة واحـدة، انشـغل سـعيد خلال الأسـبوع، بسـبب انتعـاش حركـة السـياحة صيفـا أبلغـه مديـر المطعـم أن بإمكانـه العمل لثلاثـة أيـام خـلال الأسـبوع أن رغـب في ذلـك، دفـن مخاوفـه في العمـل كان يشـعر أن اتصـال نـصر الديـن بـه يحمـل تهديـدا خفيـا، أرسـل في فـترة الاسـتراحة أثنـاء العمـل رسـالة لشـقيقه طالبـا منـه أن ينتبـه إلى والديـه وإلى نفسـه، وألا يتأخـر خـارج البيـت مسـاء.

لم يقـرأ شـقيقه الرسـالة، كان الوقـت متأخـرا لابـد أنـه أخلـد إلى النـوم، في الصبـاح وجـد رسـالة مـن شـقيقه، ووجـد رسـالة بريـد إلكـتروني مـن نـصر الديـن، بـدأ رسـالته بالقـول أنـه محـرج أن يكتـب لـه في هـذا الموضـوع، لكنـه وبحكـم الزمالـة والصداقـة والجـوار آثـر في النهايـة أن يتحـدث إليـه بوضـوح، قـال إن المهـم أن يصدقـه أن هـذه الرسـالة لا يعلـم بهـا أحـد، وأنـه قـد يطـرد مـن عملـه ويتعـرض لمشـاكل أن عـرف بهـا أحدهـم، لم يفهـم سـعيد مـن يقصـد بأحدهـم؟ هـل يقصـد جهـاز الأمـن والمخابـرات أم جهـة أخـرى.

قـال نـصر الديـن أنـه بحكـم عملـه يتـاح لـه الدخـول إلى ملفـات سريـة كثـيرة، وقـد عـرف بالصدفـة بعـض المعلومـات حـول مشـكلة المسـتندات بحوزتـه، قـال إنـه لا يعـرف بالضبـط طبيعـة هـذه المسـتندات ومـا الـذي أوقعهـا في يـده، لكـن مـا يعرفـه جيـدا أن الجهـة التـي يهمهـا أمـر هـذه المسـتندات، تـولي هـذا الأمـر أهميـة قصـوى، وانّ هـذه المسـتندات ربمـا تسـاوي عندهـم الكثـير، وبحكـم خبرتـه وبحـق الصداقـة والزمالـة يرجـوه أن يتنـازل ويتفاهـم معهـم أن اتصلـوا بـه، لأن عـدم التعـاون معهـم قـد يقـود لعواقـب خطـيرة ربمـا تهـدده شـخصيا وتهـدد سـلامة أسرتـه.

للوهلـة الأولى شـعر سـعيد بالنـدم، لسـفره، كان قـرارا أنانيـا، كان يظـن انـه يعـرّض نفسـه فقـط للخطـر حـين يكشـف عـن وجـود المسـتندات معـه، كان يجـب أن يفكـر انّ إجرامهـم الـذي يطـال الأبرياء دائمـا، قـد يمتـد الى اسرتـه، كان يجـب امـا ان يبـق معهـم أو يأخذهـم معـه في سـفره، فكّـر أن السـفر لوالديـه المسـنين عـبر الصحـراء والبحـر قـد يكـون انتحـارا، لكـن كـمال كان يمكـن أن يرافقـه، فكّـر مـرة أخـرى:

يسافر كمال معه، ولمن يترك والديه؟

عرف انّ مراسلات الرائد نصرالدين كانت كلها ومن اول رسالة تحمل رسائل مبطنة له، ربما لم يقم الرائد نفسه بكتابة تلك الرسائل، الإشارة لمقابلته لشقيقه كانت أكثر الرسائل التي أصبحت تؤرق سعيد، بدأ يفكر بسرعة عرف أنّ الخطر يقع مباشرة على شقيقه، ستكون تلك ورقتهم لمساومته، تذكر أنّ لوالدته ابنة أخت تعيش وحيدة مع أطفالها بعد وفاة زوجها، وقد سبق لها أن ترجت والدته كثيرا في الفترة التي لم يكن كمال موجودا فيها في المدينة، لتنتقل مع والده للسكن معهم في بيتهم الكبير حتى تتمكن من رعايتها مع أطفالها، لكنّ والدته وربما والده أيضا كانوا دائما يرفضون ترك البيت.

قرر ان يحاول التصرف بسرعة، أرسل لكمال رسالة واتساب بسرعة يسأله ان كان بإمكانه السفر، حاول ان يجعله يفهم ان هناك خطرا عليه، طلب منه أن يذهب لمقابلة بنت خالته ويبلغها انه مضطر للسفر لأمر طارئ ويطلب منها ان تنقل والدته ووالدها للعيش معهم لحين عودته.

كان قد تحدث مع بعض المهاجرين القادمين من دولة تشاد، ابلغوه ان السفر من تشاد أكثر سهولة من السفر عبر ليبيا، ويمكن لقريبه المسافر الحصول على جواز تشادي، وببعض المجهود والمال يمكن الحصول على فيزا في جواز السفر.

طلب من كمال ان يبلغ والديه انه مسافر لأمر هام، وسيعود قريبا وعليهم الانتقال مؤقتا للعيش مع سكينة ابنة اخت والدته،

وطلب منه ان يسافر فورا، وبأية وسيلة ممكنة، وسيرسل له كل ما يحتاجه من مال بمجرد وصوله الى تشاد.

طلب منه الحذر والا يحمل حقيبة او أي شيء يمكن ان يشي بنيته السفر، فقط جواز السفر وبعض المنصرفات، كما طلب منه أن ينبه ابنة خالته أن تنتظر حتى يسافر، ثم تحضر لنقل والديه الى بيتها، حتى لا ينتبه أحد الى أنه ينوي السفر.

مساء اليوم نفسه كان كمال في الفاشر، أبلغ سعيد انه سيستقل عربة الى مدينة ابشي وسيصل انجمينا غدا ظهرا، حين غادر الفاشر أرسل كمال رسالة أخرى، وطمأن سعيد ان كل شيء يسير بصورة جيدة، وانه خلال ساعات سيعبر الحدود وسيتصل به مجرد ان يصل الى مدينة ابشي.

لم يستطع سعيد النوم طوال الليل، ربما بسبب ضعف الانترنت في المنطقة الحدودية، لم يقرأ كمال الرسائل التي أرسلها سعيد بعد مغادرة كمال للفاشر.

كان قد قرّر الا يذهب تلك الليلة الى العمل في المطعم، لكنه فكر انه لن يستطيع النوم قبل أن يطمئن على وصول كمال الى داخل تشاد، وان من الأفضل له أن يذهب الى العمل، ربما يحول الانشغال بالعمل بينه وبين القلق والتفكير المستمر في الخطر الذي يمكن ان يتعرّض له شقيقه.

46

قام يزيد موسى وعدد من المحررين بتمشيط العاصمة المثلثة كلها، لم يتركوا مستشفى أو حتى المراكز الصحية الصغيرة ونقاط الشرطة في أطراف العاصمة، قاموا بطباعة صورة هاجر، وتوزيعها في أماكن التجمعات مع رقم تليفون الصحيفة، لكن كل ذلك لم يثمر شيئا.

توقف إصدار صحيفة الفجر بسبب نهب كل أجهزة الكمبيوتر، كان واضحا أنهم يريدون تعطيل الصحيفة لأطول فترة ممكنة، لم يكتفوا بحمل أجهزة الكمبيوتر كلها، استولوا على كل الأجهزة التي عثروا عليها في المكان، حتى ثلاجات الماء والطابعات الصغيرة والكاميرات وأجهزة التسجيل التي تستخدم للحوارات الصحفية، وحطموا المكاتب بعد أن نثروا محتويات إدراجها على الأرض، قام رجال الشرطة بمعاينة المكان، بدا عليهم وهم يفحصون كل شيء بصورة آلية أنهم يعرفون الفاعل.

سأل ضابط الشرطة رئيس التحرير إن كان يشك في شخص ما، أوضح لهم أن إحدى زميلاتهم تعرضت قبل يوم من الحادث إلى الاختطاف من جهة مجهولة، قال: اعتقد إنّ هناك رابط بين الواقعتين، لم يزد عن ذلك ولم يسال الشرطي عن ظروف اختطاف الصحفية، أو لماذا يعتقد رئيس التحرير بوجود رابط بين الحادثتين.

تفرغ رئيس التحرير هو أيضا للبحث والسعي مع المحامي لمحاولة الاتصال مع بعض النافذين علّ أحدهم يتمكن من

تقديـم المسـاعدة.

اتصلـت والـدة هاجـر في اليـوم السـابع كان صوتهـا مضطربـا وهـي تبلغـه أنهـم عـثروا عـلى ابنتهـا ملقـاة في الشـارع بـين الحيـاة والمـوت.

أسرع محمـد نـور الديـن إلى هنـاك، عـرف مـن بعـض شـباب الحـي الذيـن التقـوه أمـام البيـت أن سـيارة بـدون لوحـات، توقفـت في وقـت متأخـر مـن ليـل أمـس في جـزء مظلـم مـن الميـدان وسـط الحـي وقامـوا بحمـل هاجـر مـن داخـل السـيارة، ووضعوهـا عـلى الأرض، ثـم لاذوا بالفـرار بعربتهـم، أوضحـوا أنهـم شـاهدوا العربـة أثنـاء وقوفهـا المريـب، وأسرعـوا نحوهـا وقبـل وصولهـم كانـت قـد انطلقـت مـرة أخـرى.

كان واضحـا أنهـا تعرضـت للتعذيـب، هـالات سـوداء حـول العيـون، ورضـوض في كل أجـزاء جسـمها، طلـب الطبيـب الـذي عاينهـا بعـد أن اسـتدعاه محمـد نـور الديـن، طلـب نقلهـا فـورا إلى المستشـفى، أسرّ لرئيـس التحريـر أنّ الفتـاة تعرضـت فيـما يبـدو لتعذيـب شـديد ولاعتـداء جنسي،

أُجريـت لهـا إسـعافات سريعـة في المستشـفى، كان هنـاك كـسر في إحـدى يديهـا، اسـتدعت وضعهـا في الجبـس، نُظفـت جروحهـا، وأعطيـت حقنـة مهـدئ قـوي استسـلمت عـلى اثرهـا للنـوم، نامـت والدتهـا بجانبهـا وبقـي رئيـس التحريـر ويزيـد وبعـض الزمـلاء الآخرين سـاهرين طـوال الليـل، في الصبـاح كانـت لا تـزال مرهقـة، لاحـظ الطبيـب ارتفاعـا في درجـة الحـرارة، طلـب مـن المعمـل فحـص الـدم، وجـدوا أنهـا مصابـة أيضـا بالملاريـا، شرح الطبيـب لرئيـس التحريـر أن الملاريـا ربمـا إصابتهـا بسـبب الإرهـاق الشـديد وسـوء التغذيـة، حقنهـا

الطبيب فور ظهور نتيجة الفحص، بدواء آرتيمثر المضاد للملاريا.

في اليوم الثالث كانت حالتها قد تحسنت كثيرا، قال الطبيب إنه يمكن أن تذهب إلى البيت وسيقوم بزيارتها يوميا، قام رئيس التحرير بإعادتها مع والدتها إلى البيت، طوال فترة وجودها في المستشفى لم تتكلم هاجر، ولم ترد على أسئلة رجل الشرطة الذي جاء بناء على تقرير المستشفى، كانت الدموع تغطي وجهها باستمرار، استمرت نفس الحالة في البيت، قال الطبيب بعد أول زيارة لها في البيت لرئيس التحرير، وبعد أن حقنها بالجرعة الأخيرة من دواء الملاريا، إنّ من الأفضل عرضها على طبيب نفسي، أوضح أنها تعاني في الغالب من انهيار عصبي أو اكتئاب حاد.

اعتذر الطبيب النفسي الذي اتصل به رئيس التحرير عن الحضور إلى البيت، وطلب إحضار المريضة إلى عيادته، اضطروا لحملها مرة أخرى، لم تكن راغبة في التحرك من البيت، فحصها الطبيب، وكتب بعض الأدوية وطلب أن يراها مرة أخرى خلال أسبوع، شرح الطبيب بعد أن خرجت المريضة بمساعدة والدتها لرئيس التحرير وليزيد موسى، معتقدا أنهما إخوة المريضة، أنها قد تعرضت لاعتداءات شديدة ربما أيضا اعتداء جنسيا، وان الصدمة سببت لها انهيارا عصبيا، وقد تحتاج إلى علاج طويل لمعالجة آثار الصدمة القوية الناتجة عن تجربة غير عادية.

اقترح عليهما الطبيب رفع مذكرة إلى المندوب السامي لحقوق الإنسان عبر مكتب الأمم المتحدة في الخرطوم، قال لهما أنه عالج حالات كثيرة لضحايا الاعتقال والتعذيب خلال السنوات الأخيرة، وانّ هذه ممارسة يومية عادية لجهاز الأمن والمخابرات.

قـال إنـه كتـب لهـا دواء يسـاعد عـلى النـوم، ودواء آخـر يعالـج بعـض آثـار الصدمـة، قـال إن الأدويـة وحدهـا لـن تكـون كافيـة وأنّ هنـاك عـلاج متخصـص لمثـل هـذا النـوع مـن الصدمـات، لكنـه يفضـل أن يبـدأ هـذا العـلاج بعـد تعافيهـا مـن آثـار الجـروح وكسر اليـد، أوصى الطبيـب بـأن يكـون هنـاك مـن يتابـع المريضـة عـلى مـدار السـاعة، أوضـح أن المريـض في مثـل هـذه الحـالات قـد يُقـدم عـلى الانتحـار.

شـكره رئيـس التحريـر ولحـق بهـما، توقـف عنـد صيدليـة قريبـة مـن عيـادة الطبيـب لـشراء الأدويـة، وجـد دواء واحـدا ولم يعـثر عـلى الآخـر تطـوّع يزيـد بالذهـاب إلى صيدليـة أخـرى قريبـة، وفعـلا عـاد بالـدواء بعـد قليـل.

أعادهـم إلى البيـت، أبلـغ محمـد نـور الديـن والـدة هاجـر بوصيـة الطبيـب حـول ضرورة الانتبـاه لهاجـر طـوال الوقـت، حتـى لا يحملهـا الاكتئـاب الشـديد عـلى أن تـؤذي نفسـها. اقـترح يزيـد أن يقـضي الليـل معهـما ربمـا تكـون هنـاك حاجـة لأي شيء، شـكره رئيـس التحريـر عـلى مبادرتـه، رحّبـت والـدة هاجـر بالفكـرة، وَاعَـدْت لـه بسرعـة غرفـة في الفنـاء مخصصـة للضيـوف.

أعادوهـا مـرة أخـرى بعـد أيـام إلى الطبيـب النفـسي، فحصهـا مـرة أخـرى، لكنهـا لم تـرد عـلى تسـاؤلاته، عـرف مـن والدتهـا أنهـا لا تنـام جيـدا رغـم اسـتخدامها للـدواء، كتـب الطبيـب دواء أقـوى وطلـب أن يراهـا ليبـدأ المرحلـة الثانيـة مـن العـلاج الـذي قـد يسـتغرق عـدة أشـهر، بمجـرد أن تتعـافى جروحهـا وكـسر اليـد، قـال الطبيـب إنـه يتوقـع رؤيتهـم بعـد حـوالي شـهرين هـي الفـترة التـي يحتاجهـا عظـم اليـد ليلتئـم.

كانـت الأم تحـاول طـوال النهـار أن تغذيهـا حسـب تعليـمات الطبيـب حتـى تلتئـم الجـروح والكسـور، كانـت تحـضر الترمـس بكميـات كبـيرة، بعـد أن أوصتهـا بعـض جاراتهـا بفائدتـه في سرعـة شـفاء كسـور العظـام.

بقـي يزيـد معهـم، كان يذهـب أحيانـا أثنـاء النهـار بعـد أن يشـتري لهـم كل طلبـات البيـت، يذهـب إلى بيتهـم يبقـى لبعـض الوقـت مـع والدتـه واخوتـه، قبـل أن يعـود إلى بيـت هاجـر، كان يذهـب أحيانـا إلى الصحيفـة رغـم أن محمـد نـور الديـن أبلغـه أن لا داعـي لحضـوره فليـس هنـاك شيء، وان مـا يقـوم بـه مـن عمـل الآن هـو أهـم مـن أيـة عمـل آخـر.

ذات يـوم كان يزيـد مـع رئيـس التحريـر لوحدهـما، قـال لرئيـس التحريـر، يبـدو أنهـا تعرّضـت كـما قـال الطبيـب للاغتصـاب مـن هـؤلاء الـكلاب، نظـر رئيـس التحريـر إليـه ببعـض الحـرج وقـال أرجـو ألا تقـول هـذا الـكلام لأي مـن الزمـلاء، أو أي إنسـان آخـر، أنـت تعـرف حساسـية هـذا الأمـر في مجتمعنـا.

قـال يزيـد ولأنني أعرف حساسية هـذا الأمـر جئت لأتحـدث إليك.

قال رئيس التحرير مندهشا: ماذا تريد أن تقول؟

قـال يزيـد أريـد أن وافقـت هاجـر أن أقـوم بعقـد زواجـي منهـا فـورا!

بـدا عـلى وجـه رئيـس التحريـر شـعور غريـب، مزيـج مـن الدهشـة والإعجـاب، عـرف أن يزيـد كان يشـعر أن هاجـر تغـرق في بحـر صدمـة الخـوف مـن نظـرة النـاس والمجتمـع أكـثر مـن آلام التعذيـب والجـروح،

وأنـه يمـد يـده لإنقاذهـا.

صمـت قليـلا ثـم قـال: إننـي أشـكرك عـلى موقفـك النبيـل، هـذا موقـف كريـم مـن إنسـان أصيـل، لا أملـك إزائـه إلا الاحـترام، لكـن المشـكلة أنـت تـرى أنهـا حسـب كلام الطبيـب مصابـة بصدمـة، تحتـاج لعـلاج طويـل، ومـن الصعـب مفاتحتهـا الان في أمـر كهـذا، رغـم أننـي متأكـد أنهـا سـتقدر لـك يومـا هـذا الصنيـع.

شـعر يزيـد ببعـض خيبـة الأمـل: قـال كنـت أعتقـد أن مثـل هـذا الأمـر سيسـاعدها عـلى تجـاوز المحنـة.

نعـم قـال رئيـس التحريـر لكـن المشـكلة في الخطـوة الأولى كيـف السـبيل لمفاتحتهـا في مثـل هـذا الأمـر الآن، دعنـا ننتظـر قليـلا ونـرى نتائـج العـلاج، الأيـام تـداوي الكثـير مـن المصائـب، دعنـا نأمـل خـيرا ربمـا خـلال أيـام تسـتعيد رغبتهـا في الـكلام، ونفاتحهـا في الأمـر.

لكـن هاجـر السـناري لم تسـمع قـط برغبـة يزيـد في مسـاعدتها، كانـت تعـرف بأنـه يحبهـا، وبـدأت هـي نفسـها تشـعر بميـل نحـوه في الفـترة مـا قبـل اختطافهـا، لكـن تلـك البـذرة لم يقـدر لهـا قـط أن تنمـو وتـرى الضـوء، في نفـس ذلـك اليـوم الـذي تحـدث فيـه يزيـد مـع رئيـس التحريـر، أيقظتـه الأم نائحـة في وقـت متأخـر مـن الليـل، قالـت إن هاجـر لا تسـتطيع التنفـس، أسرع يزيـد بنقلهـا إلى المستشـفى كان رئيـس التحريـر يـترك عربتـه ليزيـد يوميـا لاسـتخدامها ليـلا في حـال حـدوث أمـر طـارئ، نقلهـا يزيـد بسرعـة إلى المستشـفى، بذلـوا جهـدا خارقـا لإنقاذهـا في قسـم الطـوارئ لكـن دون جـدوى، قـال الطبيـب إنهـا تناولـت جرعـة عاليـة مـن الـدواء المنـوّم.

47

رغم انشغاله بالعمل طوال الليل لكن سعيد بقي قلقا على شقيقه، ينظر في شاشة تليفونه كل بضع دقائق أملا أن تصل رسالة تزيل قلقه، لكن الجهاز بقي جثة هامدة، عاد إلى مركز اللجوء صباحا مرهقا وأخلد إلى نوم مشوش، رأى فيه كمال وقد حاصرته مياه السيول، استيقظ فزعا منتصف النهار، قبل أن يفتح عيونه جيدا، رفع التليفون أمام عينيه، قفز من الفرحة، كانت هناك رسالة من كمال، يعتذر فيها على التأخر في الرد على رسائله، قال إنه وصل مدينة ابشي صباحا، وأنه أضاع بعض الوقت، قبل أن يعثر على متجر لأجهزة التليفون، ويقوم بشراء كارت جديد وشحن تليفونه المحمول، أوضح أنّ كل شيء يسير بصورة جيدة، سوف يستقل حافلة أخرى، وسيصل مساء اليوم إلى انجمينا وعده سعيد بأن يرسل له كل ما يحتاجه من مال للإقامة في أنجمينا وكل منصرفات السفر.

بعد أن اطمأن قليلا على كمال، غسل وجهه ونظّف أسنانه وحلق ذقنه، وقضى بعض الوقت في دورة المياه، ثم اغتسل وأعد لنفسه وجبة خفيفة من البيض المقلي والقهوة، كان لا يزال يشعر بالقلق، يذكر أنه سمع مرة في الفترة التي قضاها في السجن إنّ انجمينا تعج بعملاء جهاز الأمن التابع للإخوان المسلمين، بسبب أنّ تشاد كانت مقرا لبعض الحركات المتمردة في إقليم دارفور.

كان قد حصل على رقم تليفون مهاجر تشادي يقوم بتحويل

النقـود إلى تشـاد، يقـوم باسـتلام النقـود ويتصـل بشـخص في أنجمينـا لتسـليم المبلـغ للمرسـل إليـه. مسـاء بعـد أن اطـمأن إلى وصـول كـمال إلى انجمينـا قـام بإرسـال المـال لشـقيقه ليدفـع تكلفـة الفنـدق الـذي سـيقيم فيـه، ويدفـع مبلغـا مـن المـال لشـخص مـا سيسـاعده في الحصـول عـلى جـواز سـفر تشـادي، ولتغطيـة كل منصرفاتـه الأخـرى، ووعـده بـأن يرسـل لـه منصرفـات السـفر خـلال أيـام، بمجـرد أن يحصـل عـلى جـواز السـفر.

كـمال قـضى بضعـة أيـام قبـل أن يعـثر عـلى شـخص وعـده بالمسـاعدة في اسـتخراج جـواز سـفر، كان جنديـا في الشرطـة، سـاعده أحـد موظفـي اسـتقبال الفنـدق عـلى التعـرف إليـه، أحـضر الرجـل لكـمال أوراقـا لتعبئـة معلوماتـه وطلـب منـه إحضـار صـور، دفـع لـه كـمال جـزءا مـن المبلـغ الـذي طلبـه ، وبقـي في الانتظـار، كانـت المدينة تشـبه أي مدينـة في السـودان، وفي كل الشـوارع التـي كان يتسـكع فيهـا أثنـاء النهـار، كان يسـتمع إلى الأغـاني السـودانية تنطلـق مـن المطاعـم، ومتاجـر بيـع أجهـزة الموبايـل وبيـع أقـراص الفيديـو.

سـعيد كان يتحـدث معـه يوميـا، حـكى لـه كـمال كثـيرا عـن الأحـوال داخـل الوطـن، وعـن معانـاة النـاس بسـبب الغـلاء والبطالـة المنتـشرة وسـط الشـباب، الذيـن لا يجـدون فـرص عمـل بسـبب أن الحكومـة تفضـل فقـط تعيـين أعضـاء حزبهـا، وأنـه يتوقـع أن تنفجـر الأوضـاع قريبـا، أوضـح لسـعيد أنّ أهـل النظـام كانـوا يتوقعـون أنّ الأحـوال سـتنفرج بعـد انفصـال الجنـوب بمعجـزة مـا، لكـن مـا حـدث هـو العكـس تمامـا، ازدادت الأحـوال سـوءا.

أبلغـه كـمال بعـد أيـام أنـه اسـتلم جـواز السـفر، وأن الشرطـي

نفسـه الـذي قـام باسـتخراج جـواز السـفر اتفـق معـه عـلى أن يقـوم بإجـراءات الحصـول عـلى الفيـزا، لقـاء مبلـغ آخـر مـن المـال، أوضـح كـمال أنـه تبقـى معـه بعـض المـال سـيدفعه كدفعـة أولى للشرطـي، لكنـه سـيحتاج لمبلـغ آخـر ليدفـع بقيـة المبلـغ المتفـق عليـه لعمـل الفيـزا ولـشراء تذاكـر السـفر، وعـده سـعيد أنـه سيرسـل لـه كل المبلـغ المطلـوب فـورا، حتـى يكـون مسـتعدا أن أعـاد لـه الشرطـي جـواز السـفر في أيـة لحظـة.

شـعر سـعيد ببعـض الارتيـاح، الأمـور تسـير بصـورة جيـدة، لكنه كان لا يـزال يشـعر بقلـق خفـي، مـا لم يركـب شـقيقه الطائـرة لـن يطمـئن قلبـه، قـام بتحويـل كل النقـود التـي تبقـت معـه مـن رحلـة البحـر وكل النقـود التـي قـام بادخارهـا مـن العمـل في إيطاليـا وبعـد وصولـه إلى فرنسـا، كان مبلغـا معقـولا سـيكفي في الغالـب لـكل منصرفـات كـمال حتـى وصولـه إلى فرنسـا، اسـتلم كـمال المبلـغ في اليـوم التـالي، كتـب لسـعيد أنـه اسـتلم المبلـغ، وأنّ الشرطـي وعـده أنـه سـيعيد إليـه الجـواز خـلال أسـبوع تبقـت منـه ثلاثـة أيـام، وعـده الشرطـي أيضـا بأنـه سـيأخذه إلى وكالـة سـفر بعـض أصدقائـه لـشراء تذكـرة السـفر وحجـز مقعـد الطائـرة، ذكـر في نهايـة رسـالته أنـه يريـد الذهـاب الآن إلى السـوق بحثـا عـن معطـف، لأنـه سـمع أن الـبرد أصبـح شـديدا في أوروبـا.

كانـت السـاعة الثامنـة مسـاء حـين تلقـى سـعيد تلـك الرسـالة، سـتكون تلـك آخـر رسـالة يتلقاهـا مـن شـقيقه، خـلال دقائـق قليلـة أصبـح تليفـون كـمال مغلقـا، بقـي سـعيد قلقـا طـوال الليـل رغـم أنـه حـاول أن يطمـئن نفسـه، ربمـا فرغـت بطاريـة التليفـون الموبايـل وهـو

خارج الفندق، لم يذهب إلى العمل تلك الليلة وبقي ساهرا حتى الصباح.

استسلم قرابة الفجر للنوم بسبب الإرهاق الشديد، لكنه استيقظ بعد حوالي ساعتين، أمسك بجهاز الموبايل أملا في أن تكون رسالة من كمال قد وصلت، لم يجد شيئا، أرسل له رسالة أخرى، لم تكن هناك إشارة تفيد بوصول الرسالة، حاول الاتصال به، فهم من الرسالة المسجلة أنّ التليفون مغلق، تذكر أن كمال كان قد أرسل له في إحدى رسائله اسم ورقم تليفون الفندق الذي يقيم فيه، كان قد كتب ضاحكا أنه سمع أن هناك مجموعات من الصبية، تخطف التليفون الموبايل أثناء استخدامه في الشارع، أخشى أن يختطف أحدهم تليفوني! تذكر سعيد تلك الرسالة وأعطاه ذلك بعض الأمل تمنى من قلبه أن يكون أحدهم قد خطف جهاز تليفون شقيقه، وأن يكون ذلك هو السبب في عدم رده على الرسائل أو الاتصالات.

اتصل مباشرة برقم تليفون الفندق، رد عليه شخص ما من استقبال الفندق، عرّفه سعيد بنفسه وسأله إن كان شقيقه موجود في الفندق، قال الرجل: إن كمال خرج بالأمس ولم يعد مرة أخرى، ربما تأخر في الخارج لسبب ما لأنه لم يعد مفتاح حجرته، ولا تزال بعض ملابسه موجودة في الغرفة!

سقط سعيد أرضا من هول الصدمة، لابد أنهم اختطفوه! لا بد من أن أسوأ ما كان يتوقعه قد وقع، بعد أن تمالك نفسه قليلا عاد ليتصل بالفندق، سأل الرجل عن الشرطي الذي استخرج جواز السفر لكمال ربما يعرف شيئا عنه، قال الرجل إن زميله

الآخر قريب للشرطي وهو الذي عرّف كمال به، لكنه غير موجود الآن، ووعد سعيد أنه بمجرد حضوره سيطلب منه الاتصال بقريبه الشرطي لسؤاله عن كمال، ويمكنه أن يعاود الاتصال خلال بضع ساعات.

شعر سعيد أنه سيفقد عقله، كان يعتقد أنه يمكنه أن ينتزع ابن عمه النقيب عبد الله من بين أيديهم، فإذا هو يخسر شقيقه أيضا، ماذا سيقول لوالديه؟ هل يقول لهم أنه قام بنفسه بدفع شقيقه إلى حتفه؟ ومن سيرعى والديه؟ هل يعود هو أيضا ليلقى حتفه أم يبقى بعيدا ليموت من القلق على شقيقه الذي انضم لقائمة المفقودين، ومن القلق على والديه.

تذّكر في غمرة القلق والجنون الذي انتابه، المثل الذي يقول: (جاء يكحلها فأعماها) كانت الدموع تغطي وجهه وهو يردد: يا ليتني لم أبحث عن النقيب عبد الله، ليتني لم أخبرهم أنني أملك تلك المستندات اللعينة التي دمرتني ودمرت أسرتي كلها!

بدأ بعد قليل يمسح دموعه، ويحاول ترتيب أفكاره: لازلت أملك الورقة التي تعني لهم الكثير، سأقاتلهم حتى النهاية وسأثأر لكل ما فعلوه بي وبأسرتي! وسأبدأ من سفارتهم هنا!

بدأ يهدأ قليلا، عرف أنّ الاحتفاظ بالهدوء وصفاء التفكير سيكون الوسيلة الوحيدة للنيل منهم، اتصل مرة أخرى بالفندق، تحدّث مع الرجل الآخر قريب الشرطي، أبلغه الرجل أنه اتصل بصالح قريبه الشرطي، الذي أوضح أنه أيضا يحاول منذ الأمس الاتصال بكمال دون جدوى، لأنه يريد تسليمه جواز السفر بعد

أن قـام بعمـل الفيـزا.

سـأل سـعيد موظـف الفنـدق إن كان بإمكانهـم عمـل بـلاغ للشرطة، قـال الرجـل إنـه سـيتصل بقريبـه الشرطـي مـرة أخـرى لسـؤاله كيـف يجـب عمـل ذلـك، ترجّـاه سـعيد أن يقـوم بذلك فـورا لأن حياة شـقيقه ربمـا تكـون في خطـر، وشرح لموظـف الفنـدق باختصـار أنـه يخـشى أن يكـون جهـاز الأمـن السـوداني قـد اختطف شـقيقه، بـدا الرجل متشـككا قليـلا، أوضـح: ربمـا تكـون جريمـة سرقـة، ربمـا كان مـع شـقيقك مبلـغ مـن المـال! لكـن عمومـا سـأبلغ الشرطـة بمـا قلتـه لي عنـد فتـح البـلاغ، لابـد أنهـم يعلمـون إن كان للأمـن السـوداني وجـود في المدينـة.

فكّـر سـعيد أن يسـافر إلى انجمينـا لكنـه لم يكـن يملـك أيـة وثيقـة سـفر، وحتـى لـو حصـل عـلى الوثيقـة لابـد أنهـم سـيقتلونه هنـاك في لحظـات مـادام اختطفـوا شـقيقه بتلـك السـهولة، ودون أن يتركـوا أيـة أثـر.

توقّـع أن تصلـه رسـالة عـبر البريـد الإلكـتروني لكنـه لم يجـد شـيئا حتـى نهايـة اليـوم، ظـل يعـاود الاتصـال بالفنـدق حتـى تأكـد أنهـم قامـوا بعمـل بـلاغ لـدى الشرطـة، وانّ الشرطـة وعدتهـم بالتحـري ومراقبـة كل السـيارات والحافـلات التـي تسـافر شرقـا أمـلا في العثـور عليـه أن أقدمـت الجهـة التـي اختطفتـه عـلى نقلـه إلى السـودان.

اتصـل سـعيد في اليـوم التـالي بمحاميـه وأخـبره بواقعـة اختفـاء شـقيقه في إنجمينـا، أوضـح انـه يعتقـد أنّ جهـاز الأمـن والمخابـرات قـام باختطافـه، طمأنـه المحامـي أنـه سـيقوم بكتابـة تقريـر عـن الواقعـة، ويرسـله مـع معلومـات شـقيقه إلى منظمـة الصليـب الأحمـر، وعـدد

من منظمات حقوق الإنسان، وسيرسل أيضا بالمعلومات الجديدة إلى وزارة العدل الفرنسية، طلب فقط من سعيد أن يطلب من موظف الفندق إرسال صورة من بلاغ الشرطة عن طريق الفاكس أو الإيميل.

بدأ سعيد يفكر بهدوء أكثر في اليوم الثالث، مؤكد أنهم سيتصلون به لمساومته، سيعطيهم ذاكرة الفلاش، وسيحاول إنقاذ حياة شقيقه، يعرف أنهم سيضعون كل الاحتمالات، وسيفترضون أنه يحتفظ بصور أخرى من المستندات! سيحاول أن يجاري ألاعيبهم دون أن يتورط في أية تنازلات أو يستجيب لإغراءاتهم.

كان عقله يعمل بسرعة، يحاول في نفس الوقت أن يفكر بهدوء، حتى لا يرتكب أية أخطاء أخرى، يجب أن يقوم بترتيب أوضاع والديه، وضمان ألا يؤثر غياب كمال عليهما، يبحث عن منظمات أو جهات يمكنها مساعدته، يتابع مع محاميه إجراءات الحصول على إقامة،

تتيح له الحصول على وثيقة سفر لضمان حرية الحركة إن اضطر للسفر، للقاء والديه في أي مكان.

بعد أسبوع وصلت رسالة أخيرة من تليفون شقيقه، كان واضحا من صيغتها أنه لم يكتبها:

وصلت أرض الوطن بخير، سيتصل بك صديقك نصر الدين خلال أيام للسلام عليك واستعادة ذكريات أيام رفقة الزمن الجميل!

تأمّل سعيد الرسالة بقلب منفطر، من خلال دموع جفّت في

قــاع عينيــه، حــاول النفــاذ إلى كل حــرف فيهــا، إلى كل إشــارة ترقــد بــين ســطورها القليلــة، ألقــى التليفــون الــذي كان يصــدر صفــيرا حــادا إيذانــا بقــرب نفــاذ بطاريتــه، ألقــاه بجانبــه وللمــرة الأولى لم يفكــر في إعــادة شــحنه: إذن فقــد كتبهــا نــصر الديــن: زميــل أيــام رفقــة الزمــان الجميــل!

***

بعــد ســقوط نظــام عمــر البشــير الديكتاتــوري الإخــواني، راجــت شــائعات قويــة عــبر وســائط التواصــل، أن أعــدادا كبــيرة مــن آلاف المفقوديــن خــلال تلــك الحقبــة المظلمــة، قــد عُــثر عليهم في حــال مزرية في ســجون سريــة تحــت الأرض، في أنحــاء مختلفــة مــن الســودان، لكــن أحــدا مــن هــؤلاء المفقوديــن وبعــد مــرور أكــثر مــن عــام عــلى ســقوط الديكتاتــور لم يعــد بعــد إلى ذويــه.

Willows House
منشورات
ويلوز هاوس